قرّرت وزارة المعارف العموميّة استعمال هذا الكتاب بمدرستى
دار العلوم والمعلّمين العليا وبالمدارس الأوليّة للمعلّمين والمعلمات



وعلاقتها بالتربية

تأليف

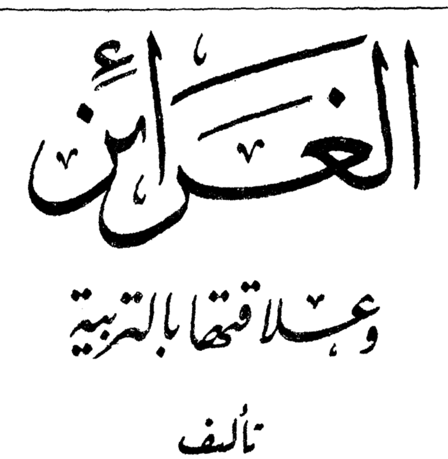
الشيخ محمد حسنين الغمراوى بك

المفتّش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

﴿ الطبعة الخامسة منقحة ﴾

مطبعة أمين هنديه بمصر سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م

قرّرت وزارة المعارف العموميّة استعمال هذا الكتاب بمدرستى
دار العلوم والمعلّمين العليا وبالمدارس الأوليّة للمعلّمين والمعلّمات



تأليف

الشيخ محمد حسنين الغمراوى بك

المفتّش الأوّل للغة العربية بوزارة المعارف

﴿ الطبعة الخامسة منقحة ﴾

مطبعة أمين هنديه بمصر سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م

فهرس

كتاب الغرائز وعلاقتها بالتربية



مقدّمة

الحمد لله على ما أولى وأنعم . وصلّى الله على سيّدنا محمد وسلّم .

﴿ وبعد ﴾ فإنّ لنهوض الأُمم ، أساساً من عوالى الهمم . ومن تطلع إلى الارتقاء فهيهات أن يظفر به إلّا إذا شمّر عن ساعده . وميّز صحيح الرأى من فاسده . والرأى الحصيف يُعْوزه التعليم ، حتّى يبلغ مداه من الإجلال والتعظيم . والمربى القدير هو الذى يتفقّد مطالب الحياة من جميع نواحيها ، ويختبر المدارك ويتعهّدها وينمّيها ، ويدرس الميول ويقيم لها وزنا ، ويسوس الفطرة الشريفة ويتّخذ منها عونا . ولقد جرى المربّون أشواطاً بعيدة وراء التعليم وجعلوه مطمح أنظارهم ، ومرمى سهام أفكارهم ، باحثين عن مكنونه ، مفجّرين ينابيع عيونه ، منطلقين كالسهم فى غضونه ، حتّى ذلّلوا مصاعبه ، وهجروا مثالبه

وجدير بكلّ أُمّة تتطلّب المجد أن يكون لها من المجرّبين عضد

تستند إليه ، وتعتمد عليه . وإذا طمحت إلى الفوز بدونه فقد طلبت المحال ، وسارت فى طريق الضلال .

لا يخطئ من يعزو جمودنا ، وضعف إرادتنا ، وظهور آثار الكهولة قبل أوانها فينا ، إلى أمثاله الذين تصدّوا للتعليم وكانوا بقديمهم مستمسكين ، وأمام النشء واقفين جامدين

قابلت سريًّا ومعه ولداه يناهز أحدهما الرابعة ، ويناهز الآخر السادسة من العمر . أمّا أكبرهما فأخذ يتلو على مسمع والده نشيدا ، وكان تعبيره سديدا . وفى غضون ذلك استولت على أخيه الصغير دواعى الاضطراب ، فظنّها أبوه خروجاً عن واجب الآداب ، وعدّ اضطرابه من الرعونة ، وأجبره على التزام السكينة . فصَدَع الصغير بالأمر قليلا ، ثمّ انقلب على عقبه مخذولا ، لأنّ نفسه لا تنفكّ مطيعة ، لنزعات الطبيعة

فانظر كيف غفل الوالد عن درس الطبيعة الإنسانيّة فى شخص ابنه وفلذة كبده . ولو تنبّه إلى ما كمن فى ابنه من أنواع الغرائز ، ودَرَس أطوارها ، وتفقّد آثارها ، لخفّف عن نفسه لوْعة التعب ، ولهرب من وجه الغضب ، ولاكتسب مودّة ابنه الذى هو أكثر الناس طلباً لها وحبّاً فيها . نعم إنّ ابنه ذو نفس صغيرة ، لا تصل إلى مستوى نفسه الكبيرة ، وإنّ ميول الابن تتّجه إلى المحسّات الرشيقة ، دون المعانى الدقيقة ؛ فالنشيد الذى يصغى إليه الوالد لرائع معناه ، ليس له ذلك الأثر فى ذهن الطفل حتّى يدعوه إلى الانتباه . ولمّا ضقت

بهذا الموقف ذرعا ، طلبت إليه أن يعيرنى سمعا ، ثمّ توسّلت إليه أن يكل إلىّ أمر ابنه الذى ظنّه عاصيا ، وبشئونه متلهّيا ، فأقبلت عليه وقلت : هل تحفظ يا بنىّ ماحفظ أخوك ؟ قال : نعم ، وجرى فى وجهه ماء البشاشة والسرور . هل لك أن تحرّك أعضاءك تمثيلا لهذا النشيد ؟ فترنّح فرحا ، وأخذ يمزُج النشيد بحركات أعضائه ، حتّى استحقّ عطف والده وإعجابه

فلو أنصف الآباء والمعلّمون وأراحوا الطفل من عناء كبير ، وشرّ مستطير ، ووصلوا حبل المودّة بينهم وبينه ، وأقرّوا عينه ، ورغبوا في علاج يكون أثره فى النفس جليلا ، لم يجدوا سوى درس الغرائز سبيلا

عرض لأحد العلماء أن يلتمس من أطفال ناحيته مساعدته فى إزالة الحصى المتراكم فى فناء داره ، فنظروا إليه بعين الاشمئزاز وأعرضوا عنه ، وفرّوا منه ساخرين . فلمّا استعصى عليه الأمر ، ورأى أنّ قوله ذهب صرخة فى واد طرق باب المنافسة ، فنصب هدفاً غير بعيد من الفناء وأخذ يحصِبه به ، فلمّا رآه الأطفال أقبلوا عليه بعامل الشوق ، ونافس بعضهم بعضاً فى الرماية ، ونال الرجل أمنيّته بدون أن يشعروا أنّه استخدمهم لمصلحته

إنّ الطفل وديعة بين يدى المعلّم يقوّى جسمه ، ويهذّب عقله ، ويزوّده بما ينفعه فى مستقبل أيّامه ، والعاقل من أعطاه من كلّ شىء قدراً مقبولا ، لايتعدّى حدّ الطاقة ، ولا يصل إلى درجة الاهمال ،

مسدّداً عمله بنظام يكفل الموازنة بين القوى الجسميّة والعقليّة والخلقيّة . ولا مُشاحّة فى أنّ تقويم القوى العقليّة فى وقت لم يتكامل فيه نظام الجسم مضعف له وربّما قضى عليه .

من المعلّمين فريق سادت عقولَهم المبادئُ الصادقة ، فاتّخذوا من التشويق شركًا للانتباه . ومتى حادثوا الطفل تنزّلوا إلى المنزلة الملائمة له لكى يدركوا مبلغ علمه ، ثمّ يتّخذوا هذا ذريعة إلى تفهُّم مزاجه فى التعليم . ومنهم فريق طاشوا فاستعملوا سياسة العنف ليملكوا قياد نفسه قسراً ، حتّى لقد صدق فيهم وصف بديع الزمان الهمذانىّ إذ يقول : « زىٌّ أوحش من طلعة المعلّم »

يحقّ للمعلّمين أن يدرسوا الشئون النفسيّة فى أشخاصهم وهى أظهر لهم ، ثمّ يتلمّسوها فى النشء ؛ فيُشرفوا عليهم فى الدرس وفى الأكل والاستراضة ، ويتبادلوا الحديث معهم فيما يثير إحساسهم ويَهيج عواطفهم ، ثمّ يتواروا عنهم فيراقبوا حركاتهم من طرف خفىّ ، ليقتبسوا من هذه المظاهر المتنوّعة شواهد يعتمدون عليها فى معرفة ما انطوت عليه السرائر ؛ ويحق لهم زيادة على ذلك أن يتعرّفوا الأسر وطباعها ليقفوا على سرّ الوراثة وما تنقله المعاشرة ، ليكونوا على بيّنة من الغرائز والميول ؛ ويصبح مايصدرونه من الأحكام سديداً مقبولا

قرّر الأطبّاء أنّ الدواء الذى يؤثّر فى شخص ربّما لا يؤثّر فى آخر . على أنّ تشخيص المرض — كيفما مُحّص — عرضة للخطأ . وقلّما تحقّق الطبيب كنه الداء لتشابه أعراض الأمراض فى الجملة .

ناهيك بما ينجم عن الخطأ فى هذا المجال من إبادة الأرواح. والطبيب النطاسىّ لا يتعجّل فى العلاج ، بل يتريّث حتّى يدرس طباع المريض وعاداته وأوهامه وشئونه الداخليّة ، ليتسنّى له تكييف المرض فيعالجه بحكمة .

لكلّ شخص مأكل خاصّ ، وشئون معيّنة ، وبيئة مميّزة ، واستعداد خاقىّ . ولا تكاد تجد تشابهاً تامًّا بين وجهى توءمين ، ولا بين ورقتين من شجرة واحدة . فإذا كان الأطبّاء يحتاطون فى الأمر عند معالجة الأبدان ، فما ظنُّك بحكماء الأرواح الذين يوكل إليهم تهذيب النفوس ؟ فكم تحتاج الأفراد والأمم إلى دراسة واسعة النطاق . وكم يعجز الطبيب ، ويحار اللبيب ، قبل معرفة كنهها وكنه أعراضها وآفاتها . وكم تجربة يزاولها المعلّم الغيور ، الذى يطمع أن يكون عمله ناجحاً حليف الصواب . وكثيراً ما تهن القوى ، وتفتر العزائم ، وتنبهم الأُمور ، إذا عُهِد إليه فى تعليم طفل واحد . فكيف به إذا زاول تعليم عدد وفير معاً ؟ وكان حريصاً على تفهيمهم دقيق المسائل ، طامحاً إلى تحبيب العلم إلى نفوسهم ، جارياً على سنن العدالة فى الجزاء والعقاب ، على ما بهم من اختلاف بيّن فى المشارب والأخلاق .

لا يفلح المعلّم فى اتّباع ذلك كلّه ، ما لم يدرس أخلاق النشء جميعاً وفرادى . ونحن نعلم أنّ لهم نظاماً عامًّا مشتركاً عماده المساواة ، ونظاماً خاصًّا يرجع الفحص عنه إلى الخبرة الشخصيّة والاجتماعيّة .

وكيفما بلغت براعة القاضى لا يستطيع تقرير الحكم الصائب ،

لأنّ تقدير العقوبة يستلزم درس طبيعة الشخص الذى دلّت القرائن على أنّه مجرم . فقد يكون عند تلبّسه بالجريمة مدفوعاً بباعث قهرىّ لا محيص عنه

لهذا أردت أن أبسط فى هذا الكتاب ، ما تمسّ إليه حاجة المربّين من الغرائز على اختلاف أنواعها ، وطرق تقويمها ، والاستعانة بها فى مطالب التعليم ؛ كاشفاً عن الأغراض الفلسفيّة الدقيقة بالعبارة السهلة المتناوَل ، وبالرسوم المقرّبة للفهم ؛ مُعرضاً عن الاصطلاحات الفنّيّة ؛ معوّلاً على الحجج المنطقيّة . ولم أدع مقاماً يستحقّ الإفاضة إلاّ أفرغت الوسع فى شرحه وتمحيصه والتغلغل فيه بما وصل إليه علمى ، وانتهى بحثى ، ودلّتنى عليه التجارب . وما توفيقى إلّا بالله .

المبحث الاول

الغريزة والعقل

الغريزة قوّة فطريّة ، تصدر عنها أفعال قهريّة لغاية محدودة .

والعقل ملكة كسبيّة ، تتولّى ضبط الأفعال ضبطاً إراديًّا بتدبير خاصّ ، لغرض مقصود .

تفاضل العقول

وباختلاف وسائل الكسب تتفاضل عقول الأشخاص ، فتتنوّع الأعمال الناجمة عنها ؛ على أنّ عقل الشخص الواحد تتفاوت أفعاله ، باختلاف أطواره والمؤثّرات فيه .

أمّا الغرائز فكلّ نوع منها يجرى على منوال واحد ، قلّما أدركت فيه تفاوتا .

الفرق بين الغريزة والعقل

فأعمال العقل متخالفة ، وأعمال الغريزة متشابهة . يظهر لك هذا الفرق جليًّا عند مراقبة شئون الناس فى تدبير مصالحهم ، والافتنان فى مصانعهم والتحيُّل فى المنافسة والغلبة . ولا ترى مثل ذلك لدود القزّ فى صنع الحرير ، ولا للنحل فى جمع رحيق الأزهار ، ولا للخُطّاف فى المهاجرة .

وقد جعل بعض الباحثين الغريزة (الإلهام) خاصّة بالحيوان .

وجعل العقل حبساً على الإنسان . ورأى آخرون أنّ عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان ، وكرّمه الله فمنحه العقل الذى به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه ، وما عرفه من غيره . ومال آخرون إلى أنّ الغريزة فى الحيوان ثابتة الكيان ، وتهذّب فى الإنسان ، ومنها إذ ذاك يتولّد العقل .

فالغريزة والعقل عندالإنسان قوّتان منفصلتان ، فتتولّى الغريزة تدبير الجسم فى الطور الأوّل من الحياة ، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجاً حتى تتضاءل الغرائز وتتسيطر القوى العاقلة ، غير أنّ الغرائز حينئذ تُبقى أثراً يدلّ على حالتها الأولى التى اشترك فيها الإنسان والحيوان . ويذهب الحكيم وليم جيمس[1] إلى ضرورة وجود الغرائز فى تركيب الإنسان ، ولو بعد استيفاء العقل حظّه من الكمال ؛ وإنّ نموّ العقل لا يدلّ على أنّ الغرائز ضعفت وفنيت ، بل يدلّ على أنّها تهذّبت ، ليتسنّى لها مزاولة الأمور وتدبير الشئون . وقد اعتدّ بهذا الرأى المتأخّرون من المربّين .

---

(١) (William James) وليم جيمس توفى سنة ١٩١١ عالم امريكى نبغ فى الحكمة العقلية وقام بتدريسها فى جامعة هارفارد (نيويورك) تآليفه جذابة فياضة سلك فيها مسلك الابداع

الغرائز عند الحيوان

الغرائز البعيدة عن شوائب الكسب

إنّ العالم مورجان[١] شرح ما عسى أن يكون غريزة بحتة شرحاً تجريبيًّا . جمع بيض دَجاج ، وهيّأه للإفراخ ، فسمع صياح الأفراخ قبل نَقْف[٢] البيض ؛ ووجد الفرخ وهو داخل القَيْض[٣] والغِرْقِئ[٤] يحاول أن يحز الخزانة الهوائيّة الداخليّة ، ليستنشق مافيها من الهواء ، ثمّ يشقُّ القشرتين بنفسه ليخرج إلى عالم الحياة . ووضع هذه الأفراخ في حظيرة ، وعزل بعضها عن بعض ، ورمى اليها حبوباً مخلوطة بالحصى ، فشاهدها جميعاً تتّبع نظاماً واحداً فتزدرد الحبّ وتنبذ الحصى ، ثمّ تدلُك منقارها بالأرض يَمْنة ويَسرة ، تفادياً ممّا يكون علق به ، ثمّ عاد نخلط هذا الحصى بالحبّ ، ورمى به إليها ، فرآها تفعل مافعلته أوّلا ، يَهيجها نظر الحَبّ ويبعث فيها الشوق إلى التقاطه ، ثمّ إنّ ذوقها الفطريّ يدفعها إلى زرده أو نبذه . كلُّ هذه الحركات المنتظمة المتجانسة خاضعة لسلطان الغريزة ولا دخل للكسب فيها .

ومن يطّلع على غرائز الحيوان لا يسعه إلاّ الدهشة من بديع خلقها ، وغريب أثرها . فنمل الحقول بحذقه الفطريّ ينقل بيضه

---

(١) (Lewis Henry Morgan) لويس هنرى مورجان عالم طبيعى مات سنة ١٨٨١ واشتهر بين الامريكيين بابحاثه فى علم الانسان (٢) ثقب (٣) القشرة العليا اليابسة على البيضة (٤) القشرة الملتزقة ببياض البيضة

من ركن إلى آخر تكون حرارته كافيـة لفقسه . والخُـفَّاش [١] يتَّقى ما يقع أمامه من الحواجز ، وهو طائر فى جنح الليل ، بما يشعر به من الصدى . فإنَّ جناحيه يهزَّان الهواء ، فتنتشر أمواجه ، وتنعكس على ما تلاقيه من الأشباح ، وتعود إليه فيشعر بها .

والعنكبوت تنزل من لعابها خيطا، تلصق طرفه بالسقف ، ثمّ تهبط عليـه أو تصعد ، وتنسج من خيوطه شِباكا ، تتَّخذها شَرَكا لصيد الذباب .

والحرباء تتلوَّن بلون ما يجاورها ، فيكون ذلك ردءًا يدفع عنها العدوان . والقُنفُـذ وقد تسلَّح جسمه بالحسك ، يضمّ بعضه إلى بعض إذا أحسّ مكروهاً . والحلَزون يرتدُّ إلى صدفه . والقطُّ ينتفخ فيحكى صولة الأسد فى ساعة الخطر . ولكلّ حيوان خاصَّة تناسب أعضاءه يجرّدها للدفاع عن حياته ، ويعرف بغريزته كيف يستعملها ويناضل بها ، حرصاً على نفسه وعلى حياة نوعه .

والفراشة عنـد ما تَدِبُّ فيها الحياة ينمو فيها الوازع للسعى وراء القوت، ولحفظ النسل ، فتعرف أين تضع بيضها ، وكيف تدَّخر القوت لصغارها ، ناسجةً فى ذلك على منوال سلفها ، مع أنَّها لم تختلط به اختلاطاً يؤذن بالمحاكاة .

أمَّا الإنسان فقد خلق ضعيفاً محتاجاً إلى المعونة فى كلّ مطالب الحياة . ولا يُدْرَى أهذه طبيعة فيه ؟ أم أثر فيه التحضُّر ، فحرمه منذ

---

(١) الوطواط

أجيال مديدة لذّة الاستفادة من تمرين غرائزه ، ففقد النخوة ، وورث الجمود ، وتعوّد الاستناد إلى غيره ، ولا يزال الضعف يتسرّب إليه من جيل إلى جيل ، كلّما ارتقت به المدنيّـة إلى معارج الكمال ، شأن الحضرىّ إذا قيس بالبدوىّ .

واعلم أنّ المعز والبقر يشبهان الغزال وبقر الوحش ، غير أنّ البيئة فرّقت بين طبيعة كلّ منها ، فضعف المعز ، وقوى الغزال ، إلى حدّ أنّك لو تركت المعز دون أن تُمِدَّه بالغـذاء ما سعى إلى القوت سعى الغزال ، بل تعييه الحيل فى الاحتفاظ بحياته فيموت جوعا .

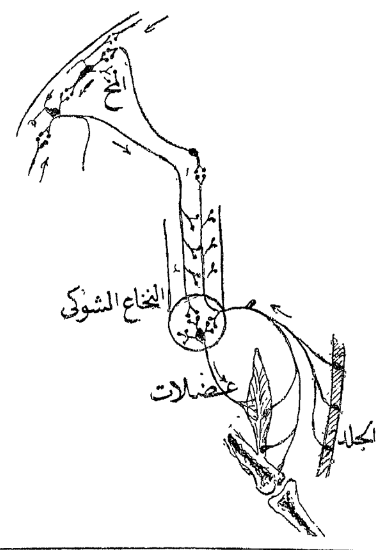
الافعال المنعكسة والغريزية والعقلية

الأفعال المنعكسة مصـدرها النخاع الشوكىّ ، ويَهِيجها المؤثّر الخارجىّ ، كما إذا حككت قدم نائم فإنّها تنسحب من مركز التأثير . وقـد حقّقت التجارب أنّ الضفدعة إذا جرّد مخُّها ، وضغط أحـد جوانبها ، فإنّ قدمها المؤخّرة التى فى جانب العضو الواقع عليـه تأثير الضغط تتحرّك لمعارضة المؤثّر . ومن هـذا النوع بكاء الطفل عقب الولادة عنـد ما يستنشق الهواء . ومنـه العطس والسعال والتنهّد والتثاؤب وَطَرْفَة العين .

أمّا الأفعال الغريزيّة فمجموع أفعال منعكسة ، على ما حقّقه

الحكيم سبنسر [1] . فإنّ غريزة الهرب من العَدُوّ مثلا تتضمّن عـدم اطمئنان النفس ، وخوفَ البطش ، ودهشةَ الفكر ، وغليانَ الدم ، واضطرابَ الأعصاب ، وسرعةَ التنفُّس .

أمّا الأفعال العقليّة فمصدرها المخُّ انظر هذا الشكل . فالحواسّ



(١) (Herbert Spencer) هربرت سبنسر توفى سـنة ١٩٠٣ م هو الحكيم الانجليزىّ الطائر الصيت المشهور بالحكمة والبراعة فى الكتابة . طرق كثيراً من أبواب الحياة واشتغل بالهندسة والسياسة والشئون الاجتماعية ، وتزوّد منها بالحقائق الجمّة التى ساقته طوعاً أو كرهاً إلى طرق أبواب الحكمة ، والتبحر فى العلوم العقلية ومباحث التعليم

تنفعل بالأشياء ، فترسل أثر انفعالها إلى المخ من طريق أعصاب الحس، وهنا يبتدئ الإدراك ثمّ الوجدان . وبعد ذلك يهبط الإذن إلى أعصاب الحركة فالعضلات لتنفيذ الحكم دون مانع يعترضه ، ما دام الجسم سليم الأعضاء ، قادراً على الحركة ، مجرّداً من قيود الاستعباد ، مسوقاً بدافع من الشوق ، وإن يكن دقيقاً كما هو فى الأفعال الغريزيّة ، فإنّ لها حالات نفسيّة كحالات الأفعال العقليّة . ومن هذا الشوق ما يشاهد عند القطّ والكلب من محبّة الوطن . ومنه إشفاق الدجاجة على أفراخها . فتخيّمها بجناحيها خوفاً عليها من تأثير الجوّ . ومنه لذّة الظفر على العدوّ والنكاية به ، ولو تكبّد الشخص فى سبيل إرهاقه ما لا طاقة له به من التعب . ومنه الميل إلى حفظ النوع عند الأمّ التى لا يغيب عنها ما تلاقيه من الآلام فى الإرضاع والتربية وغيرهما . ويشاهد مثل ذلك عند الدجاجة الحاضنة لبيضها ، فإنّها لا تنفكّ ذابلة الجسم مضطربة الأعصاب ، وإذا حيل بينها وبين بيضها تثور وتغضب . فهذا كلّه يدلّ على أنّ الوجدان عامل كبير لتحقيق الأعمال ، وأنّ الجسم فى سبيل تحقيق مطالب الغريزة لا يبالى أن يحارب النوازل ، ويكافح المصائب ليدرك أمانيّه .

الوراثة فى الغرائز والعادات

عرفت أنّ الغريزة قوّة فطريّة تصدر عنها أفعال قهريّة لغاية محدودة .

أمّا العادة فإنّها مرونة ، تحدث من تكرار ماسبق للعقل مزاولته من الأعمال ، بحال تجعل عرضها آليّا ، بدون الاستعانة بالعقل . فبين الغريزة والعادة شَبَهٌ فى الغاية ، وتباين فى الوَساطة .

وقد اتّفق العلماء على أنّ الغرائز تورث . واختلفوا فى وراثة العادات ، ففريق أجازها ، وفريق منعها ، وكلاهما يُدلى بالحجّة .

مجيزو الوراثة للعادات

فمجيزو الوراثة يستدلّون بأمر لا يعتدّ به إلاّ علماء الآثار الحيويّة ، وهو مايشاهدونه من التحسين التدريجىّ فى البقايا المتحجّرة من النبات والحيوان . قالوا لم يجئ هذا التحسين عرضا ، وإنّما أوجدته الممارسة والتمرين . فالحيوان إذا استعمل عضواً فى قضاء مصالحه فإنّه يقوى ، وتنتقل حاله بالوراثة من الأصل إلى الفرع ؛ واستدلّوا على ذلك بانتقال المرض بالوراثة من الأب إلى ابنه .

مانعو الوراثة للعادات

ومانعو الوراثة — وهم النشوئيّون — يعتقدون أنّ هذا التغيُّر إنّما أتى بتأثير المصادفات ، وهى ليس لها نظام محدود ، فقد تظهر فى الطول أو العرض أو اللون أو القوّة ، والفطرة تختار الأصلح ، والحياة جهاد وجلاد ، والجسم لا يحيا إلاّ إذا تغلّب على الطوارئ ،

حتّى إذا ضعف عن احتمالها وَهَنَ وَقُضِيَ عليه . بهذا الرأى فسّر داروِن[1] ومشايعوه مذهب النشوء .

ثمّ دحضوا أدلّة مجيزى الوراثة أوّلاً بأنّ الجَدْع والعمى والجهل كلّها عوارض ولا ينتقل منها شىء بالوراثة . وعادة بتر أذناب الأغنام شائعة بين الرعاة ، ولم يروا فى نِتاجها تشويهاً مثله . وعادة لِبْس الصينيّات الأحذية الحديديّة لتصغير أقدامهنّ فشت منذ أجيال ، وليس لعامل الوراثة فيها من تأثير . وعادة الختان يشترك فيها الوالدان ولا يظهر لها فى الأولاد أثر . أمّا انتقال الأمراض من الآباء إلى الأبناء فسببه العدوى لا الوراثة .

ثانياً حقّق البحث أنّ الخلايا الفارزة لمادّة النسل تخالف خلايا الجسم ، وهى مع ذلك منفصلة عنها إلاّ فيما يتعلّق بالغذاء . فالعمل الذى يؤثّر وقعه فى الجسم ، ويحدث كمالاً أو نقصا ، لا شأن له مع المادّة المفروزة لحفظ النوع . والفطرة وحدها تسلك بالنوع سبيل الصلاح ، وسُنن تنازع البقاء تقضى بالحياة أو بالفناء إذا وجدت أو عدمت الأسباب .

وقديماً ظنّ بعض الطبيعيّين أنّ العضو يحدث الوظيفة ، فاليد تكتب ، واللسان ينطق ، والعين تبصر . ورأى غيرهم عكس هذه القضيّة إذا كان فى العضو استعداد مخصوص للعمل ؛ فاليد إذا

---

(١) (Darwin) داروِن توفى سنة ١٨٨٢ تضلع فى علمى النبات والحيوان ، وهو عالم انجليزى برز فى المباحث الطبيعية النشوئية .

تعطّلت عن العمل تشنّجت ، ولا يكون علاجها إلاّ بالحركة ؛ واللسان إذا صَمَت خرِس ، ولا يبرئه إلاّ التمرين ؛ والمرأة المرضع يضخُم ثدياها ، ومن تهملهما لا يكادا يظهران عندها ، هذان رأيان لا يخلو كلاهما من تطرّف . وصفوة القول أنّ العضو ووظيفته يؤثّر أحدهما في الآخر ، إذ العضو آلة العمل ، والعمل يرهف من حدّه ، ويزيد تركيبَه متانةً بنسبة ما يعانيه من حسن الأداء والمثابرة .

وقد تصدّى غلادستون[1] لمذهب النشوء والارتقاء فنقده حيث قال : إنّي أحاول أن أرى الرقيّ الفكريّ الذى حازه الخلف ، وقصّر عنه السلف ، تصديقاً لعقيدة النشوء ، فلا أكاد أجد له أثراً . لا يدور بخلدى أنّنا أقوى أجساماً من أسلافنا أبناء القرون الوسطى ، بل أعتقد أنّنا على الضدّ من ذلك ؛ فإذا وازنّا نفوسنا بأسلافنا أبناء القرن السادس عشر مثلاً ، نجد أنهم فاقونا بسطةً في الجسم والعقل ، ويرشد البحث بالقياس إلى أنّ نابتة المستقبل لا تبشّر بهبات فطريّة أعظم ممّا أحرزنا . غاية ما أفهم أنّ الرقيّ الذى وصلنا إليه إنّما هو ثمرة الجدّ والاختراع ، وترقية شئون الاجتماع ، واحتكاك العقول التى قدَحْنا زنادها ففجّرت منابع الثروة ، وأرشدت إلى مناهج الصنعة ، وتبادل المنفعة . هذه كلّها أمور لا أكاد أتصوّر أنّ للوراثة الشخصيّة فيها أثراً . أمامنا

---

(١) (Gladstone) وليم غلادستون توفى سنة ١٨٩٨ م كان خطيباً مفوهاً يرتجل الموضوعات السياسية الهامة ويلقيها أينما سار . تقلب فى مناصب انجلترا السامية ، وكان من المحافظين بحسب شعوره ، ومن الاحرار بحسب افكاره

التاريخ حافلاً بأخبار الأمم التى أخضعت العالم وملكت أقطابه ، ثم دالت دُوَلها ، وعفت معالمها. فإذا تسامحنا وقلنا : إنّ الحوادث وحدها هى التى هوت ببعض الأمم إلى الحضيض ، فلا يسوغ لنا أن نتحكّم ونقول : إنّ القوى التى أخذت بيد الامم الأخرى إلى معارج الرقىّ إنّما هى وراثيّة .كلُّ ماصادف طعناً فى النشوء فى الأمور العقليّة نجده موجّهاً إلى الأمور الدينيّة والأدبيّة . فالثقة وسلطان الدين فينا أضعف ممّا كانا على عهد الإصلاح اللوثيرى . زد على ذلك أنّ الحرّيّة قد خرج بمدلولها طلاّبها عن الحدود المرعيّة حتّى صارت شروداً وفوضى »

إذا وقفت على هذين المذهبين فى صحّة وراثة العادات ، عرضنا عليك مسألة لا مُشاحّة فى أنهـا تحتاج إلى رويّة ، وهى ما تحقّقت وراثته من الصفات الكاملة فى الإنسان والخيل وكلاب الصيد . فالإنسان يرث بالمحتد نفساً كريمة نبيلة ؛ وأصائلُ الجياد تورّث ذراريها طيب الخلق وسرعة الجرى ؛ وكلابُ الصيد تحتفظ ذراريها بمميّزات فى الصيد والقنص .

فهذه أمور يستدلُّ بها الفريق الأوّل على صحّة وراثة العادات ؛ ويؤوّلها الفريق الثانى بأنّ الموروث هنا ليس صفة كسبيّـة ؛ بل الموروث حسن تكييف الأعضاء ، واستمدادها لأداء وظائفها على الوجه المحمود ، إذ ليس لها غُنْيَة عن التمرين والممارسة . على أنّ هذه الممارسة إنّما هى تمرين الغرائز التى تحتويها العادات .

وبجمل القول أنّ العادة وراثيّة باعتبار عناصرها المكوّنة لها ،

وكسبيّة باعتبار ضمّ هذه العناصر بعضها إلى بعض ؛ كالسلعة المصنوعة من جملة موادّ أوّليّة ، ميّزتها الصنعة ، وألّفت بين أجزائها تأليفاً مناسباً لإرادة الصانع ومبلغ علمه وذوقه . فالبانى يجمع إلى بنائه صخراً وآجُرًّا وملاطا ، ثمّ ينسّقه قصراً فخماً يبدى فيه ما أوتيه من حسن الذوق ، وليس بينه وبين الكوخ الحقير من فرق إلّا فى أوجه النسب ، وإحكام الوضع ، واستجماع ضروب التأثير .

الفطرة ونزعاتها

تضاربت آراء الباحثين فى نزَعات الفطرة فمنهم من ذهب إلى أنّها خير ، ومنهم من ذهب إلى أنّها شرّ ، ومنهم من رأى استعدادها للأمرين ، ومنهم من رأى خلوّها منهما .

من ذهب إلى أن الفطرة خير

(١) ذهب سقراط(١) إلى أنّها خير ، ونفس الطفل فى نظره وعاء لأصول الكمال . فعوّل فى طريقة تعليمه على السؤال والمناقشة فى أىّ غرض يريد ؛ لا فرق بين أن يكون الطالب طفلاً أو صبيّا ، شابًّا أو كهلا ، وله طرق خلّابة يستميل بها المسئول إلى إجابة أسئلته بحال

(١) (Socrates) سقراط حكيم إغريقى توفى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد تربى وخدم جنديا بالجيش الأثينى وامتاز بالاقدام ، ثم اشتغل بالسياسة فكان فيها قطباً ، ثم عمد إلى إصلاح شئون الأمة بطريقة أبدعها فجذب اليه النفوس ، فحقد عليه العلماء المعاصرون ورموه بالزندقة والحطّ من قدر الآلهة وإفساد عقول النشء . من أجل هذا حكم عليه بالاعدام .

يسبر بها غَوْر مداركه ، ويساعده على إدراك الحقيقة . وكان مع جلال قدره وعلوّ كعبه وتوقُّد قريحته يتدلّى إلى أُفق التلميذ ، ويختار له من الأمور ما يوافق هواه وفى وسعه الإجابة عنه ؛ ثمّ يناقشه ويسوق له الحقائق باحثاً ومنقّباً ومستشكلا . ولا يزال ينبّهه بالتدريج على الخطأ ، ويفتح له أبواب الصواب بتأليف المقدّمات واستنباط الضوابط حتّى يصل به إلى شاطئ الحقيقة سالما .

بهذه الطريقة البديعة انقادت لسقراط العقول الشاردة ، والميول الخامدة ، والحقائق الفذّة . وتبعه فيها فريق من أساطين المؤدّبين لما اشتملت عليه من دلائل الرصانة والحكمة . وإنّى أسوق إليك مثالاً بسطه آدمس Adams فى كتابه فى التعليم : —

المعلم يا هذا أنَفَسُك حارٌّ أم بارد ؟

التلميذ حارّ .

م رأيت أناساً على المائدة يَنفُخون فى المرق الحارّ وهم يأكلون ، فليت شعرى ما ذا أرادوا بهذا ؟

ت يريدون تبريد المرق .

م إذن ما الذى يبرّد المرق ؟

ت النفَس .

م كيف ذلك ؟ وقد قرّرت أنّ النفَس حارّ . والحارُّ لا يبرّد الأشياء . فالنفَس حينئذ بارد .

ت هذا حقّ . وأنا أغيّر رأيى فى أنّ النفَس حارّ .

م هل رأيت وَحْوَحَةَ الحوذيّين ؟ وهى أنّهم ينفخون بأنفاسهم في أيديهم . ولعلّ أغلب التلاميذ يفعلون كذلك في اليوم القرّ . فلأىّ غرض هذا ؟

ت غرضهم تدفئة أيديهم .

م فما الذى يسخّن أيديهم حينئذ ؟

ت نفَسهم .

م إذن نفَسهم حارّ . وقد أفضت نتيجة البحث معك إلى أنّ النفَس ليس حارًّا ، وقد علمت منك الآن أنه حارّ فما ظنّك به ؟

ت هو حارٌّ أحيانًا وبارد أحيانًا .

م متى يكون حارًّا ؛ ومتى يكون باردًا ؟

ت يكون حارًّا في الصيف . وباردًا في الشتاء .

م متى ترى الناس ينفخون بأنفاسهم في أيديهم ليدفئوها ؟ أفي الصيف هذا ؟

ت لا . بل في الشتاء .

م لكنّك ذكرت الآن أنّ النفَس يكون باردًا في الشتاء .

ت ارتبك ولم يدر بما ذا يجيب .

م أىّ الشيئين أكثر حرارة ؟ المرق أم يد التلميذ في الشتاء .

ت المرق أكثر حرارة .

م أيّهما أشدّ سخونة ؟ أنفَسه أم يده ؟

ت نفَسه .

م أيهما أشدُّ سخونة ؟ أنَفَسه أم المرق ؟

ت المرق .

م إذا فَطَنت إلى هذا علمت أنَّ النَّفَس أكثرُ سخونة إذا قيس بيد التلميذ شتاء ، وأقلُّ سخونة إذا قيس بالمرق .

ت نعم . وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح .

م لا يخفى أنّ النفَس تختلف حاله باختلاف ما يقاس به ، فيكون أكثر حرارة إذا قيس بشيء ، ويكون أقلّ حرارة إذا قيس بشيء آخر . أليس كذلك ؟

ت هذا حقٌّ لا شبهة فيه .

م فما ذا هو إذا قيس بالمرق ؟ أهو حارٌّ أم بارد ؟

ت بارد .

م وما ذا هو إذا قيس بيد التلميذ عند اشتداد البرد ؟

ت حارٌّ

م فالنفَس حارٌّ إذا قيس بيد التلميذ ، وبارد إذا قيس بالمرق ، وحقيقته واحدة لم تتغيَّر في ذاتها .

ت لقد استفدت من بحثك هذا ، ولقد وصلت يقيناً إلى معرفة الحقّ وزال عنّي الشكّ ، وأشكر لك هذا الصنيع .

من ذهب الى أن الفطرة شر

(٢) وذهب فلوطين[١] إلى أنّ الفطرة شرّ ، والنفس في نظره

---

(١) فلوطين Plotinus توفى سنة ٢٦٢ قبل الميلاد وهو مصرى ومن أسرة رومانية . واعتمد فى نظرياته على فلسفة افلاطون Plato

جوهر مجرّد مستقلّ ، هبطت من العالم العقليّ إلى عالم المادّة لتبتلي . وبينما هي في أثناء الحياة المادّيّة ، يمكن اتّصالها بالعالم العقليّ بتصفيتها من أدران اللذّات ، وأخذ الجسم بأشدّ أنواع الحرمان من ألوان الطعام والشراب ، وحصر الفكر في أمر هذه القربى ، والتخلّص من كلّ ماله علاقة بالعالم المادّيّ ، والتجرّد من زخرف الدنيا ومن الميول النفسيّة . ومن يَسُسْ نفسه بهذه الرياضة يُرهقها بالآلام والمشاقّ ، ويرهف حدّها بدوام الصوم ، وإهمال مطالب الجسم من النظافة واللبس والغذاء ، وإماتة الحواسّ ، والعزلة عن الناس . فإذا تمّ له ذلك فإنّ النفس تتطلّع إلى العالم العلويّ ، وتتوق إلى ما حواه من جمال وصفاء ، وتتّصل بمبدعها . فاتّصال النفس الطاهرة الأصل بالعالم المادّيّ حوّل فطرتها وصبغها بصبغة الشرّ . وقد جرى على هذا المبدأ أبو الطيّب المتنبيّ[1] إذ يقول : —

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

وتبعه أبو العلاء[2] المعرّيّ فاعتقد أنّ الإنسان شرّير بطبعه والفساد غريزة فيه . وقد ثبّته على هذا المبدأ ما عاناه من الآلام من

---

(١) أبو الطيب المتنبي توفى سنة ٣٥٤ هـ أديب التحق بسيف الدولة بالشام ومدحه . ثم دخل مصر ومدح كافورا الاخشيديّ ثم هجاه . ثم دخل بلاد الفرس ومدح عضد الدولة بن بويه .

(٢) أبو العلاء المعرّيّ توفى سنة ٤٤٩هـ عمى بعد ولادته بأربع سنين وهو من أساطين الأدب . لبث زهاء ٤٥ سنة بعيداً عن أكل اللحم ، متزهداً عن تعذيب الحيوان بالذبح واعتقد أن الزواج جناية

خلطائه فاعتزلهم مفتخراً بأنه رهين المحبسين : العمى والعزلة . ومن قوله فى هذا المعنى : « ومن جرّب الأقوام أوسعهم ثلبا »

وفضيلة النوم الخروج بأهله   عن عالم هو بالأذى مجبول

وقد غلا فى هذه العقيدة حزبان كبيران اشتهرا فى القرن الثامن عشر، وهما اليسوعيون (١) واليَنسيون (٢) ، فقد حملا لواء التعليم ، وألفا الـكتب ، وبنيا المعاهد العلميّة ، وسنّا الأنظمة المؤسّسة على عقيدة أنّ الإنسان مفطور على الشرّ ، ولا يحوّله عن هـذه الفطرة السيّئة إلا صارم العقاب ولذيذ الجزاء ، وتوسّعا فيهما بدرجة خرجت عن الحدّ المقبول والمعقول .

وفى آخر هذا القرن ظهرت مؤلّفات روسو (٣) ، وتولّى الردّ فيها على من ظلم الفطرة الشريفـة بنسبة الشرّ إليها ؛ ووجّه سهام مطاعنه الصائبة إلى هذين الحزبـين فيما وضعاه من الأنظمة ، وأقرّاه من المناهج ، وسلـكاه من السبل التى حرمت النشء مسا كنة الطبيعة واستجلاء محاسنها ، وقراءة أسطر الجمال فى صفحاتها . وقف موقفـه هـذا بـين الفرنسيّين ، حاملاً بـين جنبيه نفساً أبيّةً ولساناً ذَلْقاً . واكتسب فطانته من وحى الفطرة لا من الممارسة ؛ وكانت نفسـه

---

(١) (Jasuits) (٢) (Jansenists) (٣) (Rousseau)

روسو كاتب فرنسى روائى توفى سنة ١٧٧٨ م تعلم بالممارسة ، ولم يطق صبراً على مبادئ اليسوعيين وانتقدها ، واختط نظاماً جديداً أودعه كتابه أميل فاضطهدوه وتوعدوه فهرب منهم . وآراؤه فى التعليم نظرية فكرية لا عملية تجريبية .

توّاقة إلى الرجوع إلى محاكاة الطبيعة والبعد عن زخارف الصناعة . وقد وصلت دعوته إلى أعماق قلوب العقلاء فالتفّوا حوله ، وألّف منهم عصبة ناوأت هذين الحزبين ، وهزئت بعليّة القوم منهما حتّى قام من أجلها نذير الشرّ ، وتأجّجت بينهما نار العداوة ، وكانت من مثيرات الثورة الكبرى التى قلبت فرنسا ظهراً لبطن . فانتهز هذه الفرصة ، وشرع يغرس فى باحة هذه الأنقاض دَوْح الأفكار الصحيحة .

درس روسّو الطباع الإنسانيّة بالعيان ، فكان يحتجب عن النشء بحيث يراهم ولا يرونه ، ويتفقّد حديثهم فيما بينهم ، وحركاتهم التى لا رياء فيها . وكتابه « إميل » حسن الأسلوب جميل الصوغ بديع التأثير ، تمشّى مطالبه فى العواطف تمشّيَ الروح فى الجسم .

من ذهب الى أنّ الفطرة استعداد لهما

(٣) جاء القرآن الشريف بعقيدة أنّ الفطرة استعداد للخير وللشرّ معاً . قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ » [(١)] . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » . « إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

وقد أوزع الله النفس أن تتعشّق المحسّات التى هى أصول للمعانى الذهنيّة . فإمّا أن تسمو فتتعلّق بالفضائل وتنفر من الرذائل ،

(١) طريقى الخير والشر

فتكون مندرجة تحت هذا الخطاب « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » . وإمّا أن تنكص على عقبها ، وتنزع إلى العالم المادّى ، وتتلوّث برذائله وأوضاره فتبوء بالشرّ « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » .

والحركات الإراديّة مناط الثواب والعقاب ، وبها تقاس درجة الميول الكسبيّة .

من ذهب الى أن الفطرة خِلوٌ من كلّ ذلك

(٤) ورأى كانت [١] أنّ الطفل منذ ولادته إلى سنّ محدودة ليس له حياة أدبيّة ؛ فلا تنسب فطرته إلى الخير ولا إلى الشرّ لأنّه لا يعقل مايفعل . وعشّاق هذا الرأى لا ينكرون الوَساطة بين الخير والشرّ .

نقد المذهب الثانى

إلى هنا مرّت بك آراء الحكماء فى نزعات الفطرة وهى أربعة . ولا أريد أن أتصدّى لنقدها ، وتمييز غثّها من سمينها ، وإنّما أكل إلى اللبيب الفطن إنعام النظر فى مضامينها ، وأعرض عليه شبهات تحوم حول عقيدة فطرة الشرّ التى مقتها كبار المربّين . فعشّاقها يعتقدون أنّ الأرض إذا أُهملت من الزراعة أنبتت الحَسك [٢] بطبيعتها . وهذا مردود لأنّ إهمالها من الزراعة يجعل الفطرة الطاهرة خاضعة لما تلقيه الرياح اللواقح من البزور . وأنّ الحسك النابت فى البوْر [٣]

(١) كانت Kant حكيم ألمانى توفى سنة ١٨٠٤ م اشتغل بالحكمة والرياضيات والطبيعيات ، وعاش طويلا ممتعاً بصحة نادرة المثال

(٢) نبات فى ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب

(٣) الارض قبل أن تصلح للزرع

ليس ناتجا من فطرتها الخبيثة بل من إهمال تعهّدها . وليس من الحكمة أن تُطلق الدابّة تعيث فى الأرض فسادا ثمّ تُنحى باللوم على طبيعتها .

كذلك يعتقدون أن الطفل فيه قسوة وجبروت ، يُمسك الطائر بلا رحمة ويسومه العذاب ، ويتناول الشىء فيفرّق أوصاله . وليس اعتقادهم وجيها ، لأنّ خلوّ فكر الطفل من الحقائق دفعه إلى مزاولة التجارب ، فيحلّ العناصر ويعقدها ، ليستخرج من أعماله حقائق يلتذّ بوجودها .

كذلك يعتقدون أنّ الطفل يسرق . ولو علموا أنّه ساذج جاهل لمعنى الملك لجرّدوه من نسبة الشرّ إليه . أمّا كونه يَعُدّ نفسه مالكة لكلّ ما يجده فسلّم ، ولكنّ هذا راجع إلى حبّه الغريزىّ للحياة ، وإلى جهله معنى الملك فى مصطلح المجتمع الإنسانىّ .

كذلك ينسبون إليه الصلف والكبرياء ، والحقيقة أنّ الآباء يُطْرون أبناءهم ، ويَغْلون فى مديحهم فيخدعونهم ويغرّونهم ، ويتساهلون فى عرض الأمور عليهم بعيدين عن الحيطة والتدبّر ، فيثبت فى ذهن الطفل هذا الأثر الردىء ، ومرجع ذلك حمقهم ، وطبيعة الطفل من ذلك بريئة .

كذلك يتّهمونه بالشره . ولم يوصم بهذه الخَصْلة إلّا بانغماسه فى النعيم . ولو أنّهم أبعدوه عن مظاهر الترف ، وصرفوه عن العادات المزرية ، وحالوا بينه وبين البيئة السيّئة، لوجدوا منه شخصا كريم الطباع .

كذلك ينسبون إليه الكذب ، وما صدقوا فيما وَهَموا ، ولو فَطَنوا

لعلموا أنّ الكذب أثر لازم للخشونة التى يلقاها الناشئ من قساة المعلّمين ، فيختلق الكذب ليتلمّس النجاة من الحيف ، ويحاول الهرب من شرّ مستطير ، ويَسْدُل على الحقيقة غشاءً كثيفا .

يحتدم المعلّم غيظا ويدعو الطفل أمامه ، ويشدّد النكير عليه سائلاً عمّن كسر الإناء مثلا . فينسى الطفل الحقّ عند الإجابة ، تخلُّصاً من شرّ العقوبة وحبًّا فى السلامة .

كذلك يكذب أحيانًا فى ادّعاء الإفلاس وهو موسر ، لأنّه يخاف طمع الطامعين فى ماله .

ونراه أحيانًا يكذب ، ونتحرّى السبب فنجده مرضًا قلَب كيانه وجعل الباطل أمامه حقًّا . وقد رُوِىَ أنّ طفلاً كان مضطجعاً فى فراشه ، ولمّا غابت عنه خادمُه رأى كأنّ الشمعة المضاءة فى الحجرة قد استطالت حتّى زاد طولها على متر ، ثمّ تقدّمت إليه مرّة وابتعدت عنه أخرى . قصّ هذا على خادمه فاعتقدت أنّه كاذب ، ثمّ دعت إليه أُمّه فقصّ عليها الرواية عينها واهماً أنّها حقٌّ لا ريب فيه . ولمّا استجلت الحقيقة تبيّن لها أنّه مصاب باضطراب عصبىّ مشفوع بحمّى ، ومن كان هذا شأنه فإنّه يَهْذِى .

وربّما تعلّقت نفسه بالكذب لإهمال المشرفين عليه اختيار ما يقرؤه ، فتسوّل له نفسه قراءة الأساطير الخرافيّة ، والروايات الغراميّة ، فتجنى عليه .

وغالبًا يركب معه المعلّم مركبًا خشنا ، فيسوق إليه المعانى الدقيقة

مجرّدة من ثوبها الحسّىّ فيتشتتُ ذهنه ويضلُّ عن الحقّ ، فيلتجىء إلى الـكذب فيلفّق منه مايشاء ، وإلى الوشايات فيفتريها على من يشاء ، شأن من لا يميّز الغثّ من السمين ، والخطأ من الصواب ؛ وشأن من لايفرّق بين الإساءة والإحسان ، ومن لايوازن بين الإحسان والإحسان .

إذا زالت كلُّ هذه العوائق وصلح مزاج الطفل ، سرى الأثر الواقع على الحواسّ إلى الأعضاء المنْفذة ، وفعل الفعل الذى يرشد إليه وجدانه ، فتجده يلتزم الصراحة والصدق حتّى يعتادهما .

فطرة الرجل والمرأة

ذهب سقراط وأفلاطون [1] إلى أنّه ليس بين الرجل والمرأة تفاوت كبير فى القوى العقليّة . ولذلك لم يفرّقا بينهما فى العلوم التى يجب عليهما دراستها . وعارضهما أرسطو [2] بأنّ الطبيعة البشريّة

(١) أفلاطون Plato توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد وهو تلميذ سقراط ، اغريقىُّ الجنس جال فى أنحاء المعمورة ثم عاد الى أثينا وفيها أسس مدرسته التى سماها Academy وصارت محطا لدراسة الفلسفة

(٢) أرسطو Aristotle توفى سنة ٣٢٢ ق م وهو تلميذ أفلاطون . ومع أنه كان يوقر أستاذه قد عارض أفكاره . ولما مات أستاذه وكانت سنّ أرسطو ١٤ سنة تاقت نفسه إلى رآسة المدرسة ، لـكنه حزمها فغادر أثينا ؛ واستدعاه فيليب ملك مقدونيا وسلمه ابنه الاسكندر ليعلمه . وبفضل هذه التربية نهض الاسكندر بأعباء الملك بعد أبيه بهمة نادرة المثال . ثم رجع أرسطو إلى أثينا وأسس فيها مدرسته وعكف على التدريس فيها . وبموت الاسكندر أفل نجمه وتغلب عليه الحاقدون فهرب منهم الى حيث توفى

فرّقت بين طبيعتهما فميّزت الرجل بالقوّة ، وخصّت المرأة بأنواع المتاعب تقاسيها زمن الحيض والحمل والوضع والرضاع . وهذا التخالف دعاه لأن يرسم لكلّ من الرجل والمرأة نظاماً يلائم المزاج .

ولقد وفّق المربّون بين رأييهما ، فرأوا أن لا تفاوت بين الولد والبنت فى غضون السنوات السبع الأولى ، فلا غضاضة إذا اشتركا معاً فى نظام واحد . ثمّ تنفرج زاوية الخلف بينهما فى زمن المراهقة، إذ البنت تدخل سريعاً فى طور النماء ، وهذا يستنزف نشاطها ويصيّرها عرضة للأمراض العصبيّة ، وقد دلّ الإحصاء على فشوّ الأمراض بين البنات وهنّ فى طور التعلّم . قرّروا هذا مستندين إلى أنّ وزن دماغ الرجل أثقل بنحو ١٠ ٪ منه فى المرأة ، وثقل المخّ من دواعى الفطنة والذكاء ، ويناسبهنّ حينئذ أن يكون بين دروسهنّ شىء من فنون الجمال ، ليبعث فيهنّ الشوق إلى التعلّم يدفعهنّ إلى مقاومة أسباب الفتور .

نعم يتبادر المطّلع على هذه النسبة أنّ الرجل أقدر من المرأة على الحركات العقليّة ، غير أنّه إذا نظر من جهة أخرى إلى أن نسبة ثقل المخّ إلى ثقل الجسم فى المرأة أوفرُ منها فى الرجل ، يتبيّن له أنّ لكلّ منهما مواهب يكونان بها قويّين أو ضعيفين إذا قاما بالواجب أو قصّرا فيه . أمّا ما يشاهد من رجحان القوى البدنيّة فى الرجل فلِما يستلزمه جهاده وجلاده للحصول على القوت ؛ وأمّا هى فقد قصرتها العادات

القوميَّة على تدبير البيوت ، فلم تتمتّع بما يتمتّع به الرجل من مساكنة الطبيعة ، وتمرين الأعضاء تمريناً يدعو إلى نموّها وازدياد قوّتها .

الحيوان والانسان

والذى حارت البريّة فيه   حيوان مستحدث من جماد

تحيّر عقولنا إذا نظرنا إلى خَلْقه وحركاته وانقياده لسلطان الغرائز ، وقد يشارك الإنسان الحيوانَ فى بعض هذه الغرائز فيستأنس بذلك ، ولا يعجب من فواعلها كما يعجب من مثل غريزة الهداية إلى الوطن عند بعض الحيوان وعند أكثر الطير والحشرات . أخبرنا التاريخ أنّ حمام الزاجل حمل البطاق وطار بها من مكان إلى آخر ، حتّى استخدم فى الحصار ، لحمل الأخبار ، وقد أقامت له مصر فى الأعصر الغابرة أبراجا ، وعيّنت لها حُرّاساً يراقبون وصول الحمام ليلا أو نهارا .

والفواخت وهى من ذوات الأطواق تقطن الأقاليم الشماليّة ، وإذا آلمها البرد هجرت موطنها ، وطارت مسترشدة بقائد تختاره من بينها إلى حيث يطيب لها المقام ، ثمّ تقفل راجعة إلى وطنها فتهتدى إليه كأنّ بينها وبينه جاذبيّة ، وربّما لا يتأتّى لها وهى طائرة فى جوّ البحار أن ترى معالم تتعرّف بها طريق الوصول .

ربّيت قطّا بمنزلى ، ثمّ طاحت بأخلاقه الطوائح ، فوضعته فى قفص موصد ، وأسدلت عليه غطاء ، وأطلقته على مسافة بعيدة . وما

كاد يمضى أسبوع حتّى عاد إلى منزلى وهو يموء بصوت المعتذر المستاء

نتلمّس السرّ فى الهداية إلى الوطن عند هذه الحيوانات فلا نفهمه، لأنّنا لا نشاركها في هـذه الغريزة . ويتبادر إلينا أنّ الحيوان يعتمد على وجدانه ، أو أنّ له قوّة خفيّة تدرك التغيّرات التى يلقاها فى طريقه فى أثناء مهاجرته فيضبطها ، ثمّ يستذكرها عند مسيس الحاجة

وإذا أنعمنا النظر إلى الزنبار نراه قبل أن يتحوّل عن عشّه يحوم حوله على دوائر صـغيرة فكبيرة ، كأنّه يرسم فى خياله معالم موطنه لتساعده على الاهتداء إليه

أمّا الإنسان فما أضعف حظّه من القوى البدنيّة ، تلقاء مايموج بصدره من آلاف المطالب فيما يتعلّق بغذائه وملبسه ومسكنه ! حتّى استفزّته القـدرة الالهيّة إلى مشاركة بنى نوعه فى ميادين المحاكاة والمنافسة ، ودائمـا يكدّ لسدّ نقصه ، ورأب صـدعه . ومع أنّ حبّه لهذه المشاركة فطرىّ ، لا ينال غرضه على ماينبغي إلّا بالتعليم الصحيح الذى يلائم ما ركز فيه من الاستعداد للتعلّم ، والاستفادة من التجارب الذاتيّة والنوعيّة ، والتكيّف عند عروض الحوادث ، ولذلك تفاوتت درجات الناس فى الجدارة ، على أنّ اختلاف العناية بهـذا الاستعداد وبذرائع التعليم ، أوجد بين أفراده تفاوتاً كبيراً ، كالذى نراه بين الحيوان الوحشىّ والداجن الذى من نوعه ، فالوحشىّ بعـد ميلاده يعتمد على محض سعيه ، والداجن يستند إلى غـيره ، فيفقد قوّة السعى الغريزيّة .

ولا يخفى أنّ الطفل إذا زاول الأمور بنفسه ، في حالتي يسره وبؤسه ، وذاق من الحوادث مرّها وحلوّها ، وتقلّب على نار الكوارث صغيرها وكبيرها ، يكون على شاكلة أهل البادية رجلا شهما .

أمّا الطفل الذي قعد به حظّه ، وساءته تصرّفات المشرفين عليه ، فاحتفظوا به كالمتاع خشية أن يؤذيه مرّ النسيم إذا هبّ ، فتراه مغبون الحقّ ، ضعيف الصحّة ، سقيم الرأي ، كالذي نراه بين أبناء الطبقة المترفة .

يخرج الطفل إلى عالم الوجود مجرّداً عن معرفة اللغة التي يعبّر بها عن أغراضه ، جاهلا سنن الكون ، لا يملك إلّا الاستعداد الفطريّ الذي يرهف التعليم حدّه ، ويزيده مضاء وشدّة . فما بالنا حينئذ نهمل تقويمه وهو يزداد بالاختبار نبلا ، ونتخم فكره بالمعاني الصعبة ، ونلقّنه قضايا العلوم الدقيقة لنخرجه قبل أوانه رجلا كبيرا ، لماذا لا نسلّمه إلى الحوادث فيتعلّم من خيرها وشرّها ، ماينبّه التفاته ، ويقوّي مداركه ، ويفيده في معترك الحياة !

إنّ للتعليم نظاماً إذا روعى حوّل الطفل الضعيف إنسانا كبير النفس قويّ الإرادة . وها هو ذا قد احتواه جوف الأرض باحثا ومنقّباً عن خيراتها الدفينة ، ورفرف في الهواء حتّى صارع النسور على قمم الجبال ، وخاض البحار بالجاريات ، واتّخذ من البخار والكهرباء خادماً لمصالحه في حلّه وارتحاله .

المبحث الثانى

المخ وخلاياه وعلاقتها بالتعليم

المخّ مركز القوى الفكريَّة ، ومادَّته بيضاء من الداخل سمراء من الخارج ، ومتوسّط زنته بعد الميلاد عند الجنس الأبيض ٧ ر ١١ من الأوقيّات[1] للذكور ، و١٠ أوقيَّات عند الإناث ، ويزداد ثقل المخّ تدريجاً بحسب تقدُّم السنّ . فإذا بلغ الطفل السنة الثالثة وصلت زنة المخّ ٣/٤ ثقله عند الرجل . وإذا بلغ السابعة وصلت زنة المخّ إلى ٩/١٠ ثقله عند الرجل . وأكبر متوسّط لزنة المخّ عند الرجل ٥٠ أوقيَّة متى بلغ الخامسة والثلاثين من العمر ، وعند المرأة ٤٥ أوقيَّة متى بلغت الثلاثين من العمر .

ويعلم من هذا أنَّ متوسّط زنة مخّ الرجل أثقل بنحو ١٠ ٪ منه عند المرأة . غير أنّ نسبة المخّ إلى ثقل جسمها ، أوفرُ من نسبته إلى ثقل جسمه .

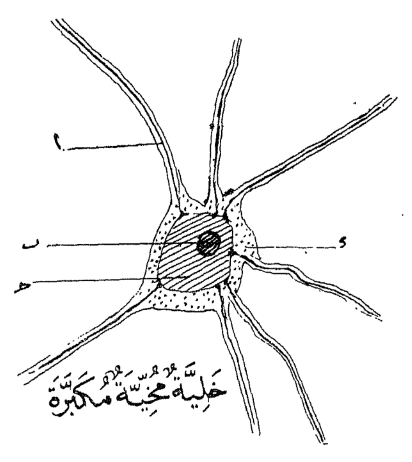
وإذا بلغ من العمر أربعين سنة أخذ ثقل المخّ ينقص بمتوسّط أوقيَّة واحدة فى كلّ عشر سنوات . وقد شوهد غالبا أنَّ مخّ النوابغ ذوى القرائح الوقَّادة والعقول الراجحة ، يصل ثقله إلى ٦٤ أوقيَّة ، وأنّ مخّ الحمقى والبُله يصل ثقله إلى ١٦ أوقيَّة .

---

(١) والاوقية الانجليزية ١/١٦ من الرطل المصرى

والمخّ يحتوى على مئات الملايين من الخلايا الدقيقة ، ولا يكمل خلقها قبل بلوغ السنة الثالثة . وعند ذلك يدخل الطفل فى طور التعلّم النظامىّ

وقد فحصت الخلايا المخّيّة فحصاً دقيقاً ، فعلم أنّها تختلف اختلافا بيّناً فى أطوار الحياة . فعند الميلاد تكون كلّ خليّة منعزلة عن جارتها . وعند الطفولة تأخذ أشكالها فى الاستدارة مع نتوءات صغيرة . وعند الرجوليّة تعظم وتمتدّ الرُبُط بينها ويزيدها التمرين نموًّا واتّصالا كما فى هذا الشكل



ا فروع الخليّة ب قلب الخليّة حـ ما يحيط بالخليّة

ولكلّ خاليَّة قوَّة خاصّة ، إذا فقدتها بأيّ سبب ظهر الضعف في وظيفة هذه القوَّة ، ولا يثمر في صاحبها تهذيب البتة .

فالتعليم إذن عمل يقصد به تهذيب هذه الخلايا المخّيّة ، وتوثيق عراها ، وإحكام الصلة بينها . فيرى الطفل الوردة مثلا . وينطق باسمها ، ويسمع وصفها ، ويشمُّ عَرفها ، ويذوقها ، ويرسم شكلها ، ويكتب بقلمه موضوعات في معناها . وبحصول هذه الحركات ينضمُّ شمل الخلايا المتنوّعة التي اختصَّ كلّ منها بإدراك معنى جزئيّ من هذه الأمور الكلّيّة ، وترتبط هذه الخلايا معاً بخيوط دقيقة هي الأعصاب الشعريّة

إذا جرى التعليم على هذا النحو فإنّ المعاني تدخل الذهن جميعاً وفرادى ، من أبواب النفس المتفرّقة ، فتثبت آثارها في الحافظة ، ويتمُّ اندماجها بما في الذهن من المعاني الاخر .

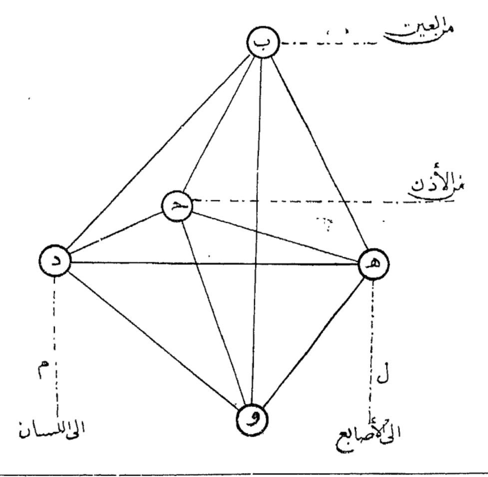
نعلم أنّ الغذاء المادّيّ ينهضم بسرعة إذا كان سهلاً شهيّا . وبمقدار مناسب ، كذلك المعاني إذا لاءمت الذهن وضعاً ومقداراً وتوزّع عملها على خلايا المخّ بنسب متعادلة ، اندمجت فيه وأصبحت مادّة للحياة الفكريّة .

وطبيعة هذه الخلايا سرعة التأثُّر بالمحسّات . فيجب أن يكون الطفل على مرأى ومسمع منها ليستمدَّ عقله الحقائق . وهي إذا ركزت فيه هبَّ الخيال فحلَّ عناصرها ، وصاغ منها شكلاً جديدا ، ثمَّ تفرَّغ إليها الفكر فوزنها بحسب ماعنده من الخبرة ، وأبدى حكمه الفصل

إبداءً يؤثّر فى الوجدان ويغرى الأعضاء العاملة بالتنفيذ .

وهذه الطريقة التى يقصد بها التوفيق بين خلايا المخّ وتأليف بعضها ببعض ، لا تزال مطروحة على بساط البحث وسواء أكانت حقيقيّة أم حدسيّة فإنّها تقرّب إلى الأفهام معنى حركات الفكر .

وقد تصدّى هيوارد[1] لبيانها فى الشكل الآتى : —



(ب) رمز لخليّة البصر و (جـ) لخليّة الصوت و (هـ) لخليّة الكتابة أى التى تضبط حركات اليدين والأنامل و (د) لخليّة النطق أى التى تضبط حركات اللسان والشفتين لاظهار مخارج الحروف و (و) لخليّة حفظ المرئيّات

(١) هيوارد Heyward عالم انجليزى عصرى يعنى كثيرا بالابحاث النفسية وعلاقتها بالمخ

ففى الإنسان السليم البنية ترتبط هذه الخلايا بأعصاب شعريّة حسّاسة . وإذا عرض للصحّة عارض يعطّل هذه الأعصاب فإن عصباً آخر يتنبّه ليؤدّى ما يستطيع من الحركة العقليّة . وقد يكون هناك جملة أعصاب بين الخليّتين أحدها أقوى من الآخر . فرؤية الكلمة ثمّ النطق بها تتبع الاتّجاه ب ج د م مارّة بخليّة البصر والصوت والنطق ومنها إلى اللسان فيتحرّك . ولاستنساخ الكتابة يتّخذ الأثر الاتّجاه (ب هـ ل) أو (ب د هـ ل) . وللكتابة عند الإملاء يتّخذ الأثر (حـ هـ ل) أو (جـ د هـ ل)

على هذا يجب تمرين الخلايا والأعصاب التى لها ارتباط بالدروس . فيرفع الطفل صوته عند التهجّى ، مجيداً نطق ما يلفظ به ، ممعناً فيما يقرؤه من الحروف ، مصغياً إلى ما ينبغى أن يكون عليه النطق ، محسناً أداء الكتابة . وقد دلّت التجارب على أنّه إذا اتُّبعت طريقة يقصد بها شحذ قوّة واحدة فحسب ، أو إذا جاءت عوجاء خالية من النظام الذى يوفّق بين هذه الخلايا . فإنّ التعليم يوشك أن يكون سطحيًّا ضعيف الأثر فى تقويم الأخلاق .

علاقة العقل بالمخ

حقّقت التجاربُ ارتباطَ العقل بالمخّ وتأثير أحدهما فى الآخر . ففى حوادث الارتجاج المخّىّ يضطرب العقل ، ويتعطّل الفكر والوجدان ، ويكون ذلك وقتيًّا إذا لم تضرّ الإصابة بجوهر المخّ . وإلّا

ذهبت بالملكات الفكريّة كلّها أو بعضها . وارتجاج المخّ أحيانًا يكون ذريعة للشفاء من البله والجنون « وربّما صحّت الأجسام بالعلل »

تأثير وجدان الفرح والحزن

وكذلك تؤثّر المؤثّرات الفكريّة فى كيان المخّ ، فتضطرب أعصابه أو تنفجر خلاياه ، فيحدث الشلل للجسم ، أو يصعقه الموت ، سواء فى ذلك أكان التأثير بالحزن أم بالفرح . أمّا تأثير الحزن فظاهر ، وأمّا تأثير الفرح فمن حوادثه ما حصل للفردوسيّ من شعراء الفرس ، فإنّه نظم سيرة رستم باز (عنترة الفرس) فى ستين ألف بيت من الشعر ، وقدّمها إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنويّ فى أوائل القرن السادس الهجريّ ، التزم فيها خلوّها من الألفاظ العربيّة مع ما فى ذلك من الصعوبة ، إذ أكثر الكلمات المستعملة فى ذلك اللسان عربيّة ، فكافأه السلطان بدينار عن كلّ بيت منها ، وبلغت هذه المنحة ستين ألف دينار ، فهذا المقدار الجسيم خبل عقل الفردوسيّ وقضى عليه ، فتوفى فى ليلته من شدّة ما اعتراه من الذهول . كذلك يحدّثنا التاريخ أنّ المتنبيّ طالت غربته عن وطنه ، وكتب لجدّته يسألها المسير إليه ببغداد ، فقبّلت كتابه ، وحمّت لوقتها سروراً به ، وغلب عليها الفرح فقتلها ، ومن مرثيّته فيها قوله مشيراً إلى هذا : —

أتاها كتابى بعد يأس وترحة   فماتت سروراً بى ومتّ بها غمّا

وسبب ذلك أنّ الجهود الفكريّة كالجسديّة تثير الدورة الدمويّة. والحركة أيًّا كان نوعها ، يلازمها احتراق الدم المارّ فى جزيئات الأنسجة البدنيّة والأعصاب عملاً بنظريّة الاحتراق البطىء . وإذا طالت هذه

الحركات أو زادت على الحدّ المقبول ، نفِد الدم الصالح للاحتراق ، أو ازدادت الرواسب الفاسدة الناشئة عن هذا الاحتراق ، وهى سمٌّ زعاف ، يمتصُّها الجسم فيستهدف للخطر ، وتبدو عليه أعراض السمّ .

الملل من مواصلة العمل

ومن هذا الباب إحساس الفتور والملل من مواصلة العمل . وما أشبه هذا الإحساس بصمام الأمن فى الآلة ، ينذر الإنسان بضرورة تعطيل العمل ، وإلّا سعى إلى حتفه ووقع بين مخالب الموت . وعلى من أحسَّ وقع التعب أن يستريح لا بالإخلاد إلى السكون ، بل بالاستراضة فى الهواء الطلق ، والتسلى برؤية المناظر البديعة . وربَّما اكتفى بغمض العينين ابتعاداً عن تأثير النور ، أو بسدّ الأذنين انصرافاً عن الضوضاء ، أو بالهرب من الشواغل والوساوس ، أو بالنوم العميق ، وهو أشدُّ ما تصبو إليه النفس .

النوم

ومن غفل عن إعطاء الجسم نصيبه من الراحة عقب المتاعب الفكريَّة ، وكان قوىّ البنية سليم البدن ، جاءه النوم قهرا . كان أرسطو ثقيل النوم لفرط ما كان يعانيه من بحث الشئون الفكريَّة والخلقيَّة والاجتماعيَّة . ولا يمنع النومَ أن يتشاغل عنه المكدود بالقراءة أو بالمشى ، فقد علمتُ أنّ النائم قد يكون ماشيا . وكذلك لا يمنع النومَ وقوعُ الإنسان فى بحبوحة العذاب . فهذا ديميوس Demieus الذى اغتال حياة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ربطت أوصاله فى أربعة جياد ، فمزّقت شرّ ممزّق . ولم يترك المعذّبون فى مقدورهم لوناً من العذاب إلّا جرّبوه فيه ، عذّبوه بالكيّ بسَفُّود مُحْمى ، وصبُّوا على جسمه

الرصاص الذائب والكبريت المحرق والزيت المُغْلَى . وكان — وارحمتاه — إذا طال عليه العذاب بنوع منها ، يحاول النعاس فينبهونه بعذاب آخر . وقد قال قبيل موته : «إنّ حرمانه النوم كان أفظع ما لقى من العذاب» . وإلى هذا يشير القرآن تنكيلاً بأهل الجحيم «وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ . وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ»

إذا فهمت هذا عرفت الغرض الذى من أجله قرن المربّون مطالب الجدّ باللعب فى نظام الدروس . فإنّ مجاوزة الحدّ فى كلّ منهما ، مذهبة للفائدة ومدعاة للسقم . وقد جاء فى الحديث « إنّ المُنْبَتّ لا أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى » .

الروح أو النفس

وصفها الإمام[1] الغزالىّ بأنّها جسم لطيف منبعه تجويف القلب وينتشر فى أجزاء الجسم بالعروق المبثوثة فيه ، كالسراج تنبعث منه أنوار الحياة . ووصفها ابن[2] مِسْكَوَيْه بأنّها ليست جسما ولا عرضا ،

(١) الامام الغزالىّ توفى سنة ٥٠٥ ﻫ تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ثم تزهد ، واشتغل بالتأليف ، ومن أجلّ كتبه احياء العلوم

(٢) ابن مسكويه توفى سنة ٤٢١ ﻫ وهو أبو على الخازن الرازى صاحب كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، وهو من العلماء الآخذين بالمعقول والمنقول . قرأ الحكمة الاغريقية ، وجمع بينها وبين الشريعة الاسلامية

بل جوهر بسيط غير محسوس . لأنّ الجسم لا بدّ له من صورة ، ولا يقبل صورة أخرى إلّا بعد مفارقة الصورة الأولى . فإذا قبل التثليث مثلاً فلا يقبل التربيع والتدوير إلّا بعد مفارقة الشكل الأوّل . وعلى خلاف هذا نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء على اختلافها محسوسة ومعقولة من غير مفارقة للأولى ، ولا تزال تقبل صورة بعد أخرى من دون أن تضعف ، بل هي تزداد بالصورة الأولى قوّة تهيّئها لقبول ما يرد عليها من الصور الأُخر » .

فالرُوح — سواء أكانت جسماً جرياً على المذهب الأوّل ، أم غير جسم ولا عرض جرياً على المذهب الثاني — هي قرينة الدم ، وحليفة الأعصاب الضاربة في أنحاء البدن ، والمبثوثة بين ذرّاته . وهي الفيض الإلهيُّ الذي نفخه البارئ في البدن بعد تسويته . ولها التدبير العامُّ لمدركات الحواسّ ، والملكات الذهنيّة ، وأجهزة التنفُّس والهضم والإفراز الخ ، تسعد وتشقى بنسبة الأمزجة التي يتألّف منها البدن ، وتفتر إذا طال بها زمن اليقظة ، فيأتيها النوم طوعاً أو كرها ، لتستريح وتستردّ نشاطها . وإذا طوّحت بها الطوائح ولم تعد توّاقة إلى البقاء ، انفصلت من البدن ، وتركته يتقلّب بين يدى الفناء .

وقد جاهد الفلاسفة ابتغاء الوصول إلى حقيقتها . وكلّما أوغلوا في البحث عنها وتغلغلوا في كشف غامضها ، وصلوا إلى حَيْرة ، وقنعوا من الغنيمة بالإياب راضين بوصفها بأنّها سرٌّ إلهىٌّ يعزب فهمه على

البشر «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

وقد ظهر أخيرًا في عالم الاختراع عدسة بلّوريّة، أنفذ المخترع من خلالها أشعّة إلى جسم حيّ، فرآه قد أحاطت به أشعّة مضيئة كالهالة سمّاها أشعّة الحياة. ولمّا وجّهها إلى جسم شخص يعالج سكرات الموت، رأى هذا الشعاع يتضاءل رويداً رويدا، وباختفائه انقضت الحياة. فظنّ المخترع أنّ هذا الشعاع هو الروح. ثمّ داخله الشكّ، لاحتمال أن يكون حدوث هذا النور من الحركة التي تؤدّيها جزيئات الجسم الحيّ. فيكون إذن من آثار الروح لا الروح نفسها.

وما أشبه الروح بالتيّار الكهربائيّ، تراه ينفذ من خلال السلك المعدنيّ ولا تشاهده، ولا ترى فرقاً بينه وبين سلك آخر ليس فيه تيّار بحسب الظاهر. وإنّما النور والحركة يدلّان على هذا التيّار الكهربائيّ في الاوّل دون الثاني.

المبحث الثالث

التعليم

ميّز الله تعالى الإنسان بقوّتين جليلتين

(١) القدرة على اختبار الأمور بنفسه، واستنباط الضوابط ذات الخير والشرّ منها

(٢) القدرة على سبر غَوْر الأعمال التى نسج على منوالها الخاطاء والمعاصرون والسالفون ؛ والسعى فى محاكاة ما عانوه لرقىّ الشئون الاجتماعيّة .

فالقوّة الأولى يشارك الحيوانُ الراقى الإنسانَ فيها من بعض الوجوه . وأمّا الثانية فهى حبس على الإنسان ، يستفيد بها مطالبه من طريق التكلُّم مع المجرّبين ، وقراءة سيرهم ، والاسترشاد بنصائح المؤدّبين ، والتخلّق بهديهم .

إنّ السعيد له فى غيره عظة وفى التجارب تحكيم ومعتبر

من أجل هذا اهتمّت كلُّ أمّة بسنّ أنظمة تلائم عاداتها . ومنذ فطر الله الإنسان على الاجتماع لا تزال القراءة والكتابة والحساب أساساً للتعليم .

يبتدئ الطفل فيتعلّم لغة أبويه وخلطائه والمستوطنين بلده ؛

ويستفيد من مجرّباتهم ؛ ويتحوّل إلى منطقة أوسع يتعلّم فيها اللغات التي جال أهلها في سبيل الحياة ، ليكون له بالعقول الراجحة صلة. فتتّسع ميادين اختباره ، وتمتدّ آفاق نظراته ، وتغزر ينابيع معارفه .

وقد كُلّف المعلّم تهذيب الطفل ، وأُلْزِم تغذيته بالعلوم والآداب ؛ وحُمّل عبء التبعة كلّها للوصول به إلى شاطئ السلامة كاملا . حتّى لقد غلا هربارت [1] فادّعى أنّ في استطاعته وحده أن يصيّره نابغة أو عبقريًّا . فهذا مسلّم إذا وجد لدى الطفل استعداد للفهم والحفظ والذكر . وما ذا عسى أن يبلغه المعلّم القدير ، إذا فقد الطفل هذه المواهب ؟ والنسيان وحده آفة عاتية تعارض قوانين التعليم وتحلّ عراه . ومن يشترط في المعلّم الجدارة ويَلْفِتْ نظره عن الاستعداد الفطريّ للطفل فقد شطّ عن الصواب ؛ وربما غلبه في حكمه هذا نبوغُه في إبّان طفولته ، فيتّخذ من نفسه مقياسا وينبري للمناضلة به . ومن يُجَرِّدْ نفسه من ذخائر الحفظ والذكر ، ثمّ يأخذ مجلسه بين المتكلّمين أو الكاتبين ، لا يجد شيئًا يستمدّ منه في الأمرين .

مثال لضعف الحفظ والذكر

إليك الفراشةَ ، يؤثّر ضوء المصباح في بصرها ، فتتأثّر أعصاب الحركة عندها ، وتسعى للاقتراب من الضوء . وما تلمِس اللهب حتّى تحسّ ألم الاحتراق فترتدّ ناكصة . ثمّ يؤثّر الضوء ثانيًا في بصرها ،

---

(١) هربارت توفى سنة ١٨٤١ ألمانى عاصر أستاذه بستالوتزى وبرز فى الحكمة والرياضيات والطبيعيات ، له آراء فى التعليم وطرق سديدة عوّل عليها المربون

فتنسى ما اختبرته أوّلا ، وتندفع إلى اللهب وتحتكّ به ، فيزيدها ألماً على ألم . كأنّ ما أصابها أوّلاً على شدّته قد ذهب أدراج الرياح . ولا تزال في اندفاع ونكوص حتّى تتقطّع أوصالها ، ويأتيها الموت من كلّ مكان .

هذا هو شأن غير الفقريّ من الحيوان ، فإنّه يولد وينمو ، ونصيبه من الغريزة ثابت في الأمرين لا يقبل التعديل . وقد استثنوا من ذلك النمل والنحل والزنبار فإنّ التمرين يكسبها قوّة ، كالحيوان الفقريّ الذى حياته رهينة الكسب .

الشوق والتشويق

الشوق حنين النفس إلى شيء تميل إليه ، فتنبسط له الأعصاب ، وتستقبل مقدارًا وفيرًا من الدم يجول في أنحاء الجسم ، ويعوّض ما تداثر من أنسجته ، ويطهّره من فضلات الاحتراق . وإذا حيل بين النفس وما تشتهي انقبضت الأعصاب ، وانحسر الدم فيلاقي الجسم العذاب من أجل ذلك ، ويعيش عيشة سيّئة .

وليس لدينا ضابط للمشوّقات إذ لكلّ إنسان غرض يوافق مزاجه يكدّ لإدراكه ولا يطيق عنه صبرا ، فإنّ من يجيد الخطّ مثلاً إذا تناول مكتوبًا قصر النظر على حروفه وتراكيبه وأشار إلى ما وافق القواعد الخطّيّة وما خالفها ، بَيْدَ أنّ الأديب يوجّه نظره إلى مادّته

وما زخر فيها من المعانى وما حوته من الترتيب والتنسيق ، ويمرُّ بخطّه الكريم دون أن يعيره التفاتا .

لو قدر المربّى على تعرُّف مزاج الطفل من غضون حركاته لتسنّى له أن يقطع لرقىّ التعليم شوطاً واسعا ، ولاتّخذ له من ذرائع التشويق عدّته ، ولأمكنه أن يضبط انتباه الطفل ويسير به إلى الغرض المنشود .

لانقول بضرورة كون هذا الوازع المشوّق من الأمور المألوفة فحسب ، لأنّ الأمر المألوف تُرْخِص العادة من قيمته ، فتبتذله النفس ولا يعود له وقع فيها . ولا نقول بضرورة كونه من الأشياء الطريفة الغريبة فحسب ، لأنّ الأمر الغريب تنفر منه النفس خشية أن تترسّم فيه ما يؤلمها .

وإذا اجتمع الطريف والمألوف معاً ، وائتلفت عناصرهما ، تولّدت منهما شرارة الشوق ، وبرقت منهما أشعّة الجذل والسرور .

كم تتلهّف نفس طالب العلم إلى إحراز مكافأة شوقاً إليها ، فإذا انطلق فى ميدان العلم ولامست قضاياه نفسه ، صارله من الاستكثار منه شوق يغنيه عن تلك المكافأة ، وبذلك نرى هذا الشوق خرج من دائرة المحسّات إلى درجة المعانى ، وهى الدرجة التى تسمو بها النفس .

وكثيرًا ماتلهو نفس الطفل بما يملك حواسّه فينصرف عن الانتباه إلى مانريد ، وماهى إلّا همّة المعلّم يستعين بها على إثارة الشوق

فيه ، فيتحوّل الطفل بسهولة عن ميوله ويخضع لإرادة المعلّم . فإذا رافقه المعلّم إلى الصحراء مثلاً وأراه مظاهر الطبيعة ، وآثارها البديعة ، من الجبال والهضاب ، وكيف يتراكم السحاب ، وأراه الشمس لابسة حلّة الجمال فى شروقها وغروبها ، وفكّ وثاقه فسمح له بالجولان أينما شاء ، فإنّ ذلك يحرّك فيه الشوق لا محالة فيزيد الأمور تأمّلا ، ويملأ عينيه من محاسنها ، ويصغى إلى أسمائها وما يصوغه المعلّم من الأحاديث لها ، ليسلّى نفسه إذا عاد بذكرها ، ويحدّث إخوانه مفتخراً بها . وهذا هو معنى قول بستالوتزى : — « كتاب الطبيعة يجب أن يقرأ قبل كلّ كتاب »

ولقد يملك الشوق زمام الأديب فيدفعه إلى قرض الشعر أو قول النثر ، والمطالع يرى بروق الشوق تتلألأ من ثنايا منطقه العذب. ترى هذا جليًّا فى قول علىّ[1] بن الجهم يستمطر الرحمة للبعيد عن وطنه : —

وارحمتا للغريب فى البلد الـــــنازح ما ذا بنفسه صنعا ؟

فارق أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده وما انتفعا

فإنّ شوقه إلى وطنه تمكّن من قلبه تمكّناً دفعه لإظهار حنانه على الغريب . وهذا قول أبى نواس[2] له روعة أخرى لا تنقص عن تلك الروعة : —

(١) على بن الجهم كان من الأدباء المعاصرين للمتوكل الخليفة العباسى

(٢) أبو نواس هو أبو على الحسين بن هانئ توفى سنة ١٩٨ هـ من أجود الشعراء بديهة ، وأرقهم حاشية ، وكان العلماء يروون شعره لملاحته ويتفكهون به

تقول التي من بيتها خفَّ مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للعلا متطلّب ... بلى إنّ أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في إثرهنّ عبير

ذريني أكثّر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير

فإنّه — إذ أبى المقام بوطنه ورغب في النزوح عنه — لم يحطّ من كرامته والسعي في جرّ النفع إليه ، فنشط إلى النزوح على غير إرادة أهله ، ليكمّل نفسه ويكثر حاسديه بعودة تجعل حظّ وطنه من السعادة موفورا . وهذا الضرب من الشوق شيمة أولى النفوس الكبيرة

ولقد تفهم فواعل الشوق في الحيوان ، إذا صوّبت نظرك إلى الحصان مثلاً وقد ساقه سائسه إلى موارد الماء ، فإنّه ينقاد إليه رغماً منه ، ولكنّه لا يشرب إلّا إذا اشتاق الماء ، أو أثار التصفير فيه هذا الشوق .

والشجرة تخرج أزهارها ذات الألوان الجميلة الجذّابة تفتن بها الحشرات فتجيء إليها ، وتهبط عليها ، حاملة في فمها وبين أرجلها مادّة النبات فتتولّد منه الثمرة .

الحاجة الى شحذ الغريزة

لو فحصت عن القوّة التي تضبط حركات الحيوان لعلمت أنّها الغرائز . فهو يسعى مسترشداً بنورها ، مقبلاً على الخير ، مدبراً عن الشر

ولو بحثت عن القوّة التى تملك زمام الطفل ، وتكفل الرجل فى الأوقات العصيبة التى يذهل فيها عقله، ويحار لبُّه ، ماوجدت مصدرها غير الغرائز .

ولو نظرت إلى الإنسان العاقل والحوادث تصارعه ويصارعها ، لم تر له صديقاً حميماً يكفُّ عنه المخاوف سوى الغرائز .

فللغرائز الحول والطول ، والحكم العدل .

بيد أنَّ البيئة بما زخرت من ضروب الحيل والزخرف تستطيع أن تموّه الباطل وتصبغه بصبغة الحقّ ، وتقف فى طريق الغرائز فتحوّل مجراها ، وتجعلها ذريعة الشرّ . فالسمكة تسعى فى البحر بدافع الغريزة لنيل غذائها فتلتقمه ، وقد يكون طُعْماً فتقع به فى شرك الموت . والإنسان يستند إلى بنى نوعه لأنَّ الاجتماع فيه طبع ، فيجمعه سوء طالعه بقوم قطع التنازع أواصر إخائهم ، فيلاقى منهم مايسوءه . والرجل يسقط من الترام فتتحرّك رجلاه بحكم الغريزة دفاعاً عن النفس ، فتمرُّ العجلات بهما فتبترهما . والغريق يمدُّ يديه أملاً فى المعونة ، أو رجاء أن تتعلّقا بشىء . فيكون صنعهما هذا سبباً للغرق ، إذ لو ترك نفسه لطفا جزء منه فينجو . قال المعرّىُّ فى هذا المعنى : —

وكلٌّ يريد العيش والعيش حتفه ويستعذب اللذّات وهى سِمام

وقال فى موضع آخر

وربَّ ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم فى ورده

كذلك قال ابن زيدون فى رسالته الجدّيّة : « لا غرْوَ قد يَغَصّ

الماءُ شاربَه . ويقتل الدواءُ المستشفىَ به . ويؤتى الحذِر من مأمنه . وتكون منيّة المتمنّى فى أمنيّته . والحيْن قد يسبق جهد الحريص . »

وجوب إشراف العقل على الغرائز

فالغريزة ترشد بالطبع إلى السلامة ، وتتغيَّر صبغتها صلاحاً وفساداً تبعاً لطبيعة البيئة . ولذلك يجب إشراف العقل عليها ليمحّص قضاياها ، ويتّخذ منها مقدّمات صادقة لأحكامه .

يتردَّد الإنسان بين طريقى الفضائل والرذائل كالتائه فى البيداء ، والسارى فى الظلماء ، وإذا اضطرب به بحر الحوادث مرّت سفينته بشواطئ الشره والقناعة ، والجبن والشجاعة ، والحشمة والكبرياء ، والتواضع والرياء . فلا يدرى أيّهما يختار ، ولا على أيّهما يعوّل ؛ وإذا قادته الغريزة إلى واحدة منها زحمته الأخرى حتّى يؤيد العقل أمثلها ، وبذلك يظهر مقام الألمعىّ الذى يظنُّ بك الظنَّ كأنّه قد رأى وقد سمع .

كان ابن طولون يأكل فى إحدى حدائقه . فرأى سائلاً فى ثياب رَثّة ، فأرسل إليه بعض الغلمان برغيف ودجاجة ، فآب الغلام دون أن يتناول السائل منه شيئا . فأمر ابن طولون به فأحضر ، واتّهمه بأنّه جاسوس بعض الأعداء . فاعترف الرجل بذلك . فقال بعض جلسائه إنَّ صنيع الملك ضرب من السحر ، فقال ابن طولون : « إنّما هو قياس صائب ، إنّى رأيت سوء هيئة الرجل ، وإباءه عن طعام يتمنّى الشبعان أن يأكله . ثمّ رأيت ماله من الجراءة ، ورباطة الجأش ، فحكمت بما حكمت . »

ورَوَى ابن خلدون أنَّ رضوان قال : أنشدت أبا العبّاس ابن

شعيب مطلع قصيدة ابن النحوىّ ولم أنسبها اليه وهو : —

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال له على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله : «ماالفرق» إذهى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب . فقلت : لله أبوك ، فإنه ابن النحوىّ . فانظر كيف كان حكم هذا الناقد سديدا . وقد أجاد ابن المعتزّ حيث يقول : —

تفقّد مساقط لحظ المريب فإنّ العيون وجوه القلوب

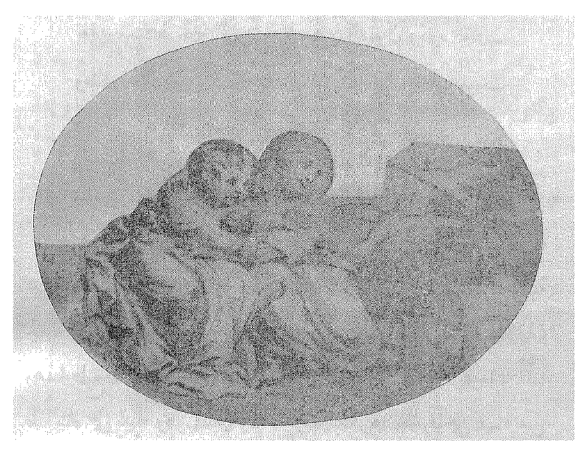
وطالع بوادره فى الكلام فإنّك تجنى ثمار الغيوب

كيف تتخذ الغريزة أساساً للتعليم ؟

علينا أن نشير بعض الغرائز فى الطفل ، ثمّ نراقب أثرها ونعدّ له محوًا وإثباتاً على النمط الذى يلائم التعليم . فرضنا أنّنا عرضنا عليه لُعبة جديدة ، فإنّك تراه كما فى الشكل الآتى يمدّ يديه لأخذها متلهّفا ، وهذا طبع لا يتخلّف فيه ما دام سليماً من الأمراض . فرضنا أنّنا ضربناه على يديه وهو يمدّها ، فإنّه يردّها مكرها ، خوفاً على نفسه من الأذى ، ويتسلّط عليه اليأس فيبكى ويصرخ ، والبكاء فى اصطلاح الأطفال لغة يعبّر بها عن الاستياء الذاتىّ يَهيجُ به عواطفَ السامعين للأخذ بناصره .

هبنا ظهرنا أمامه حينئذ مشفقين ، ورمقناه بأعيننا فرحين ،

وخاطبناه بليّن القول ، وأريناه أنّ هذه اللعبة ملكنا ، وأنّ فى إمكانه أن يتوسّل إلينا ويستعطفنا بإسدائها إليه كرماً وفضلا ، فربّماسكن رَوْعه وهدأ جأشه ولبّى هذا الطلب رغبة فى تملّكها . ومتى سلّمناها إليه نجده لامحالة يمسح عن عينيه دموع الحزن ، ويستبدل بها دموعَ الدلال ، ويبسم ثغره ، ويجرى ماء البشاشة فى وجهه ، ويجول السرور فى صدره .



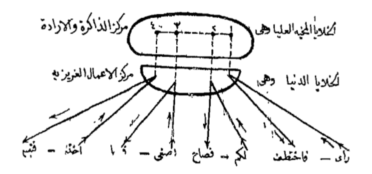
فهذه سلسلة حركات اطّراديّة متلازمة ؛ يؤثّر جمال الشيء فى بصره ، فتتحرّك يداه للملكه ، وتنبعث نفسه لاغتصابه ، ولا يستطيع كتمان ما يدور بخلده إذا حُرِمه ، فيبكى إشارة إلى حبوط مسعاه . وإذا خفف وطأة طلبه بحسن عبارته ، واستعمل التلميح بدل

التصريح لإظهار عواطفه ، فانّه يظفر ببغيته المنشودة .

فإذا فهم الطفل هذه الحركات النفسيَّة ووعاها، واستعمل ملكتي الحفظ والذكر خير استعمال ، بمعنى أنّه عندما تنزل به الحوادث يتريَّث حتّى يستذكر نتيجة تجاربه فيما له بها شبه ، فإنه يصبح أحزم من أن يمدَّ يده مرَّة أخرى على وجه يكون عقباه الضرر .

وبعبارة أخرى يقف متردّداً بين مطالب الغريزة والعقل ، رغبة في أخذها ، ورهبة من العقوبة ، ويرجّح جانب العقل .

هٰذَا الشَّكْلُ يُمَثِّلُ مَسَالِكَ الْمُخِّ قَبْلَ التَّعْلِيم



وَهٰذَا الشَّكْلُ يُمَثِّلُ مَسَالِكَ الْمُخِّ بَعْدَ التَّعْلِيم

الخلايا العليا وهى
مركز الذاكرة والارادة
الخلايا الدنيا وهى
مركز الاعمال الغريزية
١
٢
٣
٤
راى
فرحا
فتبسم

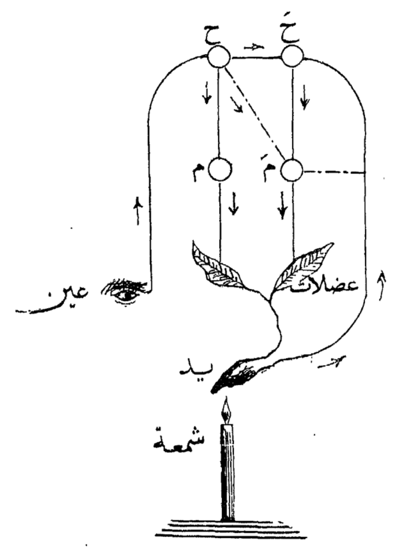
إنّ الشكل الأوّل هنا يمثّل أربعة مسالك للخلايا الدنيا ، التي هي مراجع للأعمال الغريزيّة . وأربعة مسالك أخرى منقّطة ، تصل الخلايا الدنيا بالعليا ، التي هي مستودع قوى الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والعقل ، ورسمها هكذا عنوان على وجودها بالقوّة ، وسير السهام يرشد إلى لزوم الأسباب للمسبَّبات هكذا :

رأى فاختطف — لُكِمَ فصاح — نُصِحَ فَرَجا — أخذ فتبسّم

وترى بالشكل الثاني أنّ رؤية الشيء لايسير أثرها سيره الغريزيّ الأوّل ، المشار إليه بالمسلك المنقّط ، بل يسير إلى قوّة الملاحظة لتفقّد معالمه ؛ ثمّ إلى الحافظة والذاكرة ؛ ثمّ إلى الخيال فيحلّ أجزاءه ، ويركبه تركيباً يناسب ما رسخ فيه من قوّة الإبداع ؛ ثمّ إلى القوّة العاقلة المفكّرة لتتدبّر الأمر وتصوغ الحكم الفصل ، وتبعث به إلى أعضاء الحركة لتستمدّ منها التنفيذ . وهنا يرى أنّ بعض المسالك الغريزيّة صار عاطلا ، بعد أن كان عاملا ، وأنّ التيّار الذي ينقل التأثير بدلاً من أن يَعْجَل فيوعز بالإنفاذ يجيء إلى الخلايا العليا طلباً للاستشارة ، ثمّ يهبط أخيرًا إلى الأعضاء العاملة بعد إمعان ورويّة .

فانظر كيف فعل التعليم بالمسالك الغريزيّة ، وكيف أفاض عليها من خير الوسائل مايكفل له إدراك الغاية المنشودة ، وكيف وفّق بين المبدأ والغاية ، جاعلاً من العقل سلطاناً على الحركات ، وكيف تنبّهت المسالك الأخرى التي لولاها لاختل نظام الاعمال أو اعتراها الفساد ، وكيف برزت الأعمال ممحّصة بعد أن جُرّدت من غشاوة التضليل .

عمل مثل هـذا لم يأخـذ على الإنسان عهداً أن يكون دائمـاً حليف الصواب ، فالمجتهد يصيب ويخطئ على حسب رزانة العقل ، وجودة تصرّفات قواه ، ومساعدة العناية الإلهيّة .



إليك مثالاً آخر : إنّ الشمعة المضيئة فى هذا الشكل تنبّه مركز الإحساس البصرىّ فى المخّ ح فينتقل التأثير منه إلى مركز الحركة م . ومنه إلى العضلات الموصولة به فتتحرّك تنفيذاً للعمل المطلوب، فتمتدّ اليد إلى الشمعة لتلمسها . ثمّ إنّ الحركة التى تحدث ألم الاحتراق تنبّه

من طريق آخر مركز الإحساس حَ لأداء عمل يضادُّ الأوّل ، وهو كفُّ اليد عن مركز التأثير ، فإذا عرض التأثير فى فرصة أخرى ، فإنّ مركز الإحساس الذى ضبط صورة الانفعال الأخير وما فيه من حرج ، ينقل الإحساس إلى حَ مباشرة بدلاً من الاستعانة بمركز الحركة م ، ثمَّ يسرى حكم العقل فى لهب الشمعة إلى كلّ ماله شبه به ، فيدعو الحوادث ويذكر ما لابسها من الخطر قبل أن تمتدّ اليد للاختبار ، ويصدر الحكم إمّا بعدم الاقتراب منه لأنّه ذو خطر ، وإمّا بالفرار منه ويكفى لذلك تنبيه المركز مَ .

وقد ورد فى الأثر « لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » فالمؤمن الذى شأنه أن يكون عاقلاً إذا نزلت به مصيبة ، بحث عن أسبابها ، وفسح لها فى ذهنه مكانا ، فاذا عاودته بنفسها أو بنظائرها ، أيقظ عقله للحكم السديد قياساً على ما جرّب ، ونبّه الوازع لاجتنابها ، إلّا إذا قضى عليه القضاء المبرَم ، وأنساه استحضار العبرة ، فحينئذ لا يتّسع المجال إلّا للصبر .

فعلى المؤدّبين أن يرفقوا بقوّتى الحفظ والذكر ، ولا يركنوا إلى مجرّد الاستظهار مهملين الاستذكار الإرادىّ الذى هو دِعامة الأخلاق . أليست المعانى كنزًا يدّخر لينفق منه عند مسيس الحاجة؟ ولولا الإنفاق لكان المدّخر من سَقَط المتاع .

اختلاف نزعات الكتاب والخطباء

تختلف نزعات الكتّاب والخطباء باختلاف قدرتهم على عرض الأفكار وأشباهها ونظائرها . ترى الشاعر إذا عزم على الإنشاء تتوارد

على ذهنه المعانى وعباراتها فيستجيد ، ويؤلّف بين أشتات الشوارد ، ويسوق إلى الناس قولاً يستهوى العقول وينقلها إلى الأغراض التى يريدها ، فأحيانا يريد تصغير نفس البخيل فى نظره وتنفيره من البخل. وقد قال حاتم الطائىّ فى هذا المعنى وأجاد :

يرى البخيل سبيل المال واحدة إنّ الجواد يرى فى ماله سبلا

ويرى أحيانا أن ينزع عن الجبان رداء الرعب والفزع وينفخ فيه روح الشجاعة والإقدام كما قال جرير :

قل للجبان إذا تأخّر سرجه هل أنت من شرك المنيّة ناج ؟

ويريد أحيانا أن يزيل ما يخالج القلب من الامتعاض كما قال صاحب المثل السائر : —

جرحوا قلبي وحبهم يذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عينى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة .

ويريد أحيانا أن يعتذر عن مزاولة أمر غير مباح على حدّ قول ابن الرومىّ : —

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه حداداً على شرخ الشبيبة يلبس

ويريد أحيانا أن يرقى إلى ذروة الرجاء فيصوغ القول الفذّ على النهج الذى صاغه أبو زيد الأشبونىّ فى إدريس العالى ملك الأندلس حيث قال : —

انظرونا نقتبس من نوركم إنّه من نور ربّ العالمين

وقد بلغ تأثّر الملك من روعة هذا الشعر ، وكان محتجباً على عادته

أن أمر الحاجب أن يرفع عنه الحجاب ، ليقابل بوجهه وجه الشاعر ، وأمر له باحسان ليجمع بين أمنيّتيه .

وأحيانا يودّ تصوير الحقيقة بالوصف الموجز كقول الحرث بن حلّزة اليشكرى

أجمعوا أمرهم عشاءً فلمّا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل خلال ذاك رُغاء[1]

الملكات العقلية

١) الملاحظة

استدعى معلّم شابّين من تلاميذه ، فلمّا مَثَلا بين يديه سألهما عمّا شاهدا فى الطريق إلى المدرسة ، فأجاب أحدهما بأنه غادر المنزل وسار حتّى وصل إلى المدرسة، ولم يتذكّر شيئاً رآه فى أثناء السير أو سمعه. أمّا الآخر فقد أطرق قليلا ، ثمّ انبرى فقصّ ما أثّر فى حواسّه من مظاهر الكون وزخرف الصناعة ، وأرسل شعاعاً من فكره إلى دقائقها ، فأحاط بها ورسمها رسماً يحرّك العواطف ويستحثّ الخيال ؛ ثمّ انطلق جواد لسانه فى ميدان القول، فوصف الجوّ صباحاً حينما غادر المنزل ؛ وعطف على وصف الشمس وقت شروقها ، وما لها من القوّة فى إزالة حجب الظلام ؛ ثمّ تكلم عن السحاب وتكوينه وفوائده

---

(١) ضجيج

ووقوفه أمام الشمس وانحساره عنها ؛ ووصف نَوْر الشجر يفتّحه مرّ النسيم ، ويترقرق عليه دمع الندى ، وتتعطّر به الأرجاء — وصف كلّ هذا وصفاً جمع طرائف الأدب ، ومشاهد الطبيعة . ثمّ شخص إلى عالم الحيوان والطير فذكر ما شجاه من أصواتها ، وما عرف من سجاياها ، وقد أخذ حديثه يتدفّق تدفّقاً يدلّ حسن تنسيقه وارتباط أجزائه على قوّة بليغة من الملاحظة وحسن الذوق ، ومن ذا الذي لا تفتنه مظاهر الطبيعة ؟ قبل بزوغ الشمس يكون السكون شاملا ، حتّى إذا تنفّس الصبح غرّدت الطيور على أفنان الأشجار فرِحة ، ثمّ تتألّق الشمس فتخلع عن الجوّ لباس الحداد الذى اكتسى به حزناً على فراقها ، وتأخذ فى السير والنفوس تشيّعها بنظرات المشتاق حتّى تغيب

فمثل هذا المظهر إذا صقلته يد الطبيعة ، وألبسته ثياب الجدّة ، تجده يوجّه زمام النفس إلى التطلّع إليه ، والكفّ عما سواه ، ومتى شبعت منه — وزمن هذا لا يزيد على بضع ثوان — أدركت بغيتها ، وصار تأثيره فيها عاديّا ، اللهم إلّا إذا تغيّر شكله أو وصفه ، أو تكرّر نظر النفس إليه باعتبارات عدّة .

لا نطمع أن نذكر السبب الحقيقيّ لذلك ؛ وإنّما يهمّنا أن نرى ولو على سبيل الحَدْس والتخمين وجه التأثير . فإنّ المعانى الجديدة — على ما شرحنا فى باب الشوق — تثير النفس فترحّب بها ، وتنزلها فى دائرة تليق بها من فراغ العقل ، وهناك يحصل بين المكان ونزيله احتكاك كاحتكاك الكهرباء ، فيتولّد منه شرارة نعبّر عنها بوجدان

السرور والجذل . فإذا تحققنا أنّ نتيجة هـذا التفاعل فقدان مادّة التيّارات الـكهربائيّة ، فلا نزاع فى أن حركة الوجدان ينشأ عنهـا استهلاك مادّة الخليّة المنوطة بملاحظته ، فتنصرف عنه انصرافاً قهريّاً . والملاحظة حينئذ لا تقف ، بل تتنقّل من سبيل إلى سبيل ، مادامت النفس فى طور اليقظة .

فإذا شئنا حبس الملاحظة على أمر بعينه ، فلا بدّ من صبغه بصبغة متجدّدة كالخيالة[1] ، ليبعث النفس على إيقاظ ما غزرت مادّته من الخلايا . والنفس الـكبيرة لا تعتمد على شىء ممّـا يثير الملاحظة ، بل تتصرف بنفسها ناظرة إلى الشىء الثابت من وجوه متنوّعة لتكوّن المعانى جديدة فيّاضة . ولا نحتاج إلى شىء وراء هذا لتقويم الملاحظة التى عليها عماد القوى العقليّة .

ضع قلمك أمامك ، وتفرّغ للنظر إليـه ، بحيث لا تدع البصر يتحوّل عنه ، فإنّه لا محالة يكِلُّ بعد زمن وجيز . لـكنّك إذا شخصت إليه من وجوه كثيرة ، وعرضت أوصافه ، ففحصت عن شكله ولونه واعتداله ، وطيب مادّته ، وحسن بريه ، وسلاسة كتابته ، ووازنت بينه وبين نظائره . ثمّ إذا توسّعت وخرجت من حظيرة الملاحظة ، وسمحت للانتباه أن يتصوّر الأقطار التى تزرعه ، والصنّاع الذين يهيّئونه للاستعمال ، والتجّار الذين يجلبونه إلى ديارنا ، ثمّ اخترق ذهنك حجاب الماضى فكشفت عن تاريخه ، وما ترنّم الأدباء بشأنه فى المديح

(١) السينماتوغراف

وما صاغوه من زخرف القول ، فى المفاضلة بينه و بين السيف إلى آخر ما تستطيع سرده على سبيل الاستطراد — فإنك تجد زمن الملاحظة يطول بقدر ما يسمح به حسن تصرّفك ، لأنّ كلّ حركة ذهنيّة من هـذا القبيل تنبّه خليّة خاصّة ، ولا تـكاد تَكِلُّ الواحدة حتّى تتنبّه الأخرى .

تحويل الملاحظة يخفف وطأة الألم

لا تستطيع النفس أن تصوّب سهام الملاحظة إلّا إلى شيء واحد فى زمن واحد ، وقد يكون الانتباه إليـه قهريًّا إذا قوى سببه كصوت الموسيقى ، ورؤية البرق الخاطف ، وسماع الرعد القاصف . وقد يحـدث فيها امتعاضاً وألماً ، كمن أصيب بجرح وتولّى الطبيب تضميده ، انظر إلى الشكل الآتى .

غـير أنّ النفس حينئذ هرباً من إحساس التوجّع تتوسّـل إلى الانصراف عنه بعامل آخر كالتنهّد أو الصراخ أو اضطراب الأيدى والأرجل، لتحوّل الملاحظة إلى أمر آخر تحدثه ، كأنّها تسعى بطبيعتها لتهدئة الخاطر السقيم ، فتقيم شيئاً سهلاً مقام شيء صعب . ومثل هذا ضحك الحزين « وشرُّ الشدائد مايضحك » ، ولعلّه من الجسم تخفيف للّوعة ، كالعرق يفرزه الجسم تقليلاً لوطأة الحرارة . وغالباً يبكى الأطفال بأصوات رهيبة ، ولم يكن بكاؤهم يأساً من فقدان الشيء ، بل تسلية وتخفيفاً لمصيبة الحرمان . وإنّ من يرزح تحت أعباء البؤس تتلهّف نفسه لاستذكار ماتمتّع به من قبـل ، أو تنصرف إلى انتظار أسـباب الفرج ترجو بها تخفيف وقع الشدّة . حتّى إذا صلح الأمر وجبر الـكسر



فهيهات أن يذكر الإنسان سابق آلامه ، وتراه يكره من يعكّر عليه صفاء سروره بتذكيره إيّاها . وهذا مصداق قوله تعالى :

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا . فلمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ .

وإذا كان العقل لا يتفرّغ إلّا لشيء واحد ، فكيف تأتّى للإنسان أن يكون كاتباً ومفكّرًا فى آن واحد ؟ لو فكّرت لعلمت أن

هـذين الأمرين ليسا خاضعين لسلطان واحـد . فأحدهما صادر عن الفكر ، والآخر صيّرته العادة آليًّا .

الملاحظة نور تستجلي به النفس حقائق المرئيّات وأشباهها من المحسّات. فبينما الإنسان يمرُّ بفكره على الأشياء بدون إمعان وروِيّة، ولا يستطيع أن يغوص فى مضامينها ، ليتعرّف شأنها ، وما تحتوى من خير وشرّ ، تجد المصوّر يرمق الأشياء بعين الخبير ، فيرسم ورق الشجر بدرجات تتفاوت فى الخضرة ، بحسب نصيبه من الضوء ، فأحيانًا مشرّبًا بسمرة وأحيانًا بصفرة . وتجد الفيلسوف ناظرًا إلى السماء ، غوّاصًا فى بحار الفكر والتأمُّل . على أنّ النفس المدركة تتفاوت مدركاتها للشىء الواحد بتنوُّع أطوارها كالنشاط والكسل ، والجوع والامتلاء ، والصحّة والسقَم ، والسرور والحزن ، والعلم والجهل ، فتجدها لا تستقرُّ على حال واحـدة كزئبق مقياس الحرارة . ولا مُشاحّة في أنّ حالها فى الصباح غيرُ حالها فى المساء ، وهى فى الشتاء غـيرُها فى الصيف ، وهى صغيرةً غـيرُها كبيرةً أو معمَّرةً ، وهى ساذجةً غـيرُها عالمةً مدبّرة مجرّبة . فكم لعب اليأس بفكر لاعب الشِّطْرَنْج[1] مثلا ، فتفيض عليه الملاحظة وَحْيًا ينفخ فيه روحًا يقهر بها خصمه فى ميدان المناضـلة . وقد تعترضه العقبة الكأداء فيحكّم الملاحظة ويخرج منها حليف الفوز ناجحا . وكم التذّ الإنسان من

تفاوت مدركات النفس الواحدة

(١) الشطرنج لعبة هندية الاصل قد اتصلت بالمشرق أولا ثم صارت من أهم الالعاب فى العالم . اعتبرها الغربيون دون العلوم بيسير وفوق الألعاب بكثير

زخرف الشيء لأوّل وهلة ، أو استجاد مذاقه فانبرى يحمده ، ويحبّب النفوس إليه ، مع أنّه لو راقبه بإمعان ، وأفاض عليه شعاعاً من نور الفكر لانجلى عن سمّ فى دسم

فالملاحظة نعيم المفكر ، وسلوى المتوجّع ، ومفزع المحزون ، وحسبنا دليلاً على علوّ شأنها ما نرى من آثارها الكبار عند ترداد النظر إلى شيء معيّن

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا[1]

ناهيك بدرجة المراقبة التى يلوذ بها الأتقياء ، فيعرضون أعمالهم على محكّ الانتقاد قبل أن يختموا صحيفة يومهم ؛ ويحاسبون أنفسهم على ما فعلوا ، فإذا كان خيرًا عزموا على الاستكثار منه ، وإذا خطرت فيه شائبة الباطل استعاذوا بالله منه وتحامَوْه .

لا سبيل إلى تقويم الملاحظة إلّا بالمحافظة على سلامة الحواسّ ومعالجتها بالتمرين . إذَنْ تدرك العين الفروق بين الأشكال ماجاء منها منظّما ، وما حاد عن النظام ، وكذلك بين الألوان وما بينها من الدرجات ، وتدرك الأبعاد بموازنتها بأبعاد معلومة لديها من قبل ؛ كذلك تدرك

(١) أصل هذا البيت للعباس بن الاحنف فان هرون الرشيد وصف جاريته جنانا بقوله

جنان قد رأيناها فلم نر مثلها بشرا

ثم حاول الرشيد أن يضيف عليه فامتنع عليه القول فأرسل الى العباس بن الاحنف وكلفه أن يردفه بمثله فقال

يزيدك وجهها حسنا اذا ما زدته نظرا

الأذن المسموعات سواء أكانت من خرير الماء ، أم من عصف الريح ، وتغريد الطائر ، وغناء الإنسان ، وعزف الآلات ، ونفخ المزامير .

حاجة المعلم الى الملاحظة

من اشترط فى المعلّم أن يكون طبيبا ، أو على الأقلّ عارفاً ما يعرض للحواسّ من الأمراض ، مستطيعاً تقويم المُعْوَجّ منها ، ما خرج عن محجّة الصواب . وكثيرًا ما رأينا قصار النظر من التلاميذ جالسين فى مؤخّر الحجرة بالمدرسة ، بعيدين عن المرئيّات التى يقيّد المعلّم أوابدها على السبُّورة . فأمثالهم يطيش سهم بصرهم ، ويتوسّم فيهم المعلّم الضعيف بَلَهاً هم بريئون منه . وقد تعترى الأعضاءَ الداخليّةَ أمراضٌ تعوق السمع عن إثبات المعانى ، وتؤدّى بالطفل إلى أن يُفْهَمَ فيه ما ليس حقيقيّا . وكم من تلميذ يتبادر إلى معلّمه أنّ سمعه سليم ، ولو فحصه لعرف مركز الداء ، واستعان بالدواء . واعلم أنّ بالحلق قناة موصولة بالأنف ، إذا سدّت لا تؤدّى الأُذن وظيفتها ، وَمَثَلُها كالصّفّارة إذا سُدّ ثقب منها . تفقّد حجرة بالمدرسة وراقب تلاميذها فلا تكاد تجدها خالية من تلميذ فاتح فاه . يفعل هذا قهراً ليتنفّس منه لأنّ الأنف — وهو عضو التنفّس الطبيعى — مسدود . وقد زوّدته الفطرة بزغب شعرىّ لينقّى الهواء الداخل إلى الرئة من الجراثيم . فإذا أمره المعلّم — ولا مردّ لأمره — بإغلاق فمه فقد حاول عبثا ، وظلم نفسه .

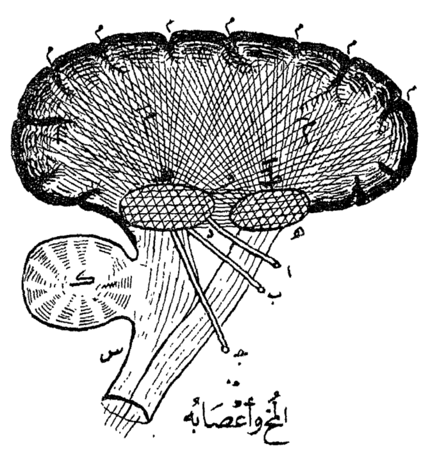
فإذا تبيّن لك أنّ فتح فمه يدلّ على أنّ تلك القناة مسدودة ، علمت أنّ سمعه معطّل لا يضبط المسموعات الواصلة إليه ، ومحتاج إلى علاج جراحىّ

٢) الحفظ والذكر

تصل آثار المحسّات فى النفس أحياناً إلى درجة بعيدة المدى ، ويزيد الإنسان وصفها فيستعصى عليه القول ، وكلّما نشط رأى العِيان ، أجلى من البيان. دُعِىَ أحد السراة إلى مأدبة بقصر عابدين ، ولا تسل عن هذا القصر الذى هو زينة الدنيا ، ورمز لأُبّهة ملك مصر ، فرأى بناء فخماً كسته الرفاهة ثوب الجلال ، واجتمعت فيه أشتات الجمال ، من نور لامع ساطع ، ونقش جذّاب خلّاب ، وأثاث فتّان ، يلعب بالوِجدان ؛ ورأى صدور المدعوّين تموج بالأوسمة ، وثغورهم من فرط السرور باسمة ؛ وسمع من حديث ربّ الدار ، جوامع الأفكار ؛ وذاق من المأكولات ، ألوان المشهّيات ؛ وشمّ من عَبير الأزهار المتألّقة ، رياحاً عَبِقة . فاح منها الأرَج ، وأُولِعَت باستنشاقها المهج .

فلمّا انفرط عقد الاجتماع ، ذهب إلى منزله وأثر هذه المحسّات البديعة فى نفسه عظيم ، وما ذهب إلى فراشه حتّى أخذت المعانى تجول فى ذهنه وحرمته النوم . أسرُّ هذا أنّ الحفلة كانت منقطعة النظير ؟ أم أنّ البصر والسمع والشمّ والذوق تآزرت جميعاً لاستذكارها ؟ لا أخفى عليك أنّ الشوق والملاحظة يبعثان فى النفس تشرُّب المحاسن كما تتشرّب الإسفنجة الماء ، أو كما تمتصُّ جذور النبات غذاءها من الأرض ، فيتفرّغ لها العقل ، وتتكيّف من أجلها الخلايا المنوطة بالحفظ والذكر

انظر إلى هذا الشكل تجد المخّ الإنسانىّ يحتوى على خانتين كبيرتين د و هـ تخزُن الأولى محفوظات الحسّ ، وتخزن الثانية محفوظات الحركة العامّة. والأعصاب ا و ب و جـ المتّصلة بالحواسّ تنقل المدركات إلى الخزانة الأولى فتتداول أمرها مع مراكز القوى الفكريّة م. ومتى محّصتها أودعتها الخزانة الثانية ، وتبقى فى الخزانتين بقوّة نفسيّة كنهها فوق إدراك العقل . فإذا فرضنا جدلاً أنّ حفظ المرئيّات فى



المخ وأعصابه

س النخاع الشوكى

ك المخيخ

م مركز القوى العقلية

م الاعصاب التى توصل خزانة الحفظ بالقوى العقلية

الذهن يحصل برسمها على لفائف المخّ كما تنطبع الصور فى المرآة ، فماذا عسى أن يكون حفظ المسموعات والمشمومات والمذوقات والمعانى التى يضيق بها متّسع العقل فى غضون الأيّام والليالى ؟

النوابغ فى الحفظ والذكر

من الناس من قوّته الفطريّة فى الحفظ والذكر غاية فى الحدّة والمضاء ، كأبى العلاء المعرّىّ ، والأصمعىّ ، وحمّاد الراوية . أمّا أبو العلاء المعرّىّ فافتتن المؤرّخون باستعداد قوّتيه ، حتّى حدّثوا عنه أنّ الأصوات الأعجميّة التى لايدرك معانيها تنطبع فى ذهنه ويستطيع أن يردّدها كما سمعها . وقالوا من غريب حذقه فى قوّة التعريض أنّه حضر مجلس المرتضى فى بغداد فجرى ذكر المتنبّى وكان المرتضى يكرهه ويتعصّب عليه ، وكان المعرّىّ يحبّه ويتعصّب له ، فانتقصه المرتضى وأخذ يتتبّع عيوبه ، فقال المعرّىّ لو لم يقل إلّا قصيدته التى مطلعها « لك يا منازل فى القلوب منازل » لكفاه . فغضب المرتضى وأمر بإخراجه وقال المرتضى لمن حضر : أتدرون لماذا اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبّى ؟ إنّما عرّض بقوله :

وإذا أتتك مذمّتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنّى كامل

فقدّرْ مع ذلك قوّة إدراك المرتضى للمغازى البعيدة ، والتلميح الذى لا يأبَهُ له إلّا فطاحلُ الأدب ، والنوابغ فى الحفظ والذكر .

وأمّا الأصمعىّ فكان كثير الحفظ قوىّ الذكر ، إماماً فى اللغة والغرائب ، ويستدلّ الأدباء على حذقه وبراعته أنّه اجتمع مع أبى عبيدة عند الفضل بن الربيع وقد ألّف كلٌّ منهما كتاباً فى الخيل ،

فلما سئل أبو عبيدة أن يقوم إلى فرس ابن الربيع ويسمّى كلّ عضو فيه ، أبى وقال : لست بيطارا ، وإنما أخذت ما كتبت عن العرب . ولمّا سئل الأصمعىّ قام وجعل يضع يده على كلّ عضو ويسمّيه ، ويُنْشد ما قالت العرب فيه . فلما فرغ أعطى الفرس

وأمّا حمّاد الراوية فقد استدعاه هشام بن عبد الملك وقطع فى سفره إليه اثنتى عشرة ليلة راكبا جملاً مهريّا ، ولما مثَل بين يديه قال له : إنّما بعثت إليك لبيت من الشعر خطر ببالى لم أدر من قاله وهو :

فدعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فقال فى الحال : هو لِعَدِىّ بن زيد من قصيدة ، وانبرى يُنْشِدُها من حافظته .

قوة الحفظ فى ضبط المرئيات

من الناس من قوّته أضبط للمرئيّات دون المسموعات ، ولا يتذكّر الأصوات إلّا إذا قرنت بكتابة أسمائها أو رسم مسمّياتها . وقد حكى عن أحد البارعين فى فنّ الرسم أنّه زار لندن ليقابل أحد أصحابه فنسى اسمه ، ولكنّه رسم وجهه واستعان بذلك على السؤال عنه.

ومن لم تمنحه الفطرة نبوغاً فى حدّة هاتين القوّتين فحسبه أن يشحذهما بفهم الأمور وترتيبها وتنسيقها وربط أطرافها بعضها ببعض. فإنّ الحقائق المفكّكة الأوصال يكون مثلها فى الذهن كمثل الكتب المبعثرة ، يخزُنها جامعها شغفاً بالعلم ، ولكن سوء ترتيبها يجعل الحصول عليها عند الطلب صعب المنال

قال أبو نواس فى وصف الخمر : —

كأنّ صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء درّ على أرض من الذهب

فاعتبر الأدباء المشبَّه به هنا أمراً خياليّا ، وما زالوا كذلك حتّى تزوّج المأمون — أمير المؤمنين — بوران بنت الحسن بن سهل ، وقُدّم إليها ليلة الزفاف حصير نثرت عليه اللآلئ ، فتمثّل المأمون بهذا البيت وقال « كأنّ أبا نواس وهو يصوغ هذا البيت كان حاضرًا معنا » .
فهذه الحقيقة البديعة التى صوّرتها قريحة أبى نواس قبل أن تخلق ، لم تكن تأتى إلى ذاكرته لو كان ذهنه مضطربا ، وحفظه ضعيفا ، وذكره على حال لا تستطيع التوفيق بين الأشباه والنظائر .

وممّا يدلُّ على تباين درجات هاتين القوّتين أنّ الناس يسمعون موضوعاً واحداً ، فينقده كلٌّ منهم بحسب ما ركز فى طبعه من الميول إلى الشكل أو اللون أو العلّة والمعلول أو السبب والمسبّب . وقد سمع بشّارُ بن برد أحدَ الناس يفسّر بيتاً من شعره فأعجبه تفسيره ، وقال لراويه : اروِ هذا المعنى فوالله ما عنيته

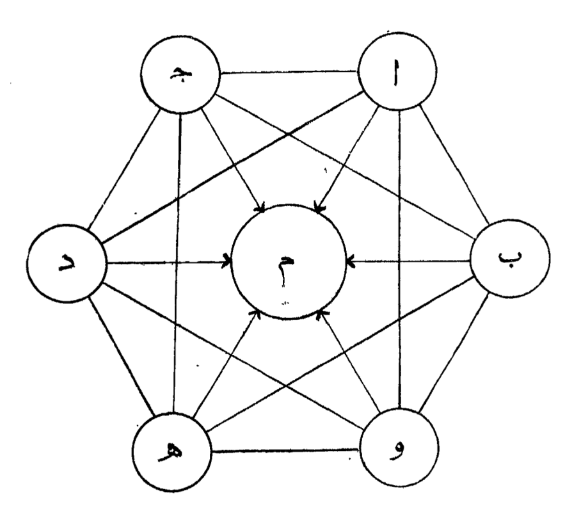
والعبارة تصاغ لتؤدّى معنى خاصًّا فإذا هى تحتمل معنيين أو أكثر ، والقارئ يحتاج حينئذ إلى مراعاة سياق الكلام ليصرف معناه إلى المقصود منها . قال أنس بن مالك : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلّم عشر سنين فلم يقل لشىء فعلته : لِمَ فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله لِمَ لا فعلته ؟ فيحتمل أنّه وصف رسول الله بالصبر على خلق من يصحبه . ويحتمل أنّ أنس بن مالك وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال ، كأنّه متفطّن لما فى نفس رسول الله فيفعله من غير حاجة إلى استئذانه .

فما أشبه هـذه العبارة بجسم بلّوريّ ذى أسطحة تنبعث منها ألوان جذّابة ، يرى بعض الناس منها ما لا يراه الآخر ، وكلّ منهم يعبّر عمّا أبصرته عيناه وخالج نفسه

يحضر الناس حفلة الغناء ، ويظهرون ما لا قِبلَ لهم به من الانتباه ، ثمّ يخرجون فيترنّم أحدهم بتلحينه على مثال الأصل ، ويتعثّر الآخر فى أذيال الخيبة . فالقدرة على إبراز المحفوظات غير القدرة على صيانة هذه المحفوظات ، ولا سبيل إلى سبر غور قوّة الحفظ إلّا بما تظهره قوّة الذكر الإرادىّ من الأعمال . وعلى مقدار معاناة الذهن التعبَ عند حفظ الشىء يكون رسوخه فيه ، كالمسمار إذا دُقّ فى الجدار ، حتّى إذا ثبت فيه كان استذكاره سهلا . وبديهىٌّ أنّ الإنسان إذا استراح تدفّقت على ذهنه تيّارات الأفكار ، هامّة أو غير هامة ، سديدة أو غير سديدة . أمّا التذكّر الإرادىُّ فهو مِحَكُّ العقل تتقيّد به النفس فى دائرة محدودة عند البحث والمناظرة . وإذا جنحت عن الموضوع قام منها رقيب يقود زمامها إليه . وقد خطب سحبان وائل من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقّف ، ولا تلكّأ ، ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه دون أن يوفّيه حقه . فانظر كيف اكتظّ عقله بحلقات المعانى المتماسكة .

وأحيانا يهمّنا استذكار أمر ، فننصِب له شِباكَ البحث ، ونَفْرُك الناصية طلباً له ، ولكنّه يستعصى فنتركه ونذهب إلى موضوع آخر ، وإنّنا لكذلك وإذا بالغرض الذى كنّا نَنْشده قد رفرف على الذهن .

فالسرُّ فى هــذا أنّ الغرض الذى قصدنا استذكاره قد كان بالموضوع الثانى أكثر ارتباطًا وغابت عنّا حقيقة هذه الرُبُط. وفى الشكل الآتى:



م رمز لمعنى منسىّ و ا و ب و حـ رمز للمعانى المتّصلة به على ما نظنُّ . فإذا حاولنا استذكاره بها وفشلنا فى ذلك ، وجب علينا أن نبحث عن معان أُخر مثـل د و هـ و ، ترتبط بتلك المعانى وبه ، ولا نزال نطيل البحث عنـه حتّى يتحقّق رجاؤنا . كان يحضر طلّابُ العـلم دروسَ وليم چيمس فـكان يجلسهم على ترتيب أسمائهم ، ويناديهم بها ليقرن الأسماء بالمسمّيات . وكلّما قابله أحدهم ولم يتذكّر اسمه استحضر فى

على ترتيبها ، ولا يزال يذكر سبباً بعد آخر حتّى يدرك غرضه .

ومن أجل تسهيل استذكار الأمور فكّر بعضهم في ضرورة قرنها بما لا ينسى كالرتيمة ، وهي خيط يشدُّ في الإصبع لتستذكر به الحاجة . وخير وسائل الحفظ الإكثار من الروابط العقليّة .

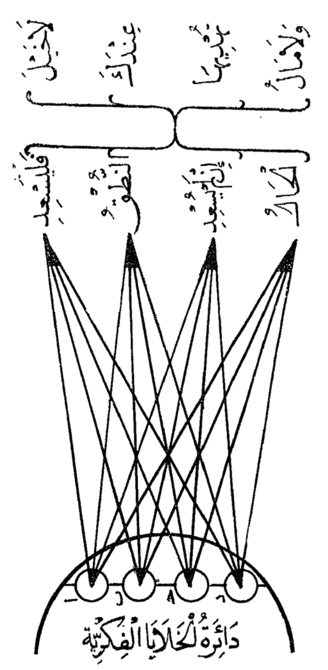
إذا لم تكن حاجاتنا في نفوسنا فليس بمغْنٍ عنك عقد الرتائم

ولأمر ما يصعب على الفكر أحياناً استذكار عبارة محفوظة ، فتنبري المراكز الفكريّة للبحث عنها ، طال بها الزمن أو قصر . أردت أن أستشهد بهذا البيت :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ومع أنّ معناه حضر إلى الذهن فقد ذهبت ألفاظه كلّها أو بعضها أدراج الرياح . انظر إلى الشكل الآتي تجد المراكز الفكريّة المرموز إليها بالحروف ا ، ب ، ح ، ء قد أرسلت أشعّة بحثها إلى ما أمكن النطق به وهو الشطر الثاني منه ، ثمّ لبثت في أخذ وردّ وتأمّل وتنقيب بين الألفاظ والتراكيب ، وبينها وبين المراكز الفكريّة، حتّى هبطت إليها ألفاظ الشطر الأوّل .

على مثال هذا نصوغ القضايا المنطقيّة لنهتديَ بها إلى كشف المجهول ، أو نفحص عن الأسباب ، لفهم حقيقة المسبَّبات . ولا يكون أملنا عظيماً في الحفظ والذكر إلّا بعد أن نفهم الأمر ونستجلي غامضه ، ونقيم حوله سياجاً من العلاقات ، ونؤاخي بينه وبين المعاني ، ثمّ نعود إليه أحياناً ونتكلّف استذكاره بالنصّ ، وإذا استعصى فبالمعنى



قوّتا الحفظ والذكر في أطوار الحياة

إنّ تيّار هاتين القوّتين جارف ، وهو دائماً بين مدّ وجزر ، وسكون واضطراب . ففي عهد الطفولة تكون صفحة الذهن صافية كالمرآة، تنطبع عليها الصور انطباعاً واضحاً لخلوّه من شواغل الحياة وقد ألقى الطفل مقاليد شئونه إلى المشرفين عليه

فإذا جاوز الخامسة والعشرين من العمر ظهرت عليه غالباً بوادر الضعف فيهما ، ويفسد النسيان ما يرجوه من إنجاز الأعمال . وهذا يرجع إمّا إلى كبر السن ، وإمّا إلى اكتظاظ الذهن بالمعانى المتجدّدة ، وإمّا إلى كثرة ما أصابه من المحو والإثبات كلوح الإردواز بعد طول الاستعمال ، وإمّا إلى تلاطم أمواج الأفكار فى ميدان ذى سعة محدودة . والرجوليّة طور تتضاعف فيه المطالب ، وتعظم التبعة ؛ فتتردّد على الذهن المسائل المرتبطة بالمنزل والأولاد ، وبالصرف والإيراد ، ودرس مشاكل الحياة ، وطباع الخلطاء ، ليستفيد من خيرهم ويصون نفسه عن أذاهم ، وكيف يرجى من شخص أحاطت به الشواغل المتنوّعة أن يكون فى مضاء الحافظة والذاكرة كالطفل المجرّد منها ؟ على أنّ المخّ عند الطاعنين فى السنّ كالثوب الخَلَق الذى تقادم عليه العهد ، لا يقوى على أداء عمله على ما ينبغى .

٣) الخيال

هو مَلَكة قِوامها الحَلّ والربط ، وأدنى درجاته ما يُسْتَذكر من المحفوظات مع التصرّف بالزيادة أو النقصان ، وأسماه ما جرى تركيبه على غير مثال ، كالصائغ يتصدّى للعناصر فيجمعها ويسبكها فى قوالب أُخر . نرى الطفل لا يريد أن يخضع لغيره ، وأقصى أمانيّه أن يبعد عن مراقبة الناقدين لكى يجد مجال الخيال واسعا . غير أنّ خياله فى هذا الطور طفل مثله ، ليس مضبوطا ولا خاضعاً لسلطان العقل ،

ولذلك كلّفه بعض المربّين مزاولة الحقائق الكونيّة ، وأبعدوه عن قراءة الروايات والخرافات ، فإنّها لا تزيده إلّا انحرافاً عن الحقّ .
سأل معلّم تلميذاً أن يذكر مثالاً للدلالة على أنّ الحرارة تمدّ الأجسام فقال التلميذ : « إنّ النهار صيفاً يطول بتأثير الحرارة فيه » فاستعمل القياس ولم يفطن إلى أنّه لا ينطبق على الواقع . ولا تكاد تسمع منه جواباً مثل ذلك إذا ضبط خياله ، ووقف على حقيقة الأسباب لطول النهار صيفاً ، وقصره شتاء

خيال النائم

للخيال في النوم مجال واسع . انظر إلى الطفل وهو نائم تجده يتخيّل أنّه بين يدي مرضعه ، فتشاهده يحرّك شفتيه كأنّما يرضع ولا ثدي في فمه . حدّث تارتيني (Tartini) وهو أحد مشهوري الموسيقيّين في القرن الثامن عشر : أنّه رأى الشيطان في الحُلم خاضعاً له ، فناوله تارتيني «الكمنجه» وأمره أن يُلحّن بها في نوع من الإيقاع حدّده له ، فعزف الشيطان بمهارة فائقة تركت في ذهن الموسيقيّ وهو نائم أثراً عميقاً . ولمّا استيقظ عادت إليه الذكرى من شدّة وقع الصوت في نفسه ، فأمسك « الكمنجه » وشرع يحاكي تلك النغمة حتّى جاءت مطابقة للأصل ، وكان من أمره أن ابتدع قطعة موسيقيّة سمّاها « عزف الشيطان » . ولولا أنّ ترتيني عبّر عن ذلك الذي هبط عليه في منامه بأنّه شيطان لتوسّمناه مَلَكاً ، ولقطعنا بأنّ السرّ الذي وصل إلى خياله نوع من الإلهام في الصناعة التي اشتهر تارتيني بها .
ومن تعلّق ذهنه بأمر لا تهادنه الوساوس والأخيلة في شأنه

مستيقظًا كان أو نائمًا . حتّى لقد رأى بعضهم فيما يرى النائم أنّه يقاسى من العذاب أشَدّه ، ولمّا استيقظ تبيّن له أن رجليه لامستا شيئًا حارًّا. وكثيرًا ما يُخيّل له حُلمه المفزع أنّ كابوسًا يضايقه، ثمّ يعرف سبب ذلك أنّه كان نائمًا على جانبه الأيسر ممتلئ المعدة بالطعام. ومفسّرو الأحلام يطلعون الحالم على نوع العمل الذى بات ذهنه مشغولاً به . فقد رُوىَ أنّ مملوكًا مَثَل بين يدى سيّده الملك مدهوشا . وكاشفه بأنّه رأى فى منامه أنّه يسفك دم الملك ، وأقام له الدليل على أنّه خادم أمين ، ففزع الملك ممّا قصّه عليه وقال له : « لو لم تكن فكّرت وأنت مستيقظ فى شىء من هذا ما رأيته فى الحُلْم » ، وأمر به فقتل . تهيّأت للنوم يومًا وتباريح الحزن تناوئ ذهنى لوفاة ابن لى ، فرأيت فى الحُلْم كأنّ حاديًا يغنّى بصوت المحزون ، فبكيت ثمّ استيقظت وعيناى مغرورقتان بالدموع.

وكما يعرض الخيال للنائم يعرض للمستيقظ ؛ والقارئ متى فرغ من قراءة بعض الحوادث المفزعة . يغوص ذهنه فى بحر من الخيال لتصويرها . وإذا أخذ مجلسه فى مكان هادئ ، وتشاغل عن شئونه ، وسمح للخيال بالجولان ، فسَرْعان مايسرح فى الفضاء ، ويبنى القصور فى الهواء ، ويسلّى نفسه بإدراك الأمانىّ ، وعدوّه المبين هو الذى يقطع سلسلة هذا الخيال الشهىّ .

الخيال فى اليقظة

ومن الناس مَنْ يصوغ الخيال قضاء لأربه ، ثمّ ينقلب مزاجه فيحسبه صدقا ، فإنّ أشعب كان يؤلمه أن يجرى الصبيان وراءه مُصفّقين استهزاءً به . رآهم على هذه الحال يوما ، وأراد أن يصرفهم

عنه ، فالتفت وقال لهم على سبيل الخيال : « ألم تعلموا أنّ فى جهة . . . ثريّاً يسدى المال إلى كلّ من دخل منزله » فتركه الصبيان وأسرعوا إلى منزل ذلك المثرى . فلمّا رآهم ذاهبين إليه وقع فى نفسه صدق هذا الخيال فعقّبهم .

حاجة العالم الى الخيال

والطبيعيُّون يعتقدون أنّ الخيال دليل الباحثين ، ولم يعهدوا منقّباً وصل إلى حقيقة مجهوله إلّا بعد حَدْس وتخمين . والناس على بكرة أبيهم يرون البخار الصاعد من القدر الغالية بقوّة ترفع غطاءه مهما كان ثقيلا ، ولكنّ وات Watt وحده بما أوتيه من بارع الخيال استنجد بهذه القوّة لإدارة الآلات فنجح . ويتّخذ الرياضيُّون والسياسيُّون طرقاً فرضيّة لحلّ المشاكل ، ثمّ يَحْسُبُون نتائجها ويدخلون بها فى طور العمل على سبيل التجربة ، ولا يزالون يتخيّلون الوسائل ويمحّصونها من الشوائب ، وينصرفون عمّا تجرُّ إليه من الخطأ ، فإذا الحُجُبُ تتكَشَّفُ عن مكنون الحقائق .

الحقيقة ضالّة الفلاسفة يحرصون عليها فى مدوّناتهم ، وينتقون لمدلولاتها العبارات المتينة التى لا تدع للّبس مجالا ، ويحترسون من تزويق الألفاظ وتميق الأساليب ، فإنّهما يبعدان عن فهم المقصود . وهى كذلك أساس المعاملات ، فالتاجر لا ينصف المشترى إذا بالغ فى وصف سلعته وجاوز به حدود قيمتها ، والطبيب يسىء إلى المريض إذا استعار للدواء اسم دواء يشبهه ، وتضيع الثقة من المؤرّخ الذى يمجّد من لم ترفعهم أعمالهم . وكم تثور الفتن ويضطرب بين الخلفاء حبل

الولاء إذا راج سوق الخيال فى نصوص المعاهـدات ، فإنّه يخرج مدلولات الألفاظ عن سياج المعاجم اللغويّة ، وإليها وحـدها يرجع الأمر عند ما تستحكم حلقات النزاع .

حاجة الاديب إلى الخيال

أمّا الأدباء فعلى عكس هؤلاء لا يعذب عنـدهم ماء القول إلّا إذا طرق أبواب المجاز والاستعارة فى أمور تحتاج إلى الفراسة وصدق النظر . ورد فى هـذا أنّ النبىّ صـلّى الله عليه وسلّم قال لأزواجه : « أَطْوَلُكُنَّ يَدًا أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِى » فلمّا مات عليـه السلام جعلن يطاولن بين أيديهنّ لينظرن أيّتهن أطول يدا ، ثمّ كانت زينب أسرعهنّ لحاقا به وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ أنّه إنّما أراد المعنى المجازىّ . وكذلك قول المتنبّى :

راميات بأسهم ريشها الهـد ... ب تصيب القلوب قبل الجلود

فالمطّلع على الشطر الأوّل لا يدرى أإلى الحقيقة سار الشاعر أم إلى المجـاز ، ولا يكاد ينتهى من قراءة الشطر الثانى حتّى يعرف أنّ الغرض بالأسهم تلك العيون النجلاء على سبيل التجوّز .

فالخيال يصون الصنعة من الابتذال ، وينفخ فى القول والعمل روحا فيّاضـة ، ويشحذ الذهن ، ويدعو إلى الإمعان وترداد النظر ، ولو جفّ معينة من الكتابة أو الشعر أو التلحين لذهبت مَسْحَة البلاغة ، ولتجرّدت من العوامل الحيّة فى تحريك الهمم وإثارة الخواطر . كان ابن الرومىّ وحيد عصره فى الشعر . فقال له بعضهم : « لِمَ لا تشبّه

تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه » . فقال : « أنشدونى شيئاً من شعره » فأنشدوه في الهلال

وترى الهلال كزورق من فضّة قد أثقلته حُمُولَةٌ من عنبر

فقال : « واغوثاه لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها . ذاك يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة ، وأنا أىّ شىء أصف »

فما أحوج الخيال البليغ إلى المرئيّات يستحضرها الشاعر ويصوغها بحسب اقتداره ومهارته فى الصناعة ، بحيث يجمع الأشكال المتشاكلة في سمط ، ويُسْبِل عليه ثوباً قشيباً من البلاغة تهتزّ منه النفس فرحا

إليك حمدونة الأندلسيّة ذهب بها الخيال عند وصف الحصى فى الوادى مذهباً أجادت فيه وبرّزت إذ تقول : —

تروع حصاه حاليةَ العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ووصف المتنبّى صبره وأجاد فى خياله حيث قال : —

رمانى الدهر بالأرزاء حتّى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسّرت النصال على النصال

وأبو العلاء المعرّىُّ وهو كفيف البصر ، قبس من نور الطبيعة ما جعل ذهنه سيّالا فى سبك الخيال بدرجة يعجز عنها المبصرون . وشعره حافل بمثل هذا الخيال الرائع . وقد راقنى تشبيهه البرق فى سرعة تألّقه بذى العين القريحة وقد غلبه النوم ، يفتحها بدافع المرض ويُغلقها حبًّا فى النعاس ، وهكذا يتعاقب الفتح والإغلاق على وجه السرعة . ووصف طلوعَ الفجر بالشيب ، والشفقَ بالزعفران ، وادّعى على سبيل

الخيال أنّ الليل يميل إلى النجوم الزهر ، فلمّا شاب بطلوع الفجر ، خاف هجر النجوم والهجر شيمة الغوانى ، فوارى شيبه بخِضاب الزعفرانى أى الحمرة التى تبدو مع الفجر . وخياله من السلاسة والغرابة يجرى على هذا النسق ، مع أنّه كُفَّ بصره وهو فى الرابعة من عمره ، وهذه المدّة على قصرها زوّدته بالمشاهدات ، فلبث يستمدّ منها فى شعره طَوال عمره .

٤) العقل

هو ملكة تدبّر الحركات الإراديّة من أىّ نوع كانت . وقد فصّلنا القول فى أنّ الغرائز تُهَيْمِن على الجسم وتقود الإنسان ليعمل العمل بلا رويّة ، وتكون غالباً نتائجه سديدة مفيدة ، ولكنّ الخلقيّين لا يعوّلون على هذا النفع ، ولا يثيبون الإنسان من أجله ، لأنّه جاء مصادفة لا من طريق المقدّمات المنطقيّة . وذلك كاندفاع من لا يحسن السباحة إلى البحر لانتشال مُشرِف على الغرق ، وكسعى الأمّ لتخليص ابنها من مخالب الخطر .

وقد بذل دارْوِنْ جهده مثبتاً بالمشاهدة أنّ للحيوان الراقى عقلاً مستفاداً من الخبرة الذاتيّة وإن يكن أدنى من عقل الإنسان . رأى فى حديقة الحيوان بأمريكا قردين فى قفص واحد : أحدهما مُسِنّ والآخر صغير . وكان المسنّ لا ينفكّ يؤذى الصغير كلّما بَصُر به ، وأينما التقى معه . وبينما كان الحارس يكنُس القفص انقضّ عليه القرد المسنّ والتقم قفاه ، وكاد يذيقه الموت لولا أن خلّصه منه القرد الصغير ،

فقد عضّه فى ساقه عضّة أنسته صوابه ، وأرجعته عن العدوان . إذا التمست سبب هذا تبيّن لك أنّ إشفاق القرد الصغير ليس من مجرّد رؤية القرد الكبير يفترس الحارس ، بل لا بدّ أن يكون فكره قد صاغ من مستودعات الحافظة قضايا هى أنّ القرد المسنّ اعتدى على شخصه من قبل ، واعتدى على الحارس الآن ، فهو مؤذٍ معتدٍ يجب الخلاص منه . فلمّا حانت الفرصة وشُغل القرد المسنُّ عن نفسه هجم عليه القرد الصغير ، وانتقم منه انتقاماً يدلُّ على أنّ إبرازه ليس غريزيّا ، وإنّما أراد ذلك ليقفه عند الحدّ الذى تتطلّبه دواعى الاجتماع .

التدرج فى تأليف القضايا

فهذه القضايا التى ارتبط بعضها ببعض قد أثارها إحساسه ووجدانه الشخصىُّ والاجتماعىُّ ، وهى كالقضايا الأوّليّة التى نشاهدها فى الطفل . نراه يمسك اللُعبة بإحدى يديه ، وإذا رأى مع غيره لُعبة أخرى يبكى ، وإذا أُعطى إيّاها يسرّ . فنفهم من هذا قضيّة بسيطة هى أنّ نفسه تشتاق الكلّ أكثر من الجزء ، وتعلم أنّ الجزء أقلُّ من الكلّ قيمة ومقداراً وإن كان لا يتنبّه للتعبير عن ذلك . نراه إذا أراد القعود وألزمته الوقوف يبكى وينزع إلى القعود . فكأنّه صاغ قضيّة مضمونها استحالة اجتماع الضدّين : القيام والقعود فى زمن واحد . نراه ينازع غيره فى المكان الذى يريد القعود فيه ، لأنّه يعلم أنّ الجسمين لا يحلّان فى مكان واحد . نراه يمشى إلى الشىء الذى يريده ، لأنه يعلم أنّ الوصول إليه ممكن . نراه يسأل عمّا لا يعرف ،

ومتى شُرِح له سكت واقتنع ، لعلمه أنّ للأشياء طبائعَ وحدوداً ومميّزات . ونراه يسأل عن فاعل الفعل ، ولا يقتنع بأنّه جاء بلا فاعل وهكذا . ومتى كبر استعان بتلك القضايا البديهيّة على صوغ القضايا النظريّة ، وحاول إبداء الحكم فيها . ومتى اتّسع نطاق عقله ، وازدادت مراسته ، تجده يتئد ولا يتسرّع فى الحكم ، بل يعرضه على بساط البحث ، ولا يؤلمه أن يوسعه الناس انتقادا ، ولا يمتعض إذا جاء حكمهم مخالفاً لحكمه ، وظهر رأيهم فيه أضبط ، وحكمهم أسدّ ، لأنّه حينئذ يهمّه الوصول إلى الحق ، ولا يبالى أوَصَل إليه بنفسه أم شاركه غيره فى تمحيص المسائل ، وإزالة غشاوة الباطل عنها .

وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنيّة ما شاء من القضايا العامّة المستنبطة من المحسّات ، ويحتفظ بها ، ويذكرها عندالحاجة . فما أوسع الجمجمة على صغرها ! لأنّ العقل جمع بها شوارد المسائل ، حتّى يصحّ أن يقال : إنّ الإنسان عائش بعقله فى جوّ روحانىّ فسيح الأرجاء . وإذا كان فى هذا مُثار دهشة المتأمّل ، فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفاً من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف .

٥) الوجدان

إنّ المحسّات التى تصل إلى الذهن إمّا أن تدعو إلى الفرح والجذل ، وإمّا أن تدعو إلى الغمّ والملل ، وهذا الأثر هو ما نسمّيه بالوجدان .

سل ضميرك لما ذا يتسرّب إليك السرور إذا قابلتَ صديقاً حميما . وسل المعمود لما ذا يتمعض من الغمّ ، وتظهر على محيّاه ملامح الكآبة . ولو التمست سبباً لذلك لوجدت أنّ الارتياح فى الأمر الأوّل والألم فى الأمر الثانى كفيلان بهذه النتائج .

نعم للعقل شأن كبير فى ترجيح وجدان على آخر ، لأنّنا نرى الطفل إذا مرض ونصحه الطبيب أن يتعاطى الدواء يأنف أن يلبّى الطالب ، لأنّ العلاج له طعم مهوّع لا تسيغه نفسه وليس لعقله سلطان عليها .

ولكنّ الرجل الذى يقدّر الأمور بعواقبها ، لا يجعل للطعم المهوّع نفوذاً على وجدانه ، فيُقبل على تنفيذ إرادة الطبيب عن رغبة فيها ، لأنّه يتّقى به وطأة المرض ويدفع به غائلة العلّة .

وقد يسود المزاجُ النفسىُّ حكمَ العقل ، فتجد المتطيّر يحزن ممّا اتّفقت العقول على أنه داعى الفرح . قال المعرّىُّ وهو من غلاة المتطيّرين :

ضحكنا وكان الضحك منّا سفاهة ... وحقّ لسكّان البسيطة أن يبكوا
تحطّمنا الأيّام حتّى كأنّنا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ

ولأبى الطيّب المتنبّى :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عمّا مضى منها وما يتوقّع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ... ويسوقها طلب المحال فتطمع

وتجد المتفائل يفرح ممّا يحزن منه الناس غالبا ، وتنطبع طلائع

البشر على صفحة وجهه ، وتصيبه الحوادث الجسام فلا تلتوى قناته ، ويسالمها ليستخلص منها لنفسه نصائح وحكما وعبرا . ولا يعبأ بتقلّبات الأيّام ، لأنّه يعتقد أنّ الدنيا مسرح تغدو عليه الناس وتروح، ولكلّ امرئ منهم شأن يطلبه ، حتّى إذا أرخى الليل سدوله نامت العيون ، واستراحت النفوس . وإذا انتهى العمر استعاض عن هذه الحياة حياة أبقى وأهنأ .

هذى الحياة رواية لمشخّص | الليل ستر والنهار الملعب

علاقة الوجدان بالحركات الجسمية

ولا تجد مظهرًا لترداد الفرح والحزن متعاقبين كطلعة المقامر ، يخسر الصفقة فيكتئب من ألم الحزن ، ويربح بعد ذلك فيبشّ من بسطة الفرح ، ويستطيع الناظر أن يعرف هاتين الحالين بمجرّد الاطّلاع على وجهه . وبذلك نطق لسان الشعر فقال :

« نظر العدوّ بما أسرّ يبوح »

« متى تك فى صديق أو عدوّ | تخبّرك الوجوه عن القلوب »

« والعين تعرف من عينى محدّثها | إن كان من حزبها أم من أعاديها »

« الودّ لا يخفى وإن أخفيته | والبغض تبديه لك العينان »

« لا تسأل المرء عن خلائقه | فى وجهه شاهد من الخبر »

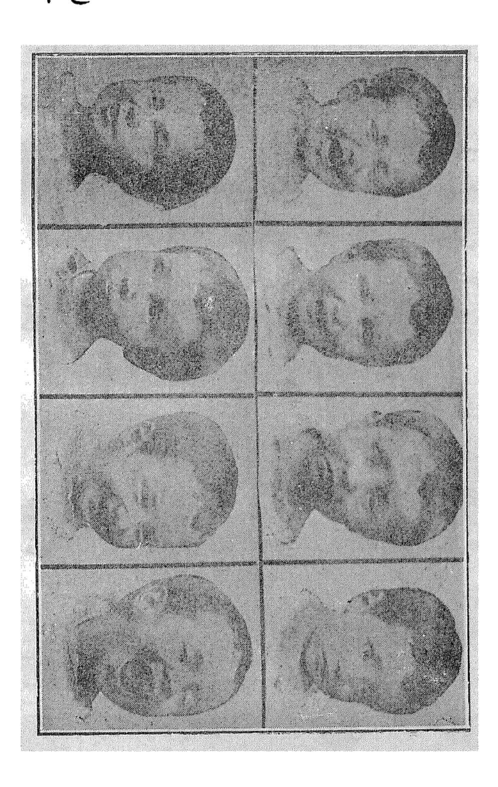
وللباروديّ

ربّ خلّ تراه طلق المحيّا | وهو جهم الضمير بالأحقاد

فتأمّل مواقع اللحظ تعلم | ما طوته صحائف الأكباد

إنّ فى العين وهو عضو صغير | لدليلاً على خبايا الفؤاد

انظر إلى هذا الشكل وقدّر تقاطيع الوجه وقد أشرق عليه نور السرور، وجرى فيه دم الانبساط، فضحك ضحكاً شفّت عنه أسارير أعضائه. انظر إليه تجده لدى الحزن قد عرته غبرة الاشمئزاز والعبوس وتقطيب الوجه، وربّما بكى إذا ثار ثائره فى النفس، والتطلع ينبئ عن



الدهشة ، وتدلُّ الرجفة على الفزع ، وربّما بدا الضحك عند الاحتقار أو الضغينة ، وصادق النظر لا يخطئه ، لأنّ تكلّفه يُخرِجُ الصوت فاتراً مكذوباً . وأحياناً يحصل البكاء من فرط السرور

يا عين قد صار البكا لك عادة　　تبكين من فرح ومن أحزان

ودبيب الأقدام يرشد كذلك إلى تعرُّف أحوال النفس . فخطا اللص والجبان والشجاع والمجرم تخبر عن الحقيقة ، حتّى لقد عرف لازوغلى[1] كيف يصدر حكماً عادلاً فى حادثة خفى فيها المجرم : أمر المشتبه فيهم فأُحْضِرُوا ، ودعاهم جميعاً إلى دخول مجلسه والخروج منه عدّة مرّات وتفرّس فى أمرهم ، ثمّ استدعى واحداً منهم وحصر فيه التهمة وما أخطأ ، لأنّه رآه آخر الداخلين إذا دخلوا . وأوّل الخارجين عند ما يخرجون . وللمتحسّسين للآثار دراية دقيقة فى هذا الباب

كذلك تُعْرِب نَبَرَات الصوت عن كثير من الأغراض كالحماسة والفخر والخضوع والاستعطاف والخوف. وللأمّهات الذكيّات معرفة بأحوال الطفل يستطلعنها من صوته عند بكائه ، فإنّه يعرب أحياناً عن امتعاض من ألم أصابه ، وأحياناً يرشد إلى أنّه جوعان أو عطشان . ولقد أجاد المتنبّى إذ يقول : —

إذا اشتبهت دموع فى خدود　　تبيّن من بكى ممّن تباكى

---

(١) هو ممن خدموا محمداً علياً باشا والى مصر وافتدوه بالأرواح . وهو الذى دبر القضاء على المماليك فى ساعة واحدة .

تخلّف الحركات الجسمية عن دلائل الوجدان

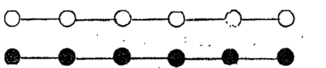
هذه الأعراض البدنيّة النفسيّة متلازمة غالباً . وقد تتخلّف عند كبار المفكّرين الذين يضبطون حركاتهم ، ويخضعونها للإرادة . فتراهم يضحكون فى معرض البكاء متغافلين عن دعوة الوجدان ، وكذلك تتخلّف عند البُله الذين يجهلون حقائق الأمور

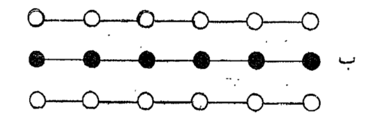
رَوَى التاريخ أنّ أبا مسلم الخراسانىّ — وهو الرجل الفذّ الذى أمات الدولة الأمويّة وأحيا الدولة العباسيّة — كان لا يلعب بقلبه السرور ، ولا يستفزّه الغضب ، يأتيه نبأ الفتح العظيم فلا يظهر على محيّاه أثر السرور ، وتنزل به الفوادح فلا يرى كئيبا . كذلك كارلايل وَصَفَ بِيرَنْز الشاعر بأنّ المصائب كانت تُصَبُّ عليه مدرارا . فينثرها عنه كما ينثر الجواد الماء عن شَعَره . ولا أنكر عليك أنّ التصنّع من هذا القبيل مخالف للطبيعة البشريّة ، ومهما خضع الإنسان لتصرّفات الإرادة فإنّ الحقيقة التى اختفت فى الصدور توشك أن تظهر دلائلها وإلى هـذا يشير الحديث : « من أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها » ، حتّى إنّ المجرمين يقترفون الآثام بعيدين عن أعين الرقباء ، وأنفسهم وحدها هى التى تفضح ما كتموه

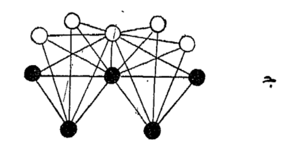
وبعيد عن الكاتب البليغ ، والشاعر المطبوع ، والمصوّر الدقيق ، أن يصيبوا كبد الحقيقة فى التأثير النفسىّ ، ما لم يدرسوا العواطف والحركات البدنيّة الملازمة لها ، والمؤثّرات التى من شأنها تحريك الهمم الفاترة ، والعزائم الخامدة .

إذا عرفت هذا سهل عليك معرفة التلازم بين الحركات الفكريّة

والجسميّة، وقد صُوّر هذا التلازم بأمور : فإمّا أنّه سلسلة من الحركات الفكريّة التى تضمّ حركات الإدراك والوجدان والإرادة والحكم والإنفاذ ، ويقابلها سلسلة أخرى حسيّة تنجم من تأثير المنظورات فى الحدقة والشبكيّة ثمّ فى أعصاب البصر والخلايا المخّيّة فالغلاف الأسمر الحسّاس ، ثمّ يتدلّى إلى أعصاب الحركة فالعضلات فالأعضاء المنفذة كما فى ا من هذا الشكل ؛ وإمّا أنّه سلسلة من الأمور الحسّيّة يتلوها من الجانبين نظام روحانىّ ، كأنّ الحسّ بحر ذو شاطئين من القوى







○ الخلايا الروحية
● الخلايا المخّيّة

الروحانيّـة كما فى ب ؛ وإمّا أنّ العاملين : الحسّىّ والروحانىّ يعملان معاً فى آن واحد ولا فاصل بينهما ، غـير أنّ التأثير ذو وجهين حسّىّ ويؤثّر فى الجسم ، وروحانىّ ويؤثّر فى العقل كما فى ج

مذهب هربارت فى القوى الذهنية

اتّبعت فيما سبق شرحه مذهب السلف فى أنّ الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والفكر كلّها مَلَكات . وأذكر هنا ـ تكميلا للفائدة ـ ما ذهب إليـه هربارت ؛ فإنّه اعتقد أنّها إذا كانت مَلَكات أمكن كلاًّ منهـا أن يقوم بنفسه ، ولكنّنا حين نعالج الحفظ مثلاً نسعى لتقويم الملاحظة والإحساس والخيال والفكر ، وحين نريد تقويم الخيال نتطلّع إلى تقويم القوى الأخرى ، لذلك اختار أن يسمّيها صفات ليستفاد منها معـنى المشاركة . ووراء ذلك اعتقد أنّ المخّ يحتوى على قوّتين فحسبُ : قوّة التأثّر بالمحسّات ، وقوّة دموج المدركات .

فقوّة التأثّر بالمحسّات تتولّد منهـا المعانى والأفكار على نظام طبيعىّ . فإذا ائتلف جديدها وقديمها ارتبطا معاً ورسخا فى الذهن ، وإذا تنافرا عارض أحدهما الآخر . وأفضى ذلك إلى بقاء الأنسب .

وقوّة دموج المدركات مثلها كمثل قوّة هضم الأغذية، فكما أنّ الطعام بهذه القوّة يستحيل إلى دم ، كذلك المعانى بتلك القوّة تتآخى وتتآزر ، ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معاً فى مادّة معنويّة ، يُسمّيها الذهن ويمتصّها المخّ كما تمتصّ الإسفنجة الماء ، وتتوقّف عليها

الحياة العقليّة ، وبها تتفاوت مقادير الأشخاص . والذهن حينئذ بمعونة الحواسّ يدرك العالَم الخارجيّ ، ويستعين بسابق خبرته على تمحيص الأمور . إنّ منظر البلد من بعيد يراه الشاعر والنباتيّ والمصوّر ، ولكنّ مدركاتهم عنه تتفاوت بحسب ما ركز في ذهنهم . والشمس في طور الكسوف لا تترك في ذهن الطفل ما تتركه في ذهن العالِم ، الذي يصوّب إليها نظره ويتريّث حتّى يستذكر ما قرأه عنها ، فيعرف أنّ القمر حال بينها وبين الأرض في أثناء دورانه فحجب ظلّه ضوءها عنّا ، وهي في ذاتها لم تتغيّر ، وهي وحركات الكواكب خاضعة لقوانين يعرفها الفلكيّون ويعيّنون منازلها بالحساب الدقيق ، ويبني المنجّمون عليها أحكام السعود والنحوس . نعم لا يقف ذهنه عند هذا الحدّ فقط ، بل يتجاوزه ، فيذكر عقيدة القدماء بأنّها كانت معبودا ، وأنّها لفرط سموّها ، وعلوّ قدرها ، كانت الشياطين تحاول أن تغتصب نورها فتتوارى عنهم ، كما كانت تتوارى إذا انفرط فيما بينهم عقد المودّة والولاء ، معلنة عليهم غضبها بالكسوف . حدّث التاريخ أنّ الميديّين والليديّين اختصما ، ودبّت بينهما عقارب الخلاف ، فامتشقا الحسام ، وما كادت لظى الحرب تستعر بينهما حتّى أظلم الجوّ نهارا ، ولبست الشمس ثوب الكسوف حداداً على ما فعلاه فاعتقدا أنّ إلههما غضبان من هذه الفتنة ، فأغمدا السيوف ، ونشرا لواء السلم .

هذه الأفكار المتناسقة التي جادت بها قريحة المفكّر عند ما أبصر ناظره الشمس في طور الكسوف ، ارتبطت لحمتها بسداها ،

وكوّنت أمرًا كليًّا لبحث الشمس وجولان العقول البشريَّة فى أمرها من أعصر السذاجة إلى زمن العلم والمدنيَّة .

تداعى[1] المعانى

عرفت كيف تلتئم المعانى إذا تآزرت ، وكيف يدعو بعضها بعضًا لمناسبات تعرض بين الناس عندما يتجاذبون أطراف الحديث ، حتّى إذا انتهى وبحثت عن الصلة التى بين آخر الحديث وأوّله أخذ منك العجب مأخذه .

جلست مع طائفة من أهل الأدب ، وكان الحاكى حينئذ يرتل آيات الذكر الحكيم . فعجبنا من براعة صنعه ، وحسن إيقاعه ، ومتانة نبراته . ثمّ فتح أحد الجالسين أبواب الاستطراد ، فسأل عن اللهجة التى كان السالفون يقرءون بحسبها . فإذا كانت صلتنا بهم فى هذه الحال قد انقطعت فيجب علينا أن ننتهز الفرصة ، فندَّخر فى أسس الأبنية الأثريَّة أسطوانات الأصوات والأغانى العصريَّة ، لنقف الأجيال القادمة على الرقىّ الذى وصلنا إليه . واستطرد آخر بأنّ أغانى هذا الجيل هى من مبتدعات المجيدين الذين برعوا فى الخيال ، فألّفوا بين الإيقاع المصرىّ والتركىّ ، واختاروا من مزيجهما نغمات تسترقّ النفوس . وقال آخر قد وصلت إلينا أدبيّات العرب فى الجاهليَّة والإسلام ولم تصل إلينا لهجتهم فى الإنشاد ، ولا علمنا كيف كانوا يترنّمون بالشعر وبالنثر . وهل كان إبرهيم بن المهدىّ العباسىّ يُوقعُ

(١) مأخوذ من تداعى الناس على فلان اذا تألبوا عليه واجتمعوا

الألحان على النهج الذى نطرقه الآن ؟ وهل كان المغنون إذ ذاك يرجّعون الالفاظ ، ويكثرون دورانها على النغمات على عادة مغنّى هذا العصر ؟ وتكلّم آخر فى علاقة اللغة العامّية بالأغانى إلى آخر ما ذكروا ، ولم يكن يدور بخلد واحد منّا أنّ مبدأ الحديث يصل بالجالسين إلى هذه الغاية . وهذا سرٌّ من أسرار تداعى المعانى .

رأيتَ من هذا البيان أن روح الحديث كانت دائرة حول موضوعات أدبيّة لعلاقتها بالجلساء وهم من أهل الأدب ؛ ولو جالستَ أناساً من أهل الترف والنعيم لرأيت حديثهم فى المطاعم والملابس وركوب الجياد ؛ ولو أخذت مجلسك بين التجّار لرأيت حديثهم مقصوراً غالباً على البيع والشراء والسلع الرائجة والكاسدة وهكذا ، فالاستطراد لا يكون عامًّا بل جارياً على وَفق الميول والأغراض التى تهمُّ الجالسين ، حسّيّة كانت أو معنويّة ، وهى على العموم تتّبع قانون المناسبات ، إذ يشعر الإنسان وهو جالس فى حفلة زينة أنّ ذوقه وأميالَ الحاضرين يمنعانه أن يستطرد بذكر حفلة مَنَاحة . وللأغراض المتنوّعة دوائر فى الذهن مكتظّة بالمعانى المتشاكلة ، إذا عرضت طائفة منها أيقظت أشباهها وألصقَ الأمور بها من الدوائر الأخر . وقد ترد الألفاظ المحتملة للمعانى ، فيؤوّلها السامعون بما يلائم هواهم على نهج أسلوب الحكيم .

قالوا : إنّ القَبَعْثَرى كان جالساً مع أصحابه فى بستان تحت كَرْم ، ثمّ جرى ذكر الحجّاج ، فقال القبعثرى : « اللهم سوّد وجهه ، واقطع عنقه ، واسقنى من دمه » ولمّا بلغ الحجّاجَ ذلك استدعاه إليه وسأله

عنه ، فقال: « إنَّما أردت العنب » . فقال الحجّاج يتوعّده : « لأحملنّك على الأدهم » (القيد) فقال القبعثرى : « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » (الحصان) . قال الحجّاج : « أردت الحديد » (المعدن) فقال القبعثرى : « لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً » .

الميول ومراقبتها

الميول مظاهر الشوق الطبيعىّ تتجلّى فى الطفل إذا ترنّح فى اللعب ، وأطلق العنان لحركاته الإرادية . وقد أنصف روسّو إذ كان يقف من وراء حجاب ويراقب الأطفال من كَثَب فى أوقات لهوهم ، فيرى لهم حركات غريبة يفعلونها ، ويَفْتَنُّونَ فيها ، وترتاح نفوسهم إليها ولو أخذ منهم الجهد مأخذه . تفقَّد ميولهم نحو المذوقات والمرئيّات والمسموعات والملموسات ، وتفقّدها فى الآراء والعقائد تجد لكلّ منهم شأناً خاصّاً يهواه ويتعصَّب له ، ويقيم الدليل على رجحانه ، ولو اجتمع الثقلان على أن يحوّلاه عنه بدون إرادته ما نجحوا . نرى بين ظهرانينا أناساً فى طبعهم حذق لصناعة يغفل عنها المعلّمون . ويحوّلونهم على الرغم من إرادتهم إلى غيرها فينهزمون . وقد تلجئ الضرورة شخصاً إلى الكسب من مرتزق لا مجال فيه لمواهبه فيعمله كالمسخّر ، ويعيش به كئيباً ، ولا يظهر عنده إقدام على إتقانه ، فيتبادر إلى ذهن المشرفين عليه أنّه ضعيف الذهن كليل القوّة . وكم تمرُّ بأمثاله الأيّام والليالى فى مدارج الحياة ، فإذا هذا الضعيف شاعر أديب ، أو كاتب

قدير ، أو مؤلّف متقن ، أو مصوّر ماهر ، أو عالم نحرير ، أو خطيب مِصقع . وقد ورد فى الأثر « اعْمَلوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ »

عرفت بين الطلبة زمن الدراسة الأولى مَن كان ينظم القصيدة التى تموج ألفاظها بالمعانى فى ليلة واحدة ، ولو كلّف حلّ مسألة رياضيّة لفترت همّته ، فكان يخيّل إلى المعلّم أنّه عاجز الفكر ، والأيّام وحدها أسفرت له عن شهرة تامّة فى عالم الأدب . ومنهم من كان ذهنه يخترق حجب الأحاجىّ الرياضيّة ، وكلّما صعبت مراميها ووسائل الوصول إلى حلّها ، زادها إمعانًا وسعيًا لكشف غامضها ، وكانت مع ذلك قريحته تخمد دون كتابة النثر وقرض الشعر ، فيصفه المعلّم بأنّه كليل الذهن ، مع أنّه ممتاز فى بابه

صحبت من الأمّيّين رجلاً وحقق لى الاختيار أنّه حادّ الذهن حصيف العقل ، إذا نطق استهوى عقول سامعيه بما يبتدعه من المعانى وما يزخرف من العبارات . هذا الرجل قد شغلته المحن ، وضايقته أسباب المعيشة ، ولو صادفته عناية المربّين لأنجبت أديبًا قديرا . وَخَبَرْتُ آخر حرمته يد الإهمال ثمرة التعليم الصحيح ، وكان لفرط ذكائه إذا عرضت أمور تستدعى دقّة الحساب زاولها بفكره وكان جوابه قرين الصواب ، وما يدرينا أن يكون هذا الشخص رياضيًّا منقطع النظير ، لو وفّق إلى مرشد بصير .

هكذا اقتضت إرادة الله تعالى أن يوزّع النبوغ بين الناس لتتأكد الروابط الوديّة بينهم ، وهذا سرٌّ من أسرار العمران . والنبوغ

كالنار الكامنة فى الحجر تخرج منه عند قدح الحديدة له ، وإذا لم يكن فى الحجر نار لا تفيده الحديدة شيئا

ليس من ينكر فضل الحريرىّ صاحب المقامات المشهورة . فإنّ صيته ذاع حتّى دعى إلى رياسة ديوان الإنشاء فى بغداد . فلمّا حضر إليه كلّف أن يكتب فى موضوع محدود فلم يجر لسانه ولا بنانه فى قصيرة ولا طويلة . ذلك لأنّ ذهنه مطبوع على نوع روائىّ مسجّع ، لا يشقّ له فيه غبار ، فليس بعجيب أن يفشل فى كتابة مالم يمرّن فيه نفسه من قبل ، وليس لديه نبوغ فيه . وكذلك الأديب المبرّد وهو إمام فى حلّ مشكلات اللغة العربيّة ، وله قدرة منقطعة النظير على فهم القرآن والأحاديث النبويّة ، كان يخطر له الخاطر فتعييه الكتابة فيه . وقد اعترف أنّه عرضت له حاجة إلى بعض إخوانه وأراد أن يكتب إليه فأحجم . ذلك أنه رتّب المعنى فى نفسه ، ثمّ حاول صوغه بألفاظ تليق به فلم يستطع . فما أشبهه بحجر المسنّ يشحذ ولا يقطع !

هذا وقارئ التاريخ يستطيع أن يستشهد بكثير من أمثال هؤلاء الذين منحتهم الفطرة مواهب بديعة فى غضارة الشباب ، ونضارة الإهاب ، فحفظتها لهم وديعة ، وسترتها عن العبث بها ، حتّى سنحت الفرص فزكت وظهرت بشائرها . روى أنّ عبد الله بن الزبير وهو صبىّ كان يلعب مع إخوانه ، فمرّ بهم رجل ففزعوا منه ، أمّا عبد الله فتقهقر واستنهض عزيمتهم بقوله : يا صبيان اجعلونى أميركم وشدّوا بنا عليه ففعلوا . كذلك مرّ به عمر بن الخطّاب وهو يلعب مع الصبيان

ففرّوا منه ، أمّا هو فوقف غير هيّاب ولا وجل ، فسأله عمر عن عدم فراره معهم ، فأجاب « إنّى لم أجرم فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيّقاً فأوسّع لك » . هـذه الشجاعة بدت من عبد الله وهو صغير ، فنمت فيـه وهو كبير . وكان من أمره أن استقلّ بحكم المدينة ، وقامت بينه وبـين الحجّاج حروب دمويّة انتهت بقتله . وروى عن سير هرشل (Herschel) أنّ أباه علّمه الموسيقى فى إبّان صباه فعاش بها ، ولـكنّ ميول الشابّ نهضت به فصار فلـكيًّا كشف « أورانوس » من بـين الـكواكب السيّارة ، واستدلّ على وجود كَلَف الشمس .

كذلك حدّثنا التاريخ عن لينوس (Lennaeus) أنّ أباه زَجّ به إلى المدرسـة ليتعلّم اللاتينيّة ، ثمّ إلى مصنع ليكون إسكافا ، فلم يكن إلّا كعامّـة الناس ، ولحسن الحظّ لقى مَنْ تفرّس فى طبعه ميلاً لعلمى النبات والأعضاء فسدّده إليهما ، فبرقت فيه بروق النبوغ ، وأصبح فخرًا لأمّته وللعالم . ولنا من سيرة نابليون بونابرت شاهد وعبرة ، فإنه برع فى الرياضيّات فى غضون حياته الدراسـيّة ، ولضعفه فى الأدب وفى اللاتينيّة التى كانت شـعار العـلم فى ذلك العصر ، وسمه المعلّمون بالضعف وحكموا على عقله بالجمود . فكم بعـدت أحكامهم عن محجّـة الصواب . وكم شغلتهم شئونهم عن مراقبة مميّزاته الـكامنة فيـه . وكم نطقت فِعاله التى كان يزاولها وقت فراغه بما ركز فى فطرته من الميول . قال المؤرّخون : إنّ عاصفة باردة ثارت فى الجوّ جمّدت ماء المطر فنزل ثلجاً غطّى وجه البسيطة وسدّ المنافذ ، فاستعان وهو صبىّ برفقائه على

أن يحفر الخنادق ويقيم الحصون ، ثمّ قسّمهم طائفتين على تخاصم ، وأقام نفسه قائداً لحركة الهجوم ، واستمرّ النضال والجلاد خمسة عشر يوماً حتّى ذاب الثلج ، فاندكّت الحصون وصارت قاعاً صفصفا ، فرجع هو ورفقاؤه إلى المدرسة ، طاوين فى صدورهم تلك النزعة الحربيّة حتّى جاء أوانها ، فنضجت ثمارها ، وفتحت لها الأيّام صدرًا رحيبا .

الشغل وقت الفراغ فى عمل دليل الرغبة فيه

واعلم أنّ الطفل وقت فراغه تستولى عليه ميوله وتقود زمام حركاته ، إلى إنفاذ رغباته ، حتّى إنّه ليذهب إلى الشارع ، ويشارك أبناء السبيل فى شئون اللعب ، مخالفاً نصائح أبويه ، وربّما لبّى أمرهما قسرا ، ثمّ يشاغلهما ويعود إلى نزعته كالخيزُران . ونرى التلميذ يدخل بمحض إرادة أبيه قسمَ العلوم من المدارس الثانويّة فيُخفِق ، لأنّ أباه تصرّف فى هواه جهلا منه وانصرافاً عن المصلحة ، ثمّ يرجع التلميذ فيتخيّر لنفسه قسم الآداب فينجح. هذه الميول — وكلّ امرئ يضرب فيها بسهم — مثَلُها كالمِعْطف يتعهّده الصانع بترتيب وتنسيق يلائم الجسم ، وإذا لبسه شخص آخر لا يوافقه .

المشوّقات

وقد نجح مهرة المعلّمين فى اتّخاذ المشوّقات سبيلاً يستحثّون بها الميول الجامحة ، فيحبّبون القراءة إلى الطفل بما يعرضون عليه من الكتب ذات التصاوير المزخرفة الجذّابة ، فيهيم حبًّا بالقراءة . ويحبّبون إليه قراءة سيَر الرحّالين ، وأوصافِ ما جمعوه من علم نافع ، وأدب ناضج ، وثروة طائلة ، ومستكشفات رائعة . فكم قرأ ليفنجستون (Livingston) أسفار الأسفار فى إبّان صباه ، وهو عامل فى مصنع

نسيج ، ولفرط حبّه لها ملأ بقراءتها أوقات الفراغ ، وكثيرًا من أوقات العمل ، حتّى أصبح رحّالة طائر الصيت ، ارتاد شقّة واسعة النطاق من غربيّ إفريقية .

دَرَجْتُ على كراهة الاغتراب وأنا ناشئ ، ولم أكن أعرف لذلك سببًا إلّا احترام العادة التى عوّدنيها والدى . ولمّا قرأت قصص السندباد فى أسفاره الطريفة تقت إلى السفر ، وأوّل سفرة شرعت فيها وحقّقتها نزوحى إلى السودان وطول إقامتى به . فكأنّ الله كتب علىّ الغربة عن الوطن بعد ذلك ، فإنى ما أتممت فيه مدّتى حتّى يمّمت الأقطار الشماليّة ، ولبثت فى إنجلترا زمنًا آخر يقرب من الزمن الأوّل . ومن فرط تأثير كتاب « ألف ليلة » فى قرّائه ، توهّم الناس أنّ قراءته شؤم على من يحبُّ الإقامة فى عُقْر داره .

العوامل المؤثرة فى الأخلاق

١) الوراثة : العامل القهرىّ

٢) البيئة : العامل الاختيارىّ

٣) التربية : العامل الكسبىّ

١) الوراثة

لا ينكر أحد أنّ الوراثة عامل كبير لحفظ النوع ، غير أنّ من لم يعتدّ بها اعتبر أنّها ليست خاضعة لقانون ثابت . فقد يرث الابن من

أبيه شبَه عضو من أعضائه الظاهرة كسَحَنَة الوجه أو أجزائه ، وقد يرث شبَه عضو من أعضائه الباطنيَّة كجهاز الهضم أو التنفّس أو العضلات أو المجموع العصبيّ . والمشايعون للوراثة يستشهدون من التاريخ لوراثة الحرف كالمصارعة والغناء ، ولوراثة الشيم كالشجاعة والأنفة وقوّة الارادة ، وبيّنوا بالإحصاء أنّ الوراثة تكون فى الجنون وطول العمر وحبّ الانتحار والانقباض الغالب على النفس . وفى عالم الحيوان تجد حِدَّة حاسَّة الشمّ وراثيَّة عند الكلاب ، حتّى إنّ بعض أنواعها يرث من أصله قوّة اقِتَنَصٍ معيّن ، وإنّ هنود شمالىّ أمريكا يتأثّرون أعداءهم بمجرَّد الشمّ ، ويورّثون أبناءهم هذه الخاصّة . فإذا صحّت مشاهداتهم ، وتمسّكنا بعدم الوراثة فى الأمور الكسبيَّة فإنّنا نَعُدّ هذه المميّزات من الغرائز ، وما يورث فيها إنّما هو الاستعداد لأداء تلك الخاصّة على شريطة أمرين : سلامة الأعضاء الكفيلة بأداء هذه المميّزات ، والتمرين المبنىّ على المحاكاة ، أمَّا إذا ضعفت الصحَّة ، أو كانت الأعضاء بمعزل عن التمرين الصحيح ، فإنّ زاوية الخلف بين الفرع وأصله تنفرج .

وصفوة القول أنَّ الحىَّ تؤثّر فيه الفواعل الخارجيَّة ، فإذا تكرّر تأثيرها فيه وفى نسله تكراراً لم تَشُبْهُ عوارض ، فإنَّ الوراثة تجرى فى النوع كما تجرى العادة فى الفرد ، وينتقل منها فى الفرع شىء وراثىّ ولو قليلا . هذا الرأى يقرّبنا كثيرًا من مذهب أرسطو أنّ للإنسان روحين : حيوانيَّة وتخضع لقوانين الوراثة ، ومَلَكيَّة ويهيّئها

الاستعداد للاستفادة من التمرين .

وإذا كان تطرّق عامل الشرّ إلى الطفل بحكم الوراثة قهريًّا ، وورث من أبويه أعضاء مريضة ، فهل يستطيع المعلّم أن يقوّم اعوجاجه ؟ وإذا سيق رغم إرادته إلى الإجرام أفيُترَك وشأنه أم يجب بذل الوسع في إصلاح نقصه بالطرق الصناعيّة التي جنى الفلاسفة ثمارها ؟ وقد قلّت الجرائم في الممالك التي شيّدت مدارس الأحداث يَشْغَلُونهم بتعلّم الحِرَف عن العيث بالفساد .

٢) البيئة

الوطن الأوّل للطفل هو بطن أمّه ، وحينئذ لاتكون له حياة مستقلّة بل تابعة للجسم الذى استقرّ فيه . فإذا عُنِيَت الأمّ بصحّتها نما واستكمل خلقه ، وخرج إلى منفسح الوجود كامل الاستعداد ؛ وإلّا فقد أساءت إلى نفسها وإليه وربّما أجهضت . ومن ضروب الإهمال في مراعاة صحّته حينئذ حملها العبء الثقيل ، أو تعاطيها الغذاء الغليظ ، أو حشوها المعدة فتضغط جسمه وتشوّه أعضاءه . وكذلك ذواتُ الأمراض العصبيّة وحادّاتُ المزاج وذواتُ الوساوس يلدن شواذّ الخلقة غالبًا . حُكِيَ أنّ صاعقة سقطت على قرية فشاهدتها حامل عصبيّة . فسقطت مغشيًّا عليها ، وانقبضت أحشاؤها فأصاب الضغط دماغ الجنين فأفسد مركز عقله . والحكيم توماس هوب [1]

(١) من علماء الانجليز فى القرن السابع عشر

نسب ما فيه من خلق الجبن إلى ما لقيته أُمُّه من الأهوال وهو جنين في بطنها . فإنَّ العمارة الإسبانيَّة (أرمادا) كانت حينئذ تطوف حول سواحل انجلترا وتهدّدها .

وبعد ولادته يكون وديعة بين يدى مربّيته ، تتصرّف فيه بما أُوتيت من رحمة وشفقة ، أو قسوة وجبروت . تُهْمله من الرعاية فيتساقط الذباب على عينيه ويؤذيهما ، ويهبط على شفتيه فيسقيه سمًّا زُعافا ، وأكثر الأمّهات يجهلن مايلائم نموّه ، وما أشدَّ إيذاء الصديق الجاهل ! يسيء من حيث يريد الإحسان . تراهن يلاطفنه رَبْتاً [1] على ظهره ، أو نكشاً لشعر رأسه بالإصبع في موضع واحد ، لإزالة ما عسى أن يكون به من الهوامّ ، فيناله الأذى وهنّ لا يشعرن . وقد يقيّدن استقلاله بالتقميط ، أو يمنعنه من مشاهد الطبيعة الرائعة ، أو يقلّلن عرض الأشياء السارّة عليه فيقضين عليه قضاء لارجاء معه .

البيئة الطبيعية

للإقليم والمناخ تأثير ظاهر في الأجسام والأخلاق ، فسا كنو الأودية ليسوا كسكّان الجبال في صفاء الخلقة ، ورصانة العقل ، ومتانة الجسم . وسكّان الأقاليم المعتدلة ألطف خلقا ، وأبهى جمالا ، وأوفر حصافة ، وأكثر حبًّا للصناعة ، وأشدُّ إكباباً على العلوم ، وهم في الحقيقة

---

(١) ضرب اليد على جنب الصبي قليلا لينام .

أهل الحضارة والإمارة والذوق الحسن والاختراع المفيد . ذلّلوا العالم الأرضيّ والمائيّ والهوائيّ ، ولهم كلّ يوم فتوح علميَّة رشيدة ، وبدائع فنّيَّة جديدة . وسكّان السواحل أذكياء لتمتّعهم بمناظر البحار ، ولاعتمادهم على لحوم البحر غالباً وفيها الفسفور الذى يساعد على الذكاء. وهم فوق ذلك أهل جدّ يجيدون السباحة ، ويتجشّمون الأسفار البحريَّة ، ويتنسّمون رياحها المنعشة . والعرب مطبوعون على الشعر لاستقلال أفكارهم ، وقناعتهم بشظف العيش . وغزارة ملكة الخيال فيهم ، وامتداد أعينهم فى ساحة مترامية الأطراف ، تحت سماء صافية الأديم ساطعة الكواكب . كلّ هذا أوحى إليهم من بدائع الخيال ما أوحى . والبدو مشهورون بالكرم وبالاستقلال وبالشجاعة ؛ مشهورون بالكرم لأنَّ قفر بلادهم حبّب إليهم المهاجرة فساروا فى البوادى المجرَّدة من الأسواق ، وربّما نَفِدَ من أحدهم الزاد والماء فيجد من الصدور الرحبة ما يُقِرُّ عينه ، ويخفّف عنه وَعثاء السفر ؛ مشهورون بالاستقلال لما تمرّنوا عليه من القناعة والخشونة ، ينصبون خيامهم حيث ينبت الكلأ يسيمون فيه دوابّهم ، وإذا زحمهم زاحمٌ هجروه واستعاضوا عنه أرضاً أخرى بدون عناء ؛ مشهورون بالشجاعة لأنَّ كلّ فرد يمرّن يديه على استعمال السلاح دفاعاً عن نفسه من مهاجمة وحش أو عدوان عاد .

أمَّا المناطق غير المعتدلة فحيوانها شرس ضارٍ فتّاك . تجد فى أدغال إفريقيَّة الفيل النفور والأسد الضارى والتمساح المفترس والحيَّة

السامّة والذباب المؤذى ، وتجد أمثال هذه الحيوانات فى آسيا الصغرى هادئة ، حتّى إنّ بعض الدِببَة تحاكى الغنم فى طاعتها للإنسان واستئناسها . ولا تكاد تجد بها هوامّ سامّة .

وقد أصاب ابن خلدون فنسب للسودانيّين الطيشَ وكثرةَ الطرب والولوع بالرقص عند إيقاع الألحان ، وعلّل هذا بأنّ طبيعة الفرح انبساط الروح الحيوانىّ ، فالحرارة تَهيج فيهم هذا الخلق ، كما تَهيج المغتسلين فى الحمّامات . فإذا تنفّسوا فى هوائها الساخن امتزجت حرارته بنفوسهم ، فاهتزّوا طربًا ومالوا إلى الغناء .

والمكان الخصيب تتوافر فيه الخيرات ، فينغمس أهله فى النعيم والترف ، وينشئون منكسفى الألوان بلداء . انظر إلى أنواع الحيوان المتشاكلة ، فإنّ ما يسكن منه القفر ومواطن الجدب كالغزلان والنعام والمها والزرافىّ وحُمر الوحش أجمل ممّا يسكن الأرياف والمراعى الخصيبة فى صفاء الخلقة ، وتناسب الأعضاء ؛ فالغزال أخو المعز ، والزرافة شبيهة بالبعير وهكذا .

البيئة الاجتماعية

يحتاج الإنسان إلى الرفيق للاشتراك معه فى مهامّ الحياة المتنوّعة ، فوجب عليه أن يقاسمه حبّه ، ويحافظ على ولائه . وقد علمت من الفصل السابق أنّ الإقليم يؤثّر فى طباع سكّانه . وأحيانًا

تطرأ الحوادث الجسام على هؤلاء السكّان ، فتتغيّر أخلاقهم ويؤثّرون في طبيعة الإقليم . فالعرب كانوا رعاة أغنام ، راضين من الحياة بعيشة الكفاف ، خاضعين لأحكام الإقليم عليهم ، فلمّا ظهر الوحي واتّبعوا نوره ، انقلبت طبيعتهم فهجروا عيشة الكفاف ، واندفعوا في الممالك كالسيل الجارف ، ونصبوا أنفسهم فيها ملوكا . بَيد أنّهم لمّا تحضّروا وعاشوا عيشة الترف ضعفت شكيمتهم ، وصاروا بعد العزّة والمنعة أذِلّة خامدين . حَكى التاريخ أنّ امرأ القيس شبّ في قومه مترفا ، عاكفاً على اللهو والخلاعة والفسق والسكر والعربدة والجلوس في مجالس أهل الريبة والنقيصة ، ولمّا وصل إليه نبأ قتل أبيه وهو على تلك الحال صُدِع ، فانقلب كيانه ، ونطق لسانه ، بهذا القول المأثور ، والشعر المنثور : «لاصحو اليوم ولاسكر غدا ، اليوم خمر ، وغداً أمر» ، وطوى صحيفة اللهو ، وانطلق في الفلوات طالباً الأخذ بالثأر على عادة كبار النفوس من العرب . وقرأنا من أخبار الثورة الفرنسيّة الكبرى أنّ كثيراً من العصاة كانوا هادئي الأخلاق في زمن السلم ، فلما ثارت عاصفة الثورة انقلبوا كالوحوش الضارية ، وكان لبونابرت منهم أعوان مخلصون .

العقل كالجسم تؤثّر فيه بيئة المعاني ويؤثّر فيها . تبهَره المحاسن فيتلقّاها بالقبول ، ثمّ يصوغها من جديد صوغاً يلائم مزاجه ، لا فرق بين أن تكون هذه المحاسن من المنظورات أو المسموعات . قال أبو تمّام :

وأحسن من نَوْر يفتّحه الصبا ... بياض العطايا فى سواد المطالب

قيل إنّه نظم صدر هذا البيت ثمّ أعياه القول فلم يستطع إتمامه، ثمّ سمع سائلاً يستجدى بقوله : من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا فاستجاد قوله، واستعاره منه ، وكمّل هذا البيت . ترانى أجلس فى حديقة تشدو بلابلها وتسجع أطيارها على أفنان الأشجار، والماء يمرّ بها فيسقيها، والنسيم يحرّك ساكنها فيشجيها، وأرى السحب فأناجيها بما ناجى به الشاعر الأندلسىّ :

كلّلى ياسحب تيجان الربا بالحُلِى ... واجعلى سوارها منعطف الجدول

فإنّ جلال هذه المشاهد يهزّ وجدانى، ويملك ناظرى، ويشحذ تأمّلى، ويوحى إلى الحافظة فتدّخر منه ماتريد، ويصوغ منه الخيال ما يشاء ، وما ظنّك بخيال حققته براعة الصنّاع فأنطقوا الحديد ، وأطاروا المعاقل ، وسيّروا الأعلام فى البحار.

وقد علمت أنّ الخبرة الذاتيّة خير مصادر العلم الصحيح . ومن ذا الذى يستطيع أن يستوعب الأمور كلّها ؟ والعمر مهما طال قصير. وربّما لا يهتدى الإنسان إلى معرفة الحقائق التجريبيّة إلا وهو فى آخر مرحلة من العمر ، ويموت قبل أن يستفيد ممّا قضى عمره فى الحصول عليه ، يموت ويترك المجال لشخص آخر يعيد الكرّة لينتهى إلى مثل هذه النهاية ، مع أنّ الحقائق ينبغى أن تكون من مجهود الجماعات كلّ منهم يسدى إلى الآخر نتيجة عمله ليزيد عليها .

لذلك كان من متمّمات الإنسان أن يستعين آراء غيره ، ويتبادل

مع المفكّرين نقد المسائل ، ويقرأ سِيَرَ النوابغ ، مستعيرًا منها العبر والنصائح ، والكتب خزائن العلوم ، جمعها المؤلفون بعد عناء وجهاد . فما أوفر السعادة لمن عكف على قراءتها ، وفَهِمَ أغراضها ، مستغنيًا بها عن هذا العالم المكتظّ بالأحقاد والنفاق .

تقضى ضرورة الاجتماع على الإنسان أن يدرس طباع معاشريه محتكًّا بهم ، فإنّ جهله بأخلاقهم يجرُّه إلى أن يغترّ بأحاديث أهل الخديعة فيحاسنهم حث ينبغى أن يخاشنهم « وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ » ، أو إلى أن يخشاهم فينقلب علمه جهلا . وتقضى ضرورة الاجتماع على المدنىّ ألّا يكون عقله مجرّد وعاء ترسب فى قراره المعانى ، بل منبريًا للاستفادة من علمه وتجاربه فى المصلحتين : الخاصّة والعامّة ، سالكًا السبيل التى تهيّئه لأن يكون عضوًا عاملا .

وقد تحقّق الناس صدق الاجتماع فتعاونوا على ترقية وسائله ، وأسّسوا الأندية للمباحث العلميّة والاجتماعيّة ، فإذا قويت بينهم روابط الودّ ذلّلوا الصعاب ، وقدحوا زناد المبتدعات النافعة

السعى لاختيار البيئة

ننظر إلى النبات فيخيّل إلينا أنّه ثابت فى مكانه ، ولو فحصت عن جذوره لعلمت أنّها تتشعّب فى الثرى ، وتسيخ فى أعماق الأرض طلبًا للغذاء .

والحيوان والإنسان مفطوران على حبّ الانتقال من بيئة إلى أخرى ، ويشعران أن الحبس يقضى على السعادة قضاء ، ولذلك جُعِل أكبر عقوبة للإجرام قال المتنبّى :

إذا صديق نكرت جانبه لم تُعْيِنى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

إنَّ حبَّ الإنسان لنفسه يدعوه إلى السعى وراء المناخ الصالح والجليس الصادق ، وإذا استوطن أرضاً يفضّل ناحيـة على ناحية ، وأناساً على أناس . ويمارس العمل وإذا وجد منه ضجراً هجره واستبدل به غيره . والمهاجرة — مع ما فيها من مفارقة الأهل والأصحاب — تهيم بها النفوس الأبيَّة حبًّا فى الثراء ، وطلباً لاجتلاء محاسن الطبيعة ، وشغفاً برؤية المتجدّدات فى عالم الصناعة ، والوقوف على أخلاق الأمم ، ودرس ما وصلوا إليـه من العلوم . « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » ؟

إصلاح البيئة إذا ساءت

نعم إنَّ النفس الرفيعة تجمح بالطبع من البيئة السيّئة ، وتودُّ لو أنَّ صاحبها يهاجر إلى حيث يطيب له المقام . وإنّها لكذلك إذا خاطر يوحى إليهـا أنَّ التذرُّع بالصـبر أفضل ، وأنَّ الجهاد لإصـلاح البيئة السيّئة واجب تستدعيه محبَّة الوطن . عند ذلك تهبُّ من منامها غيرَ هيَّابة ولا وَكِلة ، لتعالج النقائص معالجة الطبيب الحاذق ، متذرّعة

بما أوتيت من عزم ثابت ، وفكر ثاقب ، وإرادة صحيحة ؛ وكلما استعصت وسائل العلاج الناجع زادتها الرغبة إقداماً ونشاطا . والنفس التى هذا شأنها خليقة بأن تتولى قيادة التعليم والتأديب .

العلم وطن المفكرين

إنَّ العلم النافع وطن للمفكّرين أولى النفس السامية ، يتسلّى به من عاداه المناخ ، وأساء إليه الجليس ، خضعت لأحكامه أشتات الصناعات ، وأفاض من نوره شعاعاً على عقول العاملين ، فاخترعوا المدافئَ للوقاية من وطأة القرّ ، والمراوحَ لتخفيف الحرّ ؛ ورسموا — مستعينين به — مناظر بديعة رائعة ، جَذّابة خلّابة ، يتمتّع برؤيتها المقيم فى وطنه ؛ ودوّنوا الأغانى على صفحات الحاكى ، حتّى أصبح فى وسع الإنسان أن يسمع رنّات المثانى ، ومناقشة الخطباء ، وعزف الآلات وهو بين أركان منزله . وعلى الجملة يتسنَّى لمن ركز العلم الصحيح فى ذهنه أن يقلّب الأمور على وجوهها ، ويتخيّرَ أحاسنها ، ويتّخذ من جحيمها نعيماً يريح النفس ، ويجلو عنها صدأ الهموم . وبيئة العلم مع هذه المزايا لا تحتاج إلى ثراء واسع يعجز عنه المقلُّ . ومن توافر لديه المال فلاحرج عليه أن يخرج من وطنه ليتفقّد شئون الناس . ثمّ يعود إليه قوىّ الجسم موفور العقل « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً [1] كَثِيرًا وسَعَة »

(١) المذهب فى الارض

٣) التربية والتعليم

إنّ المعلّم كالغارس يتعهّد الشجرة بضمّ عود مستقيم إلى ساقها لتنمو على الاستقامة . وإنّ الطفل كالغصن الغضّ فيه استعداد للاسترشاد بتجارب المشرفين عليه . وللأمّ عليه الإشراف إلى السنتين من عمره ، ثمّ يشاركها الأب ويتضافران على إصلاح شأنه واختيار بيئته . وإذا بلغ السابعة من العمر استقبلته طلائع التكاليف عند الحكومات النظاميّة فتُجبره على التعلّم ، ولا يكاد يدرك سنّ البلوغ حتّى يتكامل عقله ، ويسمو به وجدانه فتهيم نفسه بالموجودات ، ويستعين الخلطاء فى فهم ما أشكل عليه منها ، ولا تزال خبرتاه : الذاتيّة والاجتماعيّة تزدادان ، وميوله ومطامعه تتضاعفان ، وكلّما مارس الصعاب وتقلّب على جمر الآلام ازداد صفاء ، وحقّق رجاء .

وازن بين رجلين : أحدهما بدوىٌّ قحٌّ قنوع بشظف العيش ، عقله غُفْل من زخارف الصناعة ، والثانى مدنىٌّ نشأ فى حضن الحضارة والرفاهية حتّى قدر ذوقُه على فرز ضروب المحاسن ؛ إنّ الفرق الذى يتبيّن لك بين هذين الرجلين هو أثر التربية الصحيحة التى نَنْشُدها .

وكم طالت العصور ، وانقضت الدهور ، ولم ينته البحث فى طرق التعليم ، وما وصل الناس إلى أقصى غايات العلم ، وكلّما خطوا إليه ووردوا حياضه رأوه بحراً واسع الأرجاء ، جزيل السخاء . وأنت إذا قدرت ما وصلوا إليه فى غضون ستة آلاف سنة اشتغلت فيها العقول فرادى وجماعات ،

تعلم أننا أدركنا منه غاية لم يكن أحد يتوقعها . فإنّ الفلسفة التي كانت فرائصنا ترتعد عند ذكر اسمها ، لاشتمالها على المسائل التي تحتاج من العقل إلى جهد وعناء ، أصبحت سهلة المتناول ، فاسترشد بها الصانع والتاجر ، واهتدى بها السائح والمنقّب عن ماضى الإنسان والحيوان وحاضرهما ، واستعان بها المعلّم فى استجلاء الغرائز والاعتداد بها فى إيقاظ الهمم الفاترة ، والميول الطاهرة . وقد دُوّنت ببطون الأسفار تجارب الحكماء من عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى العصر الحاضر . ولا يكاد القارئ يفرُغ من قراءتها حتّى تتجلّى له المجهودات التى سَبَرُوا بها غَوْر العقل ، والخُطوَاتُ التى تدرّجوا بها لدرس أحواله النفسيّة ، وما أطولَ الأشواط التى قطعوها فى سبيل البحث لإدراك مرامى الحقيقة ؛ ولا يزال المعلّمون يعتقدون أنّ فواعل الوراثة عقبة فى سبيل نجاحهم ؛ بَيْدَ أنّ لوك[1] وهربارت ضربا صفحاً عنها . قال الأوّل : « إنّ عقل الناشئ كالصفحة البيضاء ، ينقش عليها المعلّم ما يشاء ، والعادة والاختبار عاملان كبيران للنجاح ، ونحو ٩٠٪ من الناشئين قد شكّلتهم التربية فكانوا على حسبها محسنين أو مسيئين » . ولا أدرى لماذا لم يعتدّا بالوراثة مع أن آثارها ظاهرة لا تحتاج إلى برهان . واعتقد الثانى أنّ الأرواح عوالم مجرّدة من الاستعداد الوراثىّ ، وكلّها متشاكلة من بادئ الأمر . والطفل الذى

---

(١) Locke لوك توفى سنة ١٧٠٤ عالم انجليزى برع فى الطبيعيات والطب وجعلها أساس أبحاثه فى الفلسفة

يراد به أن يكون نابغـة أو عبقريًّا يتوقّف مصيره على المربّى . اعتقد هـذا وهو لا ينكر أنَّ هناك أفرادًا لا تنجع فيهم التربية مطلقاً مهما بلغت براعة المعلّم.

إنّنا نعوّل فى التأديب على القدرة الصالحة والانطلاق فى ميدان التمرين والتجارب التى تهيّئ الجسم والعقل للجهاد فى سبل الحياة جهاداً يتّفق هو والميول والمصلحة فى المجتمع الإنسانىّ . نقتفى أثر استعداد الطفل ونقف على حدوده لنتّخذ منه مقياساً للطريقة المثلى . ونراقب البيئة ونتتبّع مطالبها لنتّخذ منها مقياساً لما نختاره من العلوم . على أنّه لا يسوغ لنا أن نقتصر على مطالب البيئة الحاضرة ، بل ننظر إلى أفق من العلوم أعلى قدراً وأرجح وزنا ، لنبرهن على أنّنا أُمّـة ناهضة . إنّ الضابط الذى يكفل لنا اختيار مادّة الدراسة هو أن نفحص عن أهمّيّة العلوم لأنفسنا ، فلجسمنا ولعقلنا ولنظام أعمـالنا ولتثقيف وجداننـا واضبط أخلاقنا ولـكلّ مايساعدنا على نيل سعادتنا حقوق لها علاقة وثيقة بحياتنا الـكاملة ، ولا نعرف هـذه الحقوق إلّا إذا استوعبنا دراسـة العلوم الموصّلة إلى هـذه الغاية ، والتى من أجلها شرع التعليم والتأديب . يجب أن ندرس العلوم لنتّخذ منها سـلاحاً نحارب به الرذائل ، ونحافظ به على الصحّة ، ويجب أن نستنير بِنِبْراس العـلوم لنسترشـد به فى تحصيل القوت ، ولنعرف كـيف نحافظ على ولاء المعاشرين واقتباس ثمرات مجهوداتهم ، وكيف نملأ فراغ أوقاتنا بمباشرة الفنون الجميلة التى نستمدّ منها الراحة .

طريقة هربارت

اشتهرت هذه الطريقة بين المربّين بأنّها تساير الميول النفسيَّة والقواعد المنطقيَّة والمَلَكات الذهنيَّة ، فلذلك اعتدَّ بها من يتصدَّى للتعليم الصحيح . يبتدئ المعلّم فيوقظ عند الطفل الحقائق البديهيَّة لتكون للدرس بمثابة مقدَّمة له ، ثمَّ يتدرَّج إلى الحقائق الخفيَّة ، سالكاً في إيضاحها سبيل النشوء من الجزء إلى الكلّ ومن السهل إلى الصعب ، ويصل حلقات المعاني بعضها ببعض قديمها وحديثها ، فتتألّف منها سلسلة متماسكة الأجزاء ، ويسلك في تمحيصها مسلك الوضوح والجلاء ، مبيّناً بالمثال مواضع المشابهة والخلاف ، ليتسنّى له أن يستخلص من الأوصاف المشتركة ضابطاً مختصراً ، إذا وعاه الطفل في ذهنه سهل عليه استذكار تلك الأمثلة التي عرضت عليه وهي في طور التكوين ، وسهل عليه بعد ذلك أن يطبّق عليه كلَّ ماله بتلك الأمثلة شَبَه . هذا وكتب التعليم قد تكفَّلت بشرحها ويغنينا الرجوع إليها عن التوسُّع فيها هاهنا .

طريقة القرآن

قد نسب المربُّون إلى روسُّو فكرة إثارة التشويق في نفس

المتعلّم . ونسبوا إلى هربارت فكرة اختيار تلك الطريقة النفسيّة المنطقيّة . ولو راجعنا التاريخ لرأينا طريقة القرآن تصدّت لهذه الأغراض ووفتها حقّها قبل وجودها بما يزيد على عشرة قرون .

قال تعالى فى سورة الغاشية « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ؟ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ » .

وقال فى سورة الأعلى : « فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَى » .

ففى الآية الأولى وجّه القرآن بأسلوب رصين ، أنظار المفكّرين ، إلى المشاهد الطبيعيّة البديعة للاستدلال على ما لله تعالى من جلال وعظمةوقدرة . انظر كيف حثّ على التشويق ليدفع الناظر إلى اليقين بالإرادة لا بالقسر ، والقوّة القسريّة تقتضى الإلزام الوقتىّ ، حتّى إذا فنيت عاد الأمر إلى وضعه الأوّل .

وفى الآية الثانية حثّ على جعل التذكير نافعا ، تفهم هذا من صيغة الجملة الشرطيّة التى تقدّم عليها ما يفيد الجواب ، ولا يكون التذكير حقيقيًّا إلّا إذا سلك مسلك الطريقة النفسيّة المنطقيّة .

ولو سرد المنصفون بالاستيعاب ، كلّ ما جاء فى القرآن من هذا الباب ، لم يعجبوا من أنّه منذُ القدم آية من آيات الإعجاز .

إليك شاهداً من طريقة القرآن فى سبيل محاربة شرب الخمر الذى فشا قديماً بين العرب وغيرهم ، وتعلقت به نفوسهم تعلقاً بعث الشعراء على مديحه ، ووسعوا مجال القول وبارع الخيال فى وصفه .

جاء الوحى أولاً بهذه الآية : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا » فرأى العرب أوامر القرآن تتمشى مع ميولهم ، فأحبوا النبى وأنصتوا للوحى الذي نزل عليه ، ولم يقفوا معه موقف المعارضين . ثمّ جاءت الحوادث تترى فنزلت فيها الآيات بحسب مقتضياتها . شرب أحدهم الخمر ، ونطق بفحش القول وهو يصلى ، فنزلت هذه الآية : « لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فعرفوا أنّ الصلاة مناجاة لله ، وينبغى عند أدائها أن يشاركها الخضوع والتأمل ، فاستنكروا شربها فى الصلاة فقط ، وهذه هى الخطوة الأولى فى المنع . شربها أحدهم فعربد واعتدى على آخر ، فنزلت هذه الآية : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . فاستحسنوا الامتناع عنها ، وهذه هى الخطوة الثانية فى المنع . ولمّا تهيأت النفوس للنصح ، وتبيّن لها ما ينطوى عليه الوحى من المصالح ، نزلت هذه الآية التى حرّمت شرب الخمر مطلقاً ، واستجمعت كثيرًا من الأدلة ، وها هى ذه « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلاَمُ رِجْسٌ

مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ » . وهذه هى الخطوة الأخيرة فى المنع .

فانظر إلى ضروب السياسة والحكمة فى التشريع كيف سارت؟ وأىَّ سبيل اتّبعت ؟ ترَ أنّها تنزّلت إلى أفق المتعلّمين لتزيل من نفوسهم أسباب النفور ، ثمّ أخذت تتدرّج فى سبل الكمال وهم بها متعلّقون ، حتّى وصلت بهم إلى الهداية المنشودة . ومحاكاة هذه الطريقة — وهى المثل الأعلى — أمنيّة المؤدّبين ، منذ فطر الله الإنسان إلى يوم الدين .

المبحث الرابع

أنواع الغرائز

١) غريزة حبّ النفس

ألا كلُّنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صَبّا
فحبُّ الجبان النفس أورده التقى وحُبُّ الشجاع النفس أورده الحربا

غريزة حبّ النفس هى العماد الكبير والوازع العظيم الذى يدفع الكائنات الحيّة إلى تحصيل أقواتها ، والدفاع عن سلامتها ؛ فالنبات تسيخ جذوره وتتشعّب فى باطن الأرض سعياً وراء الغذاء ، ومن أجله يعدو بعضه على بعض تسلُّقاً واستناداً وامتصاصا . والحيوان طلباً للغذاء يبطش قويُّه بضعيفه ، ووحشيُّه بأليفه . ومع أنّ الإنسان قد ساد أنواع الحيوان لا يستطيع أن يحصى ما يهاجمه فى كلّ لحظة ، فهو ما عاش مهدَّد بالهوامّ تتسابق لامتصاص دمه ، وحقنه بنَفَثات سمومها ، ومهدَّد بجيوش الجراثيم تناوئه أينما ذهب متغذّياً كان أو متنفّسا ، وتترقَّب فيه الضعف فتنقضُّ عليه وتميته .

لو أنّ الناس تحابُّوا لتعاونوا على مناجزة الأعداء ، بهمّة قعساء ، لكنّهم اختلفوا فى المشارب والأهواء ، وسلُّوا على أنفسهم سيف القضاء ، واستعجلوا الفناء « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ »

وكلّما زادوا حضارة وعلما ، زاد التنازع بينهم فتكًا ونقضاً وهدما .

تجد الطفل القاصر يعبث بملك غيره ، ويتمنّى أن يكون كلُّ شيء ملكًا له ، لأنَّ مدى شهوته للطعام والشراب بعيد . اصبر على هذا الطفل حتّى ينمو عقله ، وتنفذ إرادته فى صلب الحقائق تجده لا يتحقق محبَّة نفسه إلّا إذا وصلها بمحبَّة غيره نوعاً ما ، فإذا واسى مكروباً أو أعان بائساً أو أطعم مسكيناً فكأنّه يجرُّ النفع إلى نفسه ، لأنّهم لا ينفكُّون يذكرون رحمته بهم فيردُّون له جميلاً مثله ، أو ينطقون بشكره إذا أعجزتهم القدرة .

هذا وإنَّ ترقُّب المجازاة من أجلّ الدوافع لإسداء المعروف واجتناب المنكر . وقد حبّب الله تعالى إلى نفوس الأتقياء محبّة العمل الصالح وبغّضهم فى الشرّ ، رغبة فى نيل ثوابه واتّقاء عقوبته . ولا تجد حبَّ الخير لمجرَّد أنَّه خير إلّا عند من وصفهم الله تعالى بقوله « وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرا ، إنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورا » وعند من منحهم الله قوّة الإيمان كصُهَيْب الذى قال فيه عمر بن الخطاب « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصِه » فقد أثنى عليه لأنّه يطيع الله تعالى تقديرًا لجلائل نعمه لا خشية من عقابه

يحبّ الإنسان أبناءه لأنَه يتوقّع منهم المساعدة إذا قدروا على الكسب ، وأضناه الكبر ، وهذا الحُبُّ ظاهر فى الإناث مطلقاً نحو صغارها حفظاً للنوع ، وترى هذا الحبَّ يأخذ فى النقص كلّما كبروا ،

واستطاعوا السعى واعتمدوا على النفس . وما تسامح المرأة لأبنائها إذا أذنبوا إلّا وازع هذا الحبّ الغريزىّ . جاء فى أمثال الميدانىّ : أنّ رجلاً تزوّج امرأة وله أمٌّ عجوز ، فقالت المرأة للزوج لا أنا ولا أنت حتّى تخرج هذه العجوز عنّا . فلمّا أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلاً ، حتّى أتى واديًا كثير السباع فرمى بها فيه ، ثمّ تنكّر لها فمرّ بها وهى تبكى فقال : « ما يبكيك يا عجوز » ؟ قالت : « طرحنى ابنى هاهنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد » . فقال لها : « تبكين له وقد فعل بك ما فعل ، هلاّ تدعين عليه » ؟ قالت وأرسلته مثلا : « تَأْبَى له ذلك بناتُ أَلْبُبِي (١) » .

فاذا علمت أنّ حبَّ الوالدة لولدها طبيعىٌّ ، فلا إخالك تنكر أنّ حبَّ الولد لوالدته أو لوالده وليد المعروف وثمرة العطف والحنان ، فالولد يحبّ والديه متى أحسّ عطفهما عليه ، ومتى عاقباه انقلب حبّه كرها ، لأنَّ الغرض الشريف من العقوبة التى يوقعانها به يدقّ فهمه على ذهنه ، فيتبادر لعقله القاصر أنَّهما يسيئان إليه

ويحبُّ الإنسان إخوانه مدفوعًا بعامل المبادلة فى المنافع ، وهذا الحُبُّ موقّت يبقى ما بقيت المصلحة . قيل إنّ رجلا جمع أبناءه الثلاثة وأعطى أحدهم خبزا ، والثانى أُدْما ، والثالث فاكهة ، ورخّص لهم فى الفسحة معا ، فتطلّع كلّ منهم إلى ما بيد أخويه ، واتّفقوا على أن يقسم كلٌّ منهم نصيبه أثلاثا ، يبقى الثلث لنفسه ، ويبادل أخويه فى الثلثين

(١) بنات الألبب عروق فى القلب تكون منها الرقة

الآخرين ، فتم لكلّ واحد منهم أنصبة متعادلة من الخبز والأُدم والفاكهة ، ولولا هذا النفع المتبادل ما اتّفقوا .

العزلة والاجتماع

يشترك الإنسان والحيوان فى أنّ العزلة مضادّة لطبعهما ، وأنّ الاجتماع فيه تساند وتآزر ، فالنحل حيوان اجتماعىّ لا يستطيع صنع العسل إلّا بمساعدة رفقائه ، والنمل لا يدّخر قوته إلّا بمشاركة أفراده ، والخُطّاف لا يهاجر من أوطانه إلّا أسرابا ، والدواجن تعيش هنيئة إذا اجتمعت ، ويُرى عليها البؤس إذا افترقت . والبقرة المعزولة لا تدرّ اللبن ولا تسمن مثل البقرة وسط الصُّوار[1] .

الأثرة والإيثار

الفضيلة وسط بين طرفى الأَثَرَة والإيثار ، وقد ورد « حبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك » . نعم تنحطّ عن الفضيلة نفس من يبذّر فى ماله ولو فى سبيل الجود ، ونفس من يلهو عن غيره بمصالح نفسه ، ومَن يلعب الغرور بعقله فيرى نفسه جديرة بالمديح وهى مجرّدة من وسائله ، ومَن يصادر إخوانه فى حقوقهم ويقف منهم موقفا ممقوتا ، فيحقد على من ساوَوْه ، وينكر فضل من فاقوه ، ويستخفّ بمن نقصوا عنه .

المواساة الحقيقية

وليس من المحبّة المنشودة أن يجامل الإنسان أخاه بعبارات السرور عند سبوغ النعمة ، وأن يُسَلِّيَه بالكلام عند نزول الكارثة . وإنّما المحبّة الحقيقيّة أن يتوجّه بالفعل إلى جرّ النفع ودرء الضرّ متّخذا

(١) القطيع

من المال والجاه عضداً قويّا . ولا يكون إشفاقه على البائسين صادقاً إلّا إذا جرّب لَوْعة الجوع والعُرْى والحاجة ، ولذلك شرعت زكاة الفطر بعد صوم شهر رمضان لتكون النفس قد عرفت وطأة الجوع والعطش فتسعى فى تخفيفها .

أراد معلّم أن ينفخ فى رُوع تلاميذه محبّة الإحسان إلى البائسين ، فأخّر عنهم الغداء قليلاً حتّى هاجهم ألم الجوع ، ثمّ أقبل عليهم وقصّ حديث من نكبتهم الأيّام فطردوا من ديارهم أو أُوذوا فى نفوسهم وأموالهم ، فجادوا بالنزر اليسير ، والكريم من جاد بما عنده . ولا يخفى أنّ تعويد الناشئ مدّ يد المساعدة للمحتاجين مقلّل من شوكة الأَثَرَة ، ولا سيّما إذا وجد من إخوانه إقبالاً على فعل الجميل ، فليشترك التلاميذ فى جمع إعانات ينفقونها فى تعليم من تتوافر فيهم المواهب الذهنيّة من الفقراء ، أو يتعاونوا جميعاً على تفهيم المسائل كما كان يفعل بستالوتزى إذ كان يُجلِس التلميذ الذكىّ بين التلميذين الضعيفين ليرشدهما. ناهيك بما تحدثه زيارة ملاجئ العجزة ومستشفيات المرضى فإنّها داعية إلى محبّة المعروف، مرشدة إلى أنّ الإنسان عرضة لتقلبات الزمان ، وما أحوج هؤلاء المرضى إلى كلمة تسلية يسمعونها من زائر تخفّف عنهم لوعة الوحشة والأحزان ، أو إلى هديّة تريح نفوسهم ، وتدفع بهم إلى التفكير فى وسائل الشفاء !

وللأندية والمعارض وجمعيّات التعاون والنقابات والمجلّات والصحف وممارسة المناقشات الموصّلة إلى الحقائق شأن كبير فى تأليف

النفوس بعضها ببعض على قواعد الإخاء المتين والحبّ المتبادل . وقد قرّر علماء الاقتصاد أنّ الشخصين المجتمعين يشتغلان فى يوم واحد ما لا يستطيع الفرد أن يعمله فى يومين . فالفرق بين العملين هو فضل الاجتماع وثمرة التعاون .

إنّ المجتمعات وحدها وسيلة متينة لتوثيق عرا الوداد ، وتمكين أسباب الإخاء والودّ بين أعضائها . فقد يكون العضو محبًّا لقوم يشاركهم فى مجتمع خاصّ ، ومحبًّا لآخرين يشاركهم فى مجتمع آخر . بل قد يكون للفرد الواحد اشتراك مع غيره فى مجتمعات عدّة ، فيتضاعف حبّه لهم بمقدار ذلك .

٢) غريزة الخوف



هى مشتركة بين الحيوان والإنسان ، ويخفّف وطأتها على الإنسان ما يتوخّاه من طَرْق أبواب الحيل . ولا يدرك معنى الخوف على حقيقته ، من امتدَّ به رواق المدنيَّة ، وَرَف ظلُّ الأمن . وغالباً يعتمد فى تصويره على ما يرسمه الخيال ، أو ما يجود به الكاتبون من وصف المحن التى تفتك بالإنسانيَّة فى الحروب والزلازل والمناجم ، وبين ألسنة اللهب ولجج البحار . ومع أنّ هذه الأخيلة مؤثّرة لا يرسخ أثرها فى الحافظة رسوخه إذا أُصيب الإنسان بشىء منها وأنجاه طول العمر . أرادت كاتبة أن تكتب فى وصف الخوف الذى يحسُّه السارق ، فعَنَّ لها أن تدخل دُكّانا ، وتتظاهر بالسرقة فتقدَّمت إلى البائع وأغلظت له فى القول ، وضايقته فى المعاملة ، وأعرضت عن الشراء ؛ وبينما هى فى الطريق إلى الباب ، تناولت من الأرض هَنَة ، وما كادت تخرج حتّى أدركها الحارس وضبط ما معها ، وأوسعها شتماً وإيلاما ، وسلّمها إلى شرطىّ رافقها إلى المحكمة للفصل فى أمرها . فلمّا مَثَلت بين يدى القاضى أدهشه حسن زيّها ، وجمال رُوائها ، مع تفاهة الشىء المسروق ، فسألها عن التهمة فاعترفت بها ، ثمّ استفسرها الأسباب ، فأجابت بأنّها ما فعلت ذلك حبًّا فى السرقة ، بل حبًّا فى درس الوجدان الذى يلازم هذا الموقف . فلم يَسَعِ القاضىَ إلّا أن أنفذ عليها جزاء الحبس على اعترافها بالسرقة ، ثمّ قصد الإمبراطور فقصَّ عليه أمرها ، والتمس منه العفو عنها .

يتردَّد على النفس شىء واحد فيكون أحيانا مصدر سرور ،

وأحياناً مصدر خوف . فالطفل يرى الكلب اليوم فيقترب منه ويلاطفه ، ويراه في غد فينأى عنه ويتهيّبه . وإذا تساءلنا عن سبب هذا الاضطراب علمنا أنه رأى الكلب لأوّل عهده مسالماً فمال إليه ، وعند ما أقبل الليل وآن أوان نومه ، وألهاه اللعب عنه ولم يمتثل أمر أمّه ، أمرت الخادم أن تصوّت محاكية نباح الكلب ، وأظهر الحاضرون الفزع من سماعه ، فذهب مسرعاً إلى فراشه وانكمش في مضجعه ونام . ولمّا استيقظ صباحاً ، ورأى الكلب عينه ، وسمع نباحه على تلك الصورة التي سمعها ليلا فلا نعجب إذا رأيناه يخافه ، إذ الخوف الذي كان كميناً عنده قد أثارته التربية السيّئة .

بمثل هذا نعلّل الفرق بين الحَمام الذي يأوى إلى الكعبة ويرفرف عليها مستريحاً مطمئنّا ، والحمام الذي يسكن الجهات الأخرى . فحمام الكعبة استأنس لأنّ غريزة الخوف عنده كامنة لم يثرها ثائر ، فلم يهاجمه أحد ولم يؤذه صيّاد ، عادة ألفها من الإنسان وقد وصّاه الله بهذه المعاملة . أمّا الحمام الآخر فيسمع غالباً دَوِيّ البارود المفزع ، ويشاهد شبح الإنسان مقروناً به ، فتتنبّه عنده غريزة الخوف بمجرّد رؤية الإنسان ، ويفطُن إلى أنّه يريد الاعتداء عليه فيخافه . أمّا ذراريه فربّما لا تشاهد مثل هذا الاعتداء ، ولكنّها تحاكي أصولها في هربها من الإنسان فتتخشاه تبَعا .

أعراض الخوف

عنـد الخوف يحسّ الجسم وَقْعَ قوّة عنيفة يرزح تحتها ، وتهتزّ جوانبه من هَوْلها ، فَيُهْرع الدم إلى القلب ليثير فى الإنسان الاستعداد لدرء الخطر أو الفرار من وجهه . وتبدو أعراضـه فتدلّ عليه ، يُمْتَقع اللون ، وترتعد الفرائص ، وترتعش اليدان ، وتضطرب العضلات ، وتتصلّب المفاصـل ، ويتصبّب الجبـين عرقا ، ويَقِفُ شـعر الرأس ، وتتّسع الحـدقة ، ويخفق القلب ، ولا يعود التنفّس من الأنف كافياً فينفتح الفم كما ترى فى هذا الشكل .



وكذلك يفعل الخوف في العقل ، فيتكدّر صفاء الحافظة، ويغلب النسيان، وتتعطّل الإرادة الصالحة ، إذ لا تجد فكراً يَقظا ، ولا عضواً مطيعا ، ويستسلم الذهن للخيال المروّع ، حتّى إذا رأى غير شخص ظنّه رجلا ، وتستولى عليه الوساوس ، ويزلّ عن مواقف الصواب .

وكثير الخوف يعتدى على المزاج ويجرّه إلى الهلاك ، كما يحصل للمجرمين الذين ينفذ عليهم حكم الإعدام . يقفون بين يدى الجلّاد والسيّاف ، وإذا قدّم أحدهم للقتل مات الذى يليه من شدّة الفزع والجزع

مثيرات الخوف

ما يحدثه الصوت الشديد من الروعة

تثور النفس بفطرتها عند سماع الأصوات الشديدة التى تصل إليها من غير انتظار ولا استعداد ولا تعرف لها أسباباً ظاهرة . أصيب محمد على باشا الكبير بصيحة مزعجة من جرّاء إعدام المماليك فى قلعة مصر، كانت تنتابه أحيانًا فيسمع منه زئير كزئير الأسد يتقطّع من سماعه نياط القلب . جلس رسّام إلى جانبه ليرسمه ، ولمّا سمع هذه الصيحة هَلِع فؤاده ، ومات من شدّة الفزع

وكثيرًا ما نرى المتفزّزين تعروهم رِعْدة الخوف لأقلّ صوت أو حركة . وهم الذين قالت فيهم عائشة أمّ المؤمنين : « إنّ لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير ، كلّما خفقت الريح خفقت معها . فأفّ للجبناء »

فى سنة ١٩٠٦ كنت جالساً مع المعلّمين فى كلّية غردون

بالخرطوم ، و بينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث ، إذا صوت هائل هزّ أركان المدرسة وصدّع بنيانها ، ثمّ شخصت أعيننا إلى السماء فإذا هى اغبرّت ، وكساها الدخان المتراكم ثوباً كثيفاً ، فسكتنا ذاهلين ، وأقبل بعضنا على بعض يتساءل عن هذه الحادثة ، وما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ثمّ تفقّدنا الطلبة فرأيناهم خارجين من الحجرات بقضّهم وقضيضهم مذعورين يلتمسون النجاة من شرّ هذا الهول العظيم . ولمّا اطمأنت النفوس ، وهدأت العقول ، وحُقّقت الحادثة ، علمنا أنّها نشأت من انفجار ١٥٠ طنّاً من البارود ، وما ظنُّك بصوت امتدّ صداه على بُعد ٣٠ ميلاً من مكان الحادثة التى كانت لشدّتها

تُصِمُّ السميع وتُعْمِي البصير ويُسْأَل من مثلها العافية

رؤية المشاهد الغريبة

ومن مثيرات الخوف رؤية المشاهد الغريبة العجيبة المضطربة ، كرؤية لصّ مسلّح فى هيجانه ،وكجماح حصان انقلبت سَحْنته ونصب أذنيه وفتح مَنْخِرَيْه . رأيت فى أسفارى طفلاً يترنّح من البشاشة والسرور ، وقفته أمُّه ليطلّ من نافذة القطار ، ولمّا تحرّك اضطرب مزاجه فعبس و بكى بكاء مرّا ، ولمّا أدارت وجهه عن رؤية المناظر المضطربة المتجدّدة سكن جأشه . وكذلك شاهدت طفلاً يلعب الخوف بعقله ، فَعَبَّسَتْ ملامحُ وجهه ، لأنّ حامله اقترب من البحر فكدّرت أمواجُه المتلاطمة صفاءَ سروره .

المباغتة

ومنها المُباغتَة كما إذا حادثنا متكلّم على غير انتظار ، أو نبح

علينا كلب ، أو مثَل أمامنا شبح غريبُ الصورة على النحو الذى تراه فى هذا الشكل .



وتصوّر كيف فزع القطّ الصغير فى الشكل الآتى عند مافوجئ بحركة عفريت العلبة

ولعلّك تقدّر ما يعترينا من ألم الرجفة وقد فتح الريح مصراع النافذة فجأة . خطر لى أن أتفقّد كيس النقود وقد اعتدت وضعه فى مكان خاصّ من ملابسى ، فلمّا لم أجده ذهل عقلى وضاع صوابى ، وكادت تباريح الحزن تستولى علىّ لولا أنّى تحقّقته فى مكان آخر ، والفأر تتصلّب مفاصله متى عاين القطّ أمامه ، ويستسلم لعدوّه من شدّة ما يعروه من وقع الخوف .



ويثور الخوف عند العزلة والمكث فى الأمكنة المظلمة والجحور والمغارات ، لأنّها مظانّ لكُمُون العدوّ ، أو لأنّ الظلام يعوق البصر عن رؤية الخَوَنة من بنى الإنسان والضوارى من الحيوان ، وقد جاء فى المثل : « الليل أخفى للويل » ، وقيل : إذا أقبل الليل استأنس كلّ وحشىّ ، واستوحش كلّ إنسىّ انظر إلى الشكل الآتى

الأمكنة المظلمة

ومن مثيرات الخوف توقُّع الزلل عند ذوى الأمزجة العصبيّة ، فترى من يقف موقف الخطابة أمام الجمهور مرتعد القلب ، ذاهل

توقع الزلل



العقل ، متلجلج اللسان ، لأنّه يخشى أن يَخِيب رجاؤه فى النجاح ، « والإنسان من خوف الذلّ فى الذلّ » ، أو لأنّه ربّما ذهب إلى رأى لا يرضاه السامعون ، أوْ لا ينطبق على الواقع . ومهما كَبُرَت همّة الخطيب ، واستجمع الغاية من ابتكار المعانى وذَلاقة اللسان ، فلا يستطيع أن يقف فى الناس موقفه بين الأصحاب أو بين من اعتاد محادثتهم ؛ وهذا أمير المؤمنين عثمان بن عفّان لمّا بويع بالخلافة خطب فأُرْتِجَ [1] عليه ، فنزل عن المنبر واعتذر

(١) استغلق عليه الكلام

ضعف الصحة

وقد يكون الخوف من ضعف الصحّة ، ولا يغيب عنك مايحدثه عند الممعود من الجبن وخَوَر العزيمة ، وما يتردّد على ذهن المحموم من المفزعات فيخيّل إليه مزاجه المضطرب صُوَرًا من الوحوش الضارية تتأثّره ، أوصخوراً من السماء تنحدر عليه، وتراه للتملّص منها فى قلق وحيرة.

تأثير الوهم

يقيس الإنسان عَرْضَ الطريق الذى يسير عليه فلا يجده يزيد على نصف متر ، ولكنّه إذا سار على المشارف العالية أو على ممرّ فى البحر ، يلعب به الوهم ويسوقه إلى موارد الخوف رغم إرادته ، فتجده يحتاج إلى ما يستند إليه ، وإلّا فإنّه لا يتمالك الوقوف . ومن ذلك أنّ شخصاً حكم عليه بالإعدام ، فشُدَّت على وجهه عِصابة ، وأُعْلِمَ أنّه سَـيُفْصَدُ تنفيذاً لهذا الحكم ، وبدلاً من الفصد سلّط الفاصد عليه رشاشاً من الماء الفاتر ، فظنّه دماً يقطر منه وغُشِيَ عليه فمات من تأثير الوهم . وبين ظهرانينا أناس بذّروا فى شهواتهم ، وقضوا القضاء العاجل على سعادتهم بانغماسهم فى الترف والنعيم ، فيحسّون طبعاً بتأفّف ، وحينئذ يوسوس لهم الخيال فيحملهم على اعتقاد أنّ فيهم داء ، فيفزعون إلى الطبيب ليفحص عن مرضهم فيستريب ، وربّما اختلق لهم علّة وخوّفهم بطشها فيعيشون من هذا الوهم المضاعف فى ذلّ دائم وقلق مستمرّ . ولو حسبت من يموت فى زمن الوباء وجدت أكثرهم يلقى حتفه من تأثير الوهم ، والوهم من ألدّ أعداء الإنسان

قراءة القصص

ومن محدثات الخيال المزعج قراءة القصص ، وهى أشدّ الأمور استرقاقاً لذهن الناشئ . وما ظنّك بمن يجلس بين يدى أمّه أو عجائز

البيوت ولا يسمع إلّا نوادر العفاريت والجانّ ، وما يفعلونه من ضروب الأذى والحرمان ، بُلينا بهنّ فى العهد الأوّل من طفولتنا ، واعتقدنا صدق روايتهنّ لصغر عقولنا . وإنّ من يوطّن نفسه على اعتقاد أنّها من التخرُّصات والأكاذيب ، ثمّ ينطلق رابط الجأش إلى اختبار مصادرها ، لا يجدها إلّا كضباب أرسلت إليه الشمس أشعّتها فبدّدته . وقد كفانا المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده [1] مئونة البحث عن حقيقة هذه الأوهام إذ أسمعنا : أنّ فى مصر درباً يدعى حيضان المسلى بين الأزهر والدرب الأحمر ، اشتهر بالمخاوف ، وذهبت فيه أحاديث الناس مذاهب شتّى ، لضيقه وظلامه وإهمال وسائل الأمن فيه ، حدّثنا أنه عقد رهاناً مع طائفة من إخوانه لاختراق هذا الدرب ليلا ، وما بدأ بالسُرى حتّى غشيه الوهم ، وبدت عليه أمارات الخوف ، وكان كلّما صوّر له الخيال شبحاً مفزعاً تجلّد وأيقظ فكره وأحيا عزيمته ، وسلّ سيف إرادته ، واندفع إلى حجب الوساوس فمزّقها ، ومرّ فى سبيله كالسهم من الرميّة . وبينما كان سائراً سمع غطيط نائم فعقّب الصوت واسترشد به إلى مصدره ، وإذا هو غلام كان يلعب مع إخوانه الصبيان وغلبه النوم فأيقظه ، وتقدّم به الأستاذ إلى

(١) الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية توفى سنة ١٩٠٥ نبغ فى العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية . وخدم العلم والإصلاح وأثمرت طرقه فى الطلاب . أجله العالم الاسلامى لأنه تصدى للدفاع عن الدين وكان له من كتابته وخطابته وذلاقة لسانه وبليغ بيانه تأثير نادر المثال

من حضر فى الطرف الآخر من الدرب ، وقصَّ عليهم من أمره علما ، وصوَّب لتلك الإشاعة من همَّته سَهْما ، وأثبت لهم من التجارب عزماً وحزما ، واقتلع من نفوسهم ضلالة ووهما .

وما الخوف إلّا ما تخوّفه الفتى وما الأمن إلّا ما رآه الفتى أمنا

منافع الخوف

الخوف المعتدل من أكبر عوامل الإصلاح ، والعاقل يجعله كالنار يتدفّأ بها ولا يلامسها ، وهو الذى يحمل النفس على التريُّث والأناة ، ويثير المواهب الفكريَّة لتمحيص الأمور، وقد ورد «من خاف سلم».
فإذا دبَّ دبيب الخوف فى إنسان على أثر رؤية حيوان ضار ، ففرَّ من موقفه إلى مواطن السلامة ، ضنًّا بحياته أن يعبث بها الشرُّ ، أو إذا دهمته النار فى منزله فثبت أمامها رابط الجأش يفكّر فى وسائل النجاة، ودفع غائلة الحريق ، حُمِدَتْ مَغَبَّةُ هذا الخوف الذى نبَّه القوى الفكريَّة على خطر الموقف والاستعداد له ، ودرء مخاوفه بما يستطيع من الإقدام والنشاط .

وخوف الله تعالى رأس الحكمة ، لأنّه يضبط النفس الجامحة ويكفُّها عن مباشرة الاعتداء ، فى غيبة الرقباء ، وكفى بالله رقيبا . وماذا عسى أن يكون خطر الملحدين على المجتمع الإنسانىّ وقلوبهم مجرَّدة من هذا الوازع ، ولهذا غلا فولتير فى قوله : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه »

فى الخوف قوّة روحانيّة تكفل تحرّىَ الإصابة والسلوكَ بالإنسان فى مسالك البحث والتنقيب ، لتخيُّر الأسباب الراجحة التى ترشده إلى السعادة ، على أنّه قد يبذل ما لا قِبَل له به من وسائلها ، ثمّ تُفلت منه الغاية المنشودة ، ويضلُّ حيث يريد الفوز . ذلك لأنّ الأسباب المعقولة التى جال فكره فى اختيارها ، ربّما لا تكون أسباباً حقيقيّة فى الواقع . فقائد الجيش يرسم خطّة الهجوم التى يتوسّم فيها النجاح فى ساحة الحرب ، ولكنّ عدوّه ربّما حسبها من قبل — على سبيل توارد الخواطر — وأعدّ لها العدّة ، فيتبدّل الأمر ، وتسوء العقبى

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

لذلك جاءت مشروعيّة الاتّكال على الله بعد إجادة الأسباب . وهذا الاتّكال برهان على عجز الإنسان وقصر عقله فى الإحاطة بالحقيقة . وقد أجاد أبو تمّام فى قوله :

وقد يُكْهِم السيف المسمّى منيّة وقد يرجع المرء المظفّر خائبا

فحسبه أن يزاول الأمر بعد عرض أسبابه على محكّ الفكر ، ثمّ يقف بين طريقى الأمل بالنجاح والخشية من الخيبة ، ويضرع إلى الله تعالى راجياً حسن التوفيق ، إلى أقوم طريق . « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ »

رأينا من الناس من اندفع بلا عقل فى سبيل المضاربة ، ودخلها

من غير حساب لعواقبها ، فربح وخرج من السوق ظافراً محسودا .
ورأينا منهـم من يدخل السوق ويزن الأمور بميزان العقل ، ويحكم عليها حكماً منطقيًّا يقينيّا ، فيُحْجم عن الشراء ، مع أنّ الواقع ربّما لا يتَّفق مع رأيه ، فأمثال هذه الحوادث لا يصحُّ القياس عليها . ولو تأمَّلت معنى تلك الآية ، وتفهَّمت ما تحتويه من البيان ، وما تدلى به من الحجَّة ، لعرفت أنّ الله عنـده مفاتح الغيب ، وأنّنا لا نملك من أمورنا إلّا أن نزنها بعقولنا ، ونماشى الدليل ونستند إليه ، ونعوّل عليه ، فإذا عادى القدر مسعانا ، فلا حول لنا ولا حيلة . إنّ الذى يستسلم للمضاربة إذا صحَّت معه الأحوال وجرت معه الأمور فى طريق غير معقول ، يوشك أن يرد منها مورداً يقضى على ماله ، وما أحكم المثل المشهور « ليس المخاطر محموداً وإن سلم » .

الشجاعة

الخوف غريزة كما علمت . أمّا الشجاعة فصفة كسبيَّة تجود بها التربيـة ويصقُلها التمرين . والجبان والشجاع سواءان عنـد الصدمة الأولى ، ثمَّ يتفرَّقان فيخور الجبان ويتعثّر فى أذيال الخيبة ، ويحتال الشجاع ليتملّص من الأذى . وقد أنصف ابن حزم ففسّر الشجاعة : « بأنّها بذل النفس للذود عن الدين أو الحريم أو الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة ظلماً فى المال والعِرْض وسائر سبل

الحقّ ؛ والصبر على ما ذكرنا جُبْن وَخَور ، وبذلها فى عروض الدنيا تهوُّر وحمق ، وأحمق من ذلك من بذلها فى منع الحقوق والواجبات ، وأحمق من هؤلاء قوم لا يدرون فيم يبذلون أنفسهم ، فيتعرّضون المهالك : إمّا إلى العار ، وإمّا إلى النار » .

وقد التبس على بعضهم معنى الشجاعة فمدّها غريزة ، ووصفها بأنّها قوّة نفسيّة كامنة تظهرها الحوادث من غير انتظار ، حتّى إنّ الشجاع بعد خروجه من ميدان القتال يرى أنّ ما أبداه فيه من البسالة والإقدام ممكن لكلّ شخص ، إذا أُتيح له موقف مماثل لموقفه .

والحقيقة أنّ هذا الوصف ليس يدلّ على الشجاعة التى نحن بصدد بحثها فى هذا المقام ، بل ينطبق على غريزة الهرب الآتية ، وهذه الغريزة تتنبّه فى احوال استثنائية ، عند الطوارئ والحوادث الفجائيّة .

وإذا سلّمنا جدلاً بأنّ الشجاعة غريزة ، تأتّى وجودها كالغرائز الأُخر في كلّ شخص ومن دون جدّ ومكافحة ، وكان من العبث حينئذ أن تعدّ من ألقاب العظمة والتمجيد ، وأن يتأسّل بها الفخر فينتقل بالميراث من جيل إلى جيل .

الهمجىّ لا يرى الشجاعة غريزة ، بل يعتقد أنّها تتولّد بالعلاج ، ذلك أنّ الوالد يذهب إلى المفازة فيصيد الأسد ، ثمّ يشقّ صدره ويستخرج قلبه وينضجه ويطعمه أبناءه فيشبّون على الشجاعة . وليس اختيار القلب من بين الأعضاء لإطعام أبنائه إلّا دليلا على أنّ القلب

هو آلة الشجاعة ، فإذا تمثّل فى الجسم وجرت عصارته فى الأعصاب ظهر الابن الصغير بمظهر البسالة والإقدام . وهل الشجاعة فى نظر المتمدين إلّا صلابة فى الجسم ، ورزانة فى القلب ، وممارسة للمخاطر ، واندفاع فى حومة الوغى بصدر رحب ، واستخفاف بالموت فى سبيل المحافظة على النفس والأهل والعشيرة والوطن ؟

إنّ أغلى شيء يملك من الإنسان لبّه إنّما هو الحياة ، ولا شيء ينجيها من الأذى ويجعلها بمعزل عن مواقف الهلاك سوى البعد عن المخاوف ، أو بعبارة أخرى ، إنّ الجبن سبيل للحياة الهادئة التى ترتاح إليها النفوس الضنينة وهو لا يحتاج إلى كفاح ، ولذلك عدّ من الغرائز ، فيكفل سلامة الجسم فى الطور الأوّل ، حتّى تتولّد الشجاعة فتتسلّم زمام الأمور ، وتسيّرها على الوجه الأكمل .

والشجاعة التى عليها مدار كلامنا ينطوى تحتها حبُّ الكسب من وجوهه الشريفة ، والصراحة فى القول ، وخدمة الأمّة بإبراز المخترعات النافعة ، وارتياد المجاهل ، والجهاد بأنواعه المشروعة .

قال ملك لوزيره وهو يختبر حذقه : ائتنى بأردأ طعام ، فى أقبح إناء ، يحمله أحقر إنسان . فظنّ الوزير أنّ طِلْبَة الملك سهلة ميسورة ، فاستحضر فولا ووضعه فى وعاء من الخزف ، واستأجر لحمله إلى الملك عاملاً حقير الملابس ، وكاشفه بالأمر . فدهش العامل وقال للوزير : لقد أخطأت المراد ، وحدت عن طريق السداد ؛ دونك الطعامَ الذى تقدّر الوَجْبَة منه بعشرات من الجنيهات ، وهو الطعام الغليظ

الذى تَضْعُفُ المعدة دون هضمه ؛ دونك الوعاءَ الذهبيَّ المكلَّل باليواقيت ، وقيمة الصفحة منهُ مئات من الجنيهات ، وهو الوعاء الذى إذا كسر كانت الخسارة باهظة ؛ دونك فلانًا الثريَّ الوارث المنغمس فى النعيم والترف ، اللاهى عن مهامّ الحياة ، الذى لا يبالى أن يكيل المال جزافا ؛ خذ هذا الذى وصفته لك إلى الملك فإنّه الذى عناه بطلبه . وأجرؤ وأقول : إنّى — وإن كنت فقيرًا معدماً — ذو نفس شريفة غنيَّة . وهل فى شخص غيرى يتحقّق معنى الشجاعة وأنا أسعى إلى القوت بياض نهارى ، ومتى انتهى النهار جئت بأجرى الزهيد وصرفته على بيتى ، معتقدًا أنه ثمين ، لأنّه ثمرة عرق الجبين ؟

شجاعة العامل

نعم تتمثّل الشجاعة فى هذا الشخص وفى البنّاء مثلا ، ذلك الذى يقوم بعمله واقفاً على عود خشب قد ينكسر به ، أو يُفلت منه فيَهْوِى إلى الأرض ، وهو على كلّ حال معرّض لزمهرير البرد ووهيج الشمس ، قانع من القوت بالنزر اليسير ، راض من الرزق بالأجر الزهيد .

كذلك تتمثّل الشجاعة فى نفس العامل الذى انطوى به باطن الأرض ، إمّا فى مناجم الفحم بعيداً عن مناظر الكون الجميلة ، متنفّساً فى جوّ من الغاز السامّ ، وربّما انفجرت فيه عين ماء ، أو التهب فيه الغاز فيذوق الموت الزؤام ، وإمّا فى مسابك الحديد وقَبسُ النار يلمع فى الأفق ، وآلاف الشرر تتصعّد فى الجوّ ، ومذوب الحديد يجرى كالماء فى الجداول ، إذا مسّ الجسمَ شىءٌ منه ذهبت النفس شَعاعاً .

شجاعة المستكشفين

كذلك تتمثّل الشجاعة فى نفوس المستكشفين الذين يهجرون

أوطانهم وما حوته من نعيم ، لتفقد البلاد النائية ، واستخراج حاصلاتها ، والانتفاع بخيراتها ، ويزيدون رفاهية العالم بما يوسّعونه من الأرزاق عليهم وعلى الناس .

شجاعة الجندى

وتتمثّل فى نفس الجندىّ الذى يخرج إلى الحرب وعلى جسمه العُدد ، والجوُّ متلبّد بالبارود ، يُلْقَى إليه الأمر بالهجوم فينقضُّ على الحصن المسلّح ، وينال منه إحدى السعادتين : الفوزَ على العدوّ أو الموتَ الشريف ، ويبنى له ولقومه حصناً من الفخر ، ومكاناً من الرفعة. ومن لنا بمثل خالد بن الوليد الذى قال وهو يحتضر : « لقد شهدت مائة زحف أو زُهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وهأنا أموت على فراشى كما يموت العَيْر فلا نامت أعين الجبناء » .

شجاعة المخترع

وتتمثّل الشجاعة فيمن يسهرون للمصلحة ويجيدون المخترعات ، ويزاولون التجارب على ظهر البسيطة ، أو فى الجوّ وقرار البحر والموت يهدّد حياتهم . وكم ضحّى بها العلماء ، رغبة فى إدراك طِلْبتهم ، فماتوا شهداء المصلحة العامّة ، كالشخص الذى يخلّص غيره من شرّ أحدق به ، حبًّا فى حياة أخيه ، وإرضاء لضميره الشريف .

شجاعة أصحاب المبادئ

وتتمثّل الشجاعة فى نفس أصحاب المبادئ السامية ، تأمّل نصيحة أمّ عبد الله بن الزبير له ، وقلّما سمعت بمثلها من أمّ إلى ولدها . دخل عبد الله على أمّه فقال يا أمّاه : خذلنى الناس حتّى ولدىّ وأهلى ولم يبق معى إلاّ اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ . فقالت : أنت أعلم بنفسك.

إن كنت تعلم أنك على حقّ فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بنى أميّة . وإن كنت إنّما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن قلت كنت على حقّ فلمّا وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك فى الدنيا ؟ فقال يا أمّاه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثّلوا بى ويصلبونى . قالت : يابنى : إنّ الشاة المذبوحة لا تتألّم بالسلخ ، فامض على بصيرتك ، واستعن بالله

فترى لصاحب المبدأ عقيدة راسخة ينطلق لتأييدها ونشرها ، غير مبال بسخط الساخطين ، أو عقاب الحكّام ، وكلُّ ما يلقاه من العدوان حينئذ يقع فى نفسه موقع القبول . فكم صبر الأنبياء والحكماء على أذى الناس لاعتقادهم أنّ الحقّ ناصرهم . وكم تحمّل جوناس هاناوى (Jonas Hanaway) استهزاء الناس به ، سائرًا فى شوارع لندن فى يوم ممطر ، حاملاً مظلّة اخترعها لم يعهدها الناس من قبل . وقد لبث فى جدّ متواصل حوالى ٣٠ سنة لا يبالى بما يوجّهونه نحوه ، حتّى نجح فى نشر استعمالها .

الشجاعة فى جهاد النفس

هذه الجهود التى استلزمتها الشجاعة على مافيها من السموّ ورفعة القدر ، يراها الحكيم دون شجاعة من يجاهد نفسه فيحضّها على الفضائل ، ويبعدها عن الرذائل ، ولا عجب فإنّ صلاح النفس دِعامة صلاح الأمور .

لا ترجع الأنفس عن غيّها مالم يكن منها لها زاجر

التخويف والتشويق

كانت العقوبات البدنيّة فيما مضى أنجع علاج للتقصير ، حتّى زعم بعضهم أنّ الطفل إذا أخطأ فقد عاد إلى طبعه الفاسد ، ولا يرجعه عنه إلّا الإرهاق . وقد تبيّن لك ممّا كتبناه في باب الفطرة قيمة هذا الرأى . ومن رجا أن يزيد الخوفُ الانتباهَ قوّةً ونشاطا فقد طلب شططا . فإنّه على العكس يدعو إلى البله والذعر ، ويجعل الأمر البسيط صعب المنال . فلو سرق الطفل شيئًا وعوقب بالضرب الذى من شأنه أن تشمئزّ منه النفس . فإنّ السرقة وألم الضرب يرتبطان معًا فى ذهنه ، فيعرض أحدهما عند عروض الآخر على سبيل تداعى المعانى . فيجتنب السرقة لما يترتّب عليها من النتيجة المبغضة . وقد رأى العالم اسبنسر — وهو من غلاة الناقدين لهذه الطريقة — أن لا ملاءمة بين السرقة والضرب ، فإذا أخطأ الطفل فسرق ، لا يليق بالمعلّم أن يخطئ فيضربه ، لأنّه وقتما يريد تقويمه يقع هو نفسه فى ذنب آخر ؛ ونَبالة مقصد التعليم تأبى ذلك ، وتجيز له أن يستبدل بها طريقة العقاب الأدبىّ وهو أشدُّ وقعًا فى النفس ، ذلك أن يأخذ المعلّم من مال السارق ما يفى بالمبلغ المسروق صفقة واحدة أو نجوما ، كى لا يفقد صاحب الحقّ ماله ، ولتقوى الرابطة بين المعلّم والتلميذ .

الجهاد فى إزالة شكوك الطفل

وكم يبلغ تأثير المعلّم إذا تفقّد الشكوك النفسيّة وعمل على إزالتها وأنفذ بصره فى العواطف فاستثارها . لى ابن كان يناهز الرابعة من

عمره أصابه قَبْضٌ « إمساك » فأعطيته كعكة فيها مَشِيٌّ « مليّن » ، وقلت له : إنى اشتريت لك هـذه فـكلْها لتبرأ من المرض ، فرأيتـه وقع فى ريبـة من أمرها ، ولمّا تفرَّست فيـه أنّه عدل عن تناولها ، تخيَّرت طريقة أخرى أضمن لشوقه ، وأبلغ فى قبول نصحى ، هى أنّى رجوته ألّا يأكلها الآن ، بل يبقيها لديه يتأمّـل ما احتوته من حسن رائع ورائحة ذكيّـة ، ولمّا تركته علمت أنّه تناولها طائعاً مختارا .

فالأوامر والنواهى لا تؤثّر إلّا إذا صادفت شوقا ، ولا مانع من أن يدع المعلّم تلميذه يجرّب ما تيسّر من الأمور ليدرك نتيجة تجاربه، وإذا عاد مخذولاً فقلّما عاد إليها . هبك قلت له : « لا تمسك المِبراة لأنّها حادّة وأخشى أن تجرحك» . أتراه يطيعك ويعمل بنصيحتك؟ كلاّ . لكنّه إذا أمسكها وأساء استعمالها ، ثمّ أصابه جرح فجئت إليه وذكّرته بالضرر الذى نشأ من سوء استعمالها ، وأريته وجـه الخطأ ، وأظهرت له العطف والشفقة ، وأرشدته إلى الطريقة المثلى ، فإنّه يكون لك سميعاً مطيعا ، وتـترتّى فيه الإرادة الصادقة والنظر السديد .

فطريقة التشويق تلطّف الطباع ، وترهف حدّ الإرادة، وتقوّى عرا المودّة . وطريقـة الإرهاب تسقم البدن ، وتدفع الفكر إلى العمل قسرا . ولو تأمّـلت هاتين الحالين لوجدت فى كلّ منهما منزعاً مفيدا. على أنّ شئون الاجتماع لا يستطيع أن يصوغها الإنسان على وَفق هواه فمرّة تحلو ومرّة أخرى تَمَرُّ . ومن لم يمرّن نفسه على وقع المصائب شقّت عليه ، ولا يستطيع على طول الزمان مكافحتها ؛ لذلك كان

الأخذ بالتشويق وحده أو بالإرهاب وحده خروجاً بالتعليم الصحيح عن الجادّة القويمة . والحكيم من يُدمج الأمرين كما قال عمر بن الخطّاب : « لين فى غير ضعف وشدّة فى غير عنف » أو كما قال الشاعر:

« فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم »

---

٣) غريزة الهرب



إذا التقى القط بكلب فأعراض الفزع تبدو عليه : يَقِفُ شعره ، وتتقفّع أعضاؤه ، وينتفخ بطنه ، ويكشِر عن أسنانه ، ويرتفع صوته .

يفعل هـذا فعلاً غريزيًّا متى أحسَّ من نفسه ضعفاً أمام عـدوّه ، ليزعجه بهـذا الانقلاب الغريب قبلما يتّخذ إلى الفرار سبيلا . وترى السبع وهو سيّد الحيوان يركن إلى الحيل عند لقاء عدوّه ، فيخشع أو يتقهقر حتّى يستجمع قوّته ، ثمّ يتحيّن الفرص للافتراس . وقـد جاء في المثل : مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ [١]

إنّ الشجاع إذا فاجأه الخوف لا تَفتُر همّته ولا تتزعزع عزيمته ، بل يتريّث ليوازن بين قوّته وقوّة خصمه ، ويعالج الأمر لعلّه يجـد مجالاً للفوز ، وإلاّ التمس طريق الفرار صوناً لحياته ولا عار عليـه ، وينشط الجسم حينئذ نشاطاً قلّما خطر له ببال . فقد حدَّث أحـد السائحين أنّه رأى رجلاً فارًّا من أسـد يحاول افتراسـه ، وفي أثناء فراره تسلّق جداراً عالياً ، ولمّا زال الخطر عاد هذا الرجل إلى تسلّق الجدار فشقّ عليه. وربّما لا يحصل الهرب وإنّما يقوم مقامه الاضطراب إذا اشتدَّت وطأة الخوف ، كالذهول الذي يحسّه المستيقظ وقد شُبّتْ النار بمنزله . وربّما برَق شعاع من نور عقله يثير فيه النشاط إلى إخماد النار أو الفرار طلباً للمساعدة . وكالفزع الذي ابتأست به قلوب اليابانيّين من الزلزال الذي نُكبت به البلاد في صيف عام ١٩٢٣ ، فقد كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان ، تكتظّ أرجاؤها بالقصور الضخمة والشوارع المعبّدة ، وأهلها مسوقون بالمطامع ، يدّخرون الأموال لعمر مديد ، وعيش سعيد ، وفي غضون خمس دقائق

(١) ساكن لداهية يريدها

اندكّت تلك الصروح ، وغارت فى الأرض تلك الأبنية ، وغضبت الطبيعة فجرّت من الويلات ما جرّته تلك الحرب الضروس فى مدى الخمسة الأعوام .

مادت الأرض وانشقّت طرقاتها فابتلعت الغادين والرائحين ، وخرّت المبانى على رءوس الساكنين ، واندلعت ألسن النيران ، وهاجت أمواج البحر ، فهلع القوم من شر ما رأوا ، وانطلقوا على غير هدى يحاولون الخلاص ، وكلّما خرجوا من خطر تلقّاهم غيره ، ومن نجا من هذا وذاك بات عرضةً للجوع والعطش والعرى .

هكذا ازدحمت عوامل الهلاك ، فأطارت لبّ العاقل ، وروّعت قلب الشجاع ، وخرجت البلاد من هذا المصاب دامية الجروح مَهيضة الجناح . ولولا صدور مفعمة بالشجاعة وقلوب لم يتسرّب إليها اليأس لباتت اليابان أثراً بعد عين .

رأى وليم چيمس أنّ الاضطراب من الفزع يحصل عقب الإحساس به ، ويحصل الخوف تبعاً للاضطراب ، وانتقد قول بعضهم فلان ساءه حظّه فحزن ثمّ بكى ، ورأى فلان عدوّه فخافه ثمّ فرّ . لأنّه يرجّح تقدّم البكاء على الحزن فى المثال الأوّل ، وتقدُّمَ الفرار على الخوف فى المثال الثانى ؛ واستدلّ على رجحان رأيه بالاضطراب الذى نحسّه أوّلاً متى بدأنا بالمسير فى طريق مظلمة ، ومتى باغتنا صوت مزعج ، ومتى رأينا صاحباً يتقلّب على مهاد الآلام

وقد اتّبع وليم چيمس هنا طريقة القرآن المبسوطة فى هذه

الآيات من سورة الكهف : « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُود . وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (١) لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » فإنّ تقدُّم ذكر الفرار على الرعب يشير إلى الترتيب الزمانيّ فى الجملة .

---

٤) غريزة الغضب

هى كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول ، ولا صلة بينه و بين المعانى التى تفرّغ لها الذهن . وتخالفها فى أنّ الخوف يحمل الإنسان على الهزيمة والفرار ، وأنّ الغضب يفضي إلى الهجوم والاشتجار .

عند الغضب يُسْرِع الدم إلى القلب كما يحصل عند الخوف ، ثمّ يثور فينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن فيحمرُّ الوجه ، وينتفخ الودَجان ، ويجيش الصدر ، ويَعْبس الوجه، وتنكشف الشفتان عن الأسنان ، وينطلق اللسان بالإقذاع ، وتتأهّب الأعضاء للفتك كالوحش الضارى ساعة الافتراس ، وقد مثّل الإمام الغزالىُّ الدماغ عند الغضب بكهف أضرمت فيه نار فاسودّ جوُّه ، وحمى مستقرُّه ، وامتلأت جوانبه بالدخان وكان فيه سراج مضىء فانطفأ نوره .

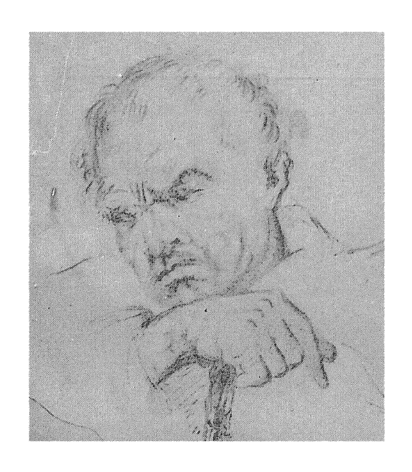
---

(١) الكهف

أعراض الغضب



ومتى احتدم الغضب فى شخص وتوهّجت سَوْرته ، واعبت بالعقل شدّته ، حمل على ارتكاب الجرائم من غير مبالاة ، وأثار الحرب من غير عناء ، وأوعز إلى الانتقام ممّن حوله ولو لم يكن لهم به صلة ، وشفى الغليل بالأذى وفعل ما يتحاماه العقلاء . يخسر المقامر فيهيج غيظًا ويمزّق أداة اللعب ، وتَعْثُرُ الرجل بالحجر فتدقّه بالأرض دقّا ، ويكره الآكل الطعام فيكسر صِحافه ، ويسمع المجرمُ الحكم الصارم فيسبُّ القاضى ، وكثيرًا ما نسمع حوادث الانتحار من جرّاء ثوران النفس عند الغضب .



وقد روى أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك فتح المصحف فوقع بصره على هذه الآية «وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد» فغضب ومزّق المصحف، ونطق بقوارص الكلام فقال:

تهدّدنى بجبّار عنيد فهأنذاك جبّار عنيد
إذا ماجئت ربّك يوم حشر فقل: يا ربّ مزّقنى الوليد

كذلك سمع المأمون على جلال قدره مدح العكوّك فى أبى دُلَف:

فإذا ولّى أبو دُلَف ولّت الدنيا على أثره
كلُّ من فى الأرض من عرب بين باديه ومحتضره
مستعير منك مَكْرُمَة يكتسيها يوم مفتخره

فغضب المأمون واعتذر له العكوّك بأنّ المأمون وآل بيته لا يقاس أحد بهم ، ويعجز لسان المديح عن تقدير وفير مآثرهم ، فلم يُقِم المأمون لهذا الاعتذار وزناً وأهدر دمه . ونحن إذا أنكرنا على المأمون سَوْرَةَ الغضب فى هذا المقام وفى غيره ، والتصدّىَ لإهانة العلماء الذين كانوا يذهبون إلى ما يخالف رأيه ، فإنّنا لا ننكر على أخيه المعتصم سَوْرة الغضب التى سادت عقله حينما سمع قول العربيّة فى أرض عمُّورية من إقليم الروم : « لا معتصماه ولا معتصم اليوم » فإنّها أثارت فيه حميَّ العرب ، ولم يبال حينئذ بنصائح الذين تخرّصوا وكذبوا وأرادوا صدّه عن الغزوة وعن انتصاره للبائسة الحزينة ، وقد انطلق بذلك لسان أبى تمّام فى قصيدته التى مطلعها :

السيف أصدق إنباءً من الكتب فى حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

لا ننكر الغضب الذى يتولّانا من رؤية المُنْدِيات المُخْزِيات التى يندى لها الجبين حياء . ومن سماع المكابرة فى المناظرة ، ومن التمسّك بالرأى الذى لا يستند إلى الدليل ، ولدى إغفال الحقّ ، وإنكار الصدق ، وعند الازدراء ، وفى مواطن الإيذاء ؛ فكان المصطفى يغضب فتحمرُّ وجنتاه ، ولم يخرجه الغضب عن محجّة الصواب ، حتّى صحّ ما يقول أرسطو أىُّ انتصار ينال فى الحرب بلا غضب ؟

إنّ الغضب كالأفعى ذات الملمس اللّيّن إذا بطشت غدرت ، وكالقوّة الغاشمة إذا حكمت ظلمت ، وكسيل الماء ذى اللجّة الجارفة لا يأمَنُ من عثاره ، مَن سار فى تيّاره ، حتّى لقد أشار المصطفى على

من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له : « لا تغضب » ، ويعسر على غير الحكماء أن يضبطوا شكيمته ، ويخففوا وطأته .

إنّ الغضب إذا هبط بمقدار مناسب كان منبّهاً للحميّة ، محرّكاً للنفوس الأبيّة ، موقظاً للنخوة ، مثيرًا للشجاعة والفتوّة

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له   بوادر[1] تحمى صفوه أن يكدّرا

كظم الغيظ

قال ابن الرومىّ :

« توقّى الداء خير من تصدّ   لأيسره وإن قرب الطبيب »

فينبغى للعاقل ألّا يتأثر بفواعل الغضب ، وأن يحارب وسائله ما استطاع ليكون عاملاً بأوامر الله تعالى : « وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ» ولقد صدقت عزيمة رجلين سارت الركبان بشهرتهما فى السماحة والحلم: معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس . كان معاوية يسمع كلام الناقد فلم تأخذه ضغينة ولم ينقم منهم ، وإنّما كان هذا يدفعه إلى توخّى العدالة ، وإزالة أسباب المظالم ، ولا تسل عن ثمرات صنيعه فكانت كلّها خيرًا وبركة . ومن مأثور حِكَمِهِ « لو أنّ بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعت » . ولما سئل عن ذلك قال : « كنت إذا

(١) البادرة : ما بدر من الحدّة من القول والفعل فى وقت الغضب

مدُّوها أرخيتها ، وإذا أرخوها مددتها » . وأمّا الأحنف فقد جاءه رجل وأخذ يسبّه والأحنف مطرق صامت ، فلمّا رآه الرجل مُعْرِضاً عنه أقبل يَعَضُّ إبهامه ويقول : يا سوءتاه ، والله ما يمنعه من جوابي إلّا هواني عليه .

بُلي سقراط بزوجة شرسة كانت تكيل له من ألفاظ السِباب ما ليس له به طاقة ، وضاقت أمامه الحيل لتثقيف طباعها ، فأشار عليه جُلّاسه ومريدوه أن يطلّقها فأجابهم « إنّي لا أحنَق عليها لأنّها بهذه المعاملة السيّئة تعلّمني فضيلة الصبر » .

وروى المويلحيّ أنّ ملكاً سمع اثنين من حرّاسه يذمّانه من وراء خيمته، فرفع الستارة وقال : « ابعُدا قليلاً خشية أن يسمع الملك محاورتكما » .

وقال ابن المقفّع : « إنّي علمت موطناً واحداً ، فإن قدرت أن تستقبل الجدَّ بالهزل فيه أصبت الرأى وظهرت على الأقران ، وذلك أن يتوَرَّدَكَ متورّد بالقَسَّة [١] والغضب، فتجيبه إجابة الهازل المداعب برُحب من الذرع، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق » .

هذه المرتبة من التسامح لا تنال إلّا بتوفيق من الله ، وتوطين النفس على المكاره ، واحتمال أذى الناس ، والترفّع عن نقائصهم ، كما يترفّع السبع فى قفصه عن النظر إلى من يحصبه . وما أحرى المستاء أن يلتمس المعاذير للمسيئين بأنّهم ليسوا من المكانة بالدرجة التى يُعتدُّ بها، أو بأنّهم أساءوا من غير قصد ولا إرادة ، أو بأنّهم قصدوا الإساءة

(١) قارص الكلام

ليتعرّفوا مقدار ما يُسْديه المحسن من المغفرة فيكفّروا عن ذنوبهم ، ويرجعوا باللائمة على نفوسهم . وقد اتّسع لهذه الأحوال صدر هذه الآية الكريمة : « وَلاَ تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » .

نعم لا يليق بنا أن نجبن أمام إساءة المسيئين لئلاّ يستهتروا بنا ويزيدونا بلاء . وإنّنا لو أنصفنا أنفسنا لأسعفنا المسىء بحلم نداوى به خُرْقه لعَلَّه يُكْبِر النعمة ، ويشكر الصنيعة ، ويزنها بميزان عقله . حتّى إذا رأينا فيه نزوعاً إلى الشرّ علمنا أنّنا غرسنا المعروف فى أرض قاحلة فنستبدل بالإحسان . عقوبة الحرمان .

التجلد

ويكون كظم الغيظ بالتجلُّد والتسلّى ؛ أمّا التجلُّد فهو نهاية ماتبلغه نفس الحليم من الصبر ، وهو مفتاح الهَوَادَة والأناة . وأبلغ مانستشهد به فى هذا المقام ما حكاه المويلحىّ أنّ وزيرًا أراد أن ينصح الملك باجتناب الخمر ، لأنّه يخذل النفوس فى مواطن الإصابة ، فلم يَرْتَحْ ضمير الملك إلى هذه النصيحة التى أثارت فى صدره نار الغيظ فهمّ بالانتقام : أمر بالأقداح فمدّت ، وأخذ يحسو الشراب حتّى امتلأ ، ثمّ أمر بابن الوزير فأجلسه على مرمى سهم ، وقال لأبيه سأريك إذا كان للخمر تأثير فى قواى العقليّة ؛ وهنا رمى السهم عن القوس فأصابه فى قلبه إصابة أسقطته على الأرض صريعاً مضرّجاً بدمه. رأى الوزير هذا المنظر الفظيع فتجلَّد، وقال للملك : فملك هذا — أيّها الملك — قد بلغ من الإصابة حدًّا لا يستطيع إله الصيد والقنص أن يدركه .

فقدّر شأن هذا الحلم السديد ، والنظر البعيد ، فى أشدّ ساعات المحن ، وأفتك خاطرات الرزايا ، ولو بدرت منه إذ ذاك فلتة من كلامه أو حركات أعضائه لكان هو وأهل بيته وَقودًا للظى غيظ الملك .

التسلى

ومن مخففّات الألم المثير للغيظ استذكارُ حوادث الماضين ملوكًا كانوا أو أمراء ، والمصيبة إذا عمَّت هانت . فكم سمعنا عن ملوك أصبحوا من الرعايا ، وأمراء أذاقتهم الأيّام مرارة البلايا . وحيثما كان الإنسان عرضة للنوب والغِيَرَ فما أحقَّه إذا حُمَّ القضاء أن يستسلم لحكمه ، ويذَر الغضب بفائق حزمه . وليس فى الشكاية من بلاء سوى أنّها تفتح للشامتين أبواب المهانة والازدراء .

رؤية الغاضب وجهه فى المرآة

هل للغاضب أن ينظر إلى وجهه فى المرآة وقت الغضب ؟ إذا فعل ذلك وجد وجهه الذى يقطر ماء البشر منه قد تلبّدت به غيوم الكآبة ، فصار قاطبًا عابسًا كالحًا مكفهرًّا ، كما ترى فى الشكل الآتى

تجنب الحسد

ومن ذرائع كظم الغيظ اجتناب الحسد . والحاسد يتطلّع دائمًا إلى نعم الله على عباده فلا يهنأ له حال . هلّا علم أنّ الرزق مقسوم ، بقدر معلوم . يَحِقُّ له أن يفرح إذا رأى مظهر النعمة فى أخيه فيتمنّى له أن يقتبس منه العلم والجاه والقوّة ، وقد أشفق أبو الحسن التّهامىُّ على حسّاده بقوله : —

إنّى لأرحم حاسِدِىّ لشرّ ما	ضمّت صدورهمُ من الأوغار
نظروا صنيع الله بى فعيونهم	فى جنّة وقلوبهم فى نار
لا ذنب لى قد رمت كتم فضائلى	فكأنّما برقعت وجه نهار



وسترتها بتواضعي فتطلّعت أعناقها تعلو على الأستار

والمرضى وأصحاب المطامع عُرضة لبلايا الغضب ، فليخفّف الإنسان على نفسه وقع المرض وثقل المطامع

مالي أراني إذا ما رمت مرتبة فنلتها طمحت نفسي إلى رتب

وكثيرًا ما يفشل وهو يطلب الأمر الواحد ، فكيف به إذا تشعبت المطالب وخرج من الجميع صفر اليدين ؟

علاج الغضب

وإذا ساورتك هموم الغضب فأخلد إلى السكون ، لأن الحركة تحدث الحرارة وهي تثير الغضب . وفي الحديث « إذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء » . عليك أن تتعهد بدنك بالنظافة ، وجسمك بالتنزه ، وأحشاءك بالرعاية ، وعقلك بالراحة . وعليك أن تزيل عن صدرك صدأ الهموم بترتيل الشعر ، وسماع الألحان ، وإدمان النظر إلى بدائع الكون ، والسير في الرياض وبين الأزاهر . وعليك أن تركن إلى مجالسة العلماء ومحادثتهم ، فإنهما لحرّ الغضب بردٌ وسلام .

المعلم والغضب

علمت أن الذهن ساعة الغضب يختل مزاجه ولا يعود قادراً على أن يجول جولة صادقة في تربية النشء ، وقد يثور لأقل الأسباب ويبطش ، ويذهب في ميدان التعذيب مذاهب شتى ، ولذلك اشترطوا في المعلم أن يكون من الحلم والأناة والهوادة وترقب المصلحة بحيث يتمالك نفسه ويصدها عن الغضب إذا قصّر التلميذ في واجبه العلمي والأدبي . وأجدِرْ بالمعلم أن ينقب عن أسباب هذا الإهمال ويحاسب نفسه لعله يكون قد فرّط في بيان الدرس ، أو جاوز حدًّا لا يستطيع

ذهن الطفل تمثيله و إدماجـه فى سلك معلوماته . نعم إن التلميذ إذا أوجس خيفة من صارم العقاب يخمُد فكره ويقف عنـد فهم أسهل المسائل ، وربّما داهن أو راءى وقلبه مملوء بالكراهة ، فيلتبس على المعلّم مسلك الصواب ، ولا يقدر على درس أطوار الطفل من خلال حركاته . على أنّ الغضب — مهما كان قليلًا — يجرّ إلى عواقب بينها وبين التأديب بون بعيد . ويحسُن بى هنا أن أورد أمثلة تؤيّد ذلك.

رأى والد فى ابنـه إهمالا فهـمّ بإنفاذ العقوبة ، فاتّقاها الولد بالهرب ، ولمّا لم يدركه الوالد رماه بكرسىّ أصاب فى رأسـه شريانًا فأدماه ، فندم الوالد ورجع خائبًا أسفًا من شرّ ما فعل .

غفل طفل عن حفظ درسه فأوقعه المعلّم تحت طائلة العقاب ، وضربه بمسطرة ضربة مُبَرِّحَـة فجرح يده ، شقّ ذلك على المعلّم فاستعان بغيره على تضميد الجُرح وتخفيف لوعة الألم ، ولمّا اطّلع والد الطفل على ما حصل استفظع العقوبة، وشفى غليله من المعلّم بشكايته. فانظر كيف أدّى الغضب بالمعلّم إلى الخرق فى الرأى ومضاعفة العذاب، « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

خرج طالب عن حدّ الأدب فى أثناء الدرس فهاجَ سخطَ المعلّم ، ولَعَلّه أسرف فى العقوبة وكاشف التلاميذ بأمرها ، بَيْد أنّ الناظر استعظم العقوبة واستبدل بها التأنيب إحقاقًا للحقّ ، فتزعزع بعـد ذلك مركز المعلم ، ولم تَعُد عقوباته مرموقة بعين الاحترام .

سمع معلّم فى درس الخطّ رنّة صوت تـتردَّد فى أنحـاء الحجرة ،

وضاق ذرعاً بتمييز نوعها ومكانها وفاعليها ، فأمر تلاميذه بترك الكتابة فأطاعوا ، وألزمهم وضع أيديهم على التخوت فأجابوا ، وعلى الرغم من هذا وذاك لبث الصوت على حاله ، ولمّا أعيته الحيل سأل عنه فأرشده بعضهم إلى أنّه يؤدّى بصكّ مؤخّر اللسان بالحَنَك والفم حينئذ موصد.

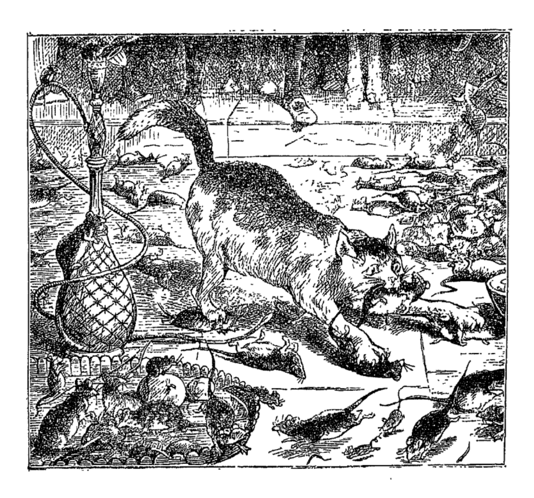
هذا قليل من كثير لو أراد المنقّب أن يبسطه لا تّسع به المجال ، لأنّ حوادث الغِضاب كالشرر تتصعّد من النار المتأجّجة لا نكاد نحصيها . والتلاميذ أكثر الناس مهارة فى المكر ، يزنون فطانة المعلّم بما يبدونه من أمثال ذلك ، فإذا آنسوا منه امتعاضاً وزللاً وانطلاقاً فى الغضب استهتروا به ، وزادوه همّا ، ودبّروا له المكايد ، وألصقوا به التهم . وإذا عرفوا فيه الاقتدار والحكمة هابوه ، وامتلأت عيونهم وقلوبهم منه مهابة واحتراما .

---

٥) غريزة القهر والغلبة



عند مسيس الحاجة تنزع النفس بطبيعتها إلى المنازعة والمدافعة



والمجالدة واللجاجة (١) مبدية ما عندها من قوّة تحقّق بها الفوز . تأمّل القطّ هنا وإسرافه فى البطش بالجرذان (٢) يطاردها ويسدّ عليها المنافذ ، ويغتالها بمخالبه الحادّة وأنيابه المسنونة ، وكثيرًا ما تقف أمامه مذعورة من هول الموقف فتسهّل له سبيل الفوز عليها والفتك بها . والديَكة يهارش بعضها بعضا ، والخرفان تتناطح ، والديك الرومىّ يهاجم لابس اللون الأحمر القانى ، وربّما كان هذا اللون رمزًا للحرب فى نظره

(١) التمادى فى الخصومة (٢) جمع جُرَذ نوع من الفأر

والإنسان يبطش بقوّته البدنيّة وبما عنده من قوّة العقل والتدبير ، فيخترع العُدَد والأسلحة ويصيد ما شاء من ضوارى الحيوان وكواسر الطير ولو بعيدة عنه ، وإذا تجرّد من إنسانيّته جرّد سيفه على أخيه ، وبطش به ، وأنذر بشرّ مستطير ، وهدّد سلامة العالم . ومن أجله قالت الملائكة للبارئ جلّ وعلا : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماء » . واختال بقوّته فخدعته وحالت بينه وبين الحقّ ، فقديماً اعتدى أحد أبناء آدم على أخيه « فَطَوَّعَتْ [1] لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ » . ومن ممارسته لقوّته واعتماده عليها فى أطوار حياته وعدم اكتراثه لتحرّى سبل الحقّ تسرّبت بالوراثة منه إلى ذرّيّته ، فبدت فى البدوىّ والحضرىّ وفى العالم والجاهل وفى كريم النفس ولئيمها « والكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع »

على الفروسيّة وحدها معوّل البدوىّ ، فبها ينصب نفسه زعيماً على قومه ، ويبذّ أقرانه فى حومة الوغى ، ويصول على من يغمط حقّه ، وينازل من يمسّ كرامة عشيرته ومن يلوذ به ، ويبلى البلاء الحسن فى المحافظة على شرفه ، حتّى أصبح الأخذ بالثأر من أقصى أمانيّه . بذلك مجّده الناس وكرّموه وتماجَدُوا [2] به وأحلّوه سويداء قلوبهم، وأكبروا قدره وتنافسوا فى الانتماء إليه بالقرابة والمصاهرة ، وعاونوه على تنفيذ أغراضه ، وجادوا له بنفوسهم لاعتقادهم أنّ وصمة العار لا يزيلها إلّا الأخذ بالثار ، كما تزيل النار خبث المعادن

(١) سهلت (٢) تفاخروا وأظهروا مجدهم

أمّا سكّان المدن فشغلتهم حضارتهم ورفاهتهم عن المصارعة البدنيّة ، وعدّوا عمرهم أغلى من أن يقامروا به ؛ فأنابوا عنهم حكومة يقظة مسلّحة ، وكلّفوها الذود عنهم في الوقت العصيب ، واستعانوا بها على حماية حقوقهم ، ثمّ وجّهوا قوّتهم إلى تذليل القوى الطبيعيّة واستخدامها لتشييد قواعد العمران وترقية شئون الجماعات . بذلك استعاضوا عن خشونة البدوىّ دماثةَ الطبع وزيّنوا بها مجتمعاتهم ، ورفعوا شأن من تحلّى بها فصارت غريزة من طول ممارستها . ولا تكاد ترى عند أحدهم من الجراءة البدنيّة ما تراه فى البدوىّ ؛ بيد أنّ طبيعتهم الأصليّة لا تزال تتغلّب عليهم فيتحيّنون الفرص للإفلات من وطأة القانون ، ويتّخذون من أسنّة ألسنتهم وقواطع حججهم ما هو أشدّ بأساً من الحسام ، وإذا أعيتهم وسائل الإقناع واستمرّوا على تعصّبهم لرأيهم خرجوا من حظيرة المجادلة إلى المشادّة ، فهدّدوا وأوعدوا . قال المتنبي فى هذا المعنى وأجاد :

إنما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا

من أطاق التماس شىء غلاباً ... واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

كلّ غاد لحاجة يتمنّى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا

المبارزة

ومن دلائل تمجيد الناس للقوّة البدنيّة إكبارهم لأبطال الحروب ، والمبارزة من أشدّ الوسائل لاحتدام الخواطر وجيَشان القلوب وإضرام نار الحرب . يبرز من الجيشين بطلان للمشادّة والمغاضبة ، ثمّ ينتصر الفريقان كلّ لصاحبه ظالماً كان أو مظلوما .

وربّما كانت المبارزة آخر سهم فى كنانة المتحاربين ، ومفزع زعمائهم حقناً لدماء المستميتين . فقد دارت رحى الحرب بين على ومعاوية بيعت فيها النفوس بالثمن البخس ، وخشى المسلمون اتّساع نطاق الفتنة ، فتقدّم علىّ إلى معاوية وقال له : « علام يقتتل الناس هلمّ إلى الله فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور » وهذا مما امتاز به علىّ من ضروب الحكمة . ومن غلب عقله هواه ، وقلب العداوة صداقة ، والمكافحة مصالحة ، والحرب سلما ، كان أولى بالإعجاب وأحقّ بالإكبار ، ومثل علىّ من يجود بحياته لتقليم أظفار الفتنة

وإلى عهد قريب كانت المبارزة مرجع المتنازعين يلجئون إليها للفصل فى أمورهم . والمتفرّجون يتهافتون على ميدانها . هاتفين مصفّقين لمن يحوز الفوز ، وهو يُعَدّ صاحب الحقّ فى نظرهم ولو كان فيه دعيّا . ولكى لا يتفاقم الشرّ يقف الأطبّاء من ورائهم لتضميد الجروح وإسعاف المصاب ، ومتى شهد له الحاضرون بالفخر برد دمه الثائر ، وانثنى إلى المهزوم عاطفاً عليه متقدّماً إليه بوجه باشّ وصدر رحب ، ويده ممدودة للمصافحة إيذانا بأنّ صلة الودّ قد عادت ، وأوضار الضغينة قد التهبت واحترقت .

والناس تلقاء هذه الغريزة صنفان : صنف بالغ فى قهر غيره استرسالاً منه فى مطالب هذه الغريزة ، ومنهم قدامى الإغريق ومن جرى على شاكلتهم فقد اتّخذوا للحرب إلها ، وبلغ استهتارهم بالضعفاء

حدًّا ممقوتا ، ذلك أنّهم كانوا يرمون الطفل من حالق[1] متى تسرّب إليه المرض الذى يشلّ أعضاءه فيصبح مغلوبًا على أمره ، كلا على أهله وعشيرته ، عائشاً فى بوائق الذلّ ، منذرًا بذرّيّة سقيمة ، والحياة تتطلّب الجهاد الدائم لمصارعة الشدائد والنوازل ، وما لم تتحقّق فى الإنسان بشائر القوّة فالموت خير له . بهذا وبغيره ضلّ أتباع هذا المذهب وغلّبوا اليأس على الرجاء ، وجرّدوا قلوبهم من حلية الرأفة وهى أكبر مزايا الانسان . ينصبون الفخاخ للضعفاء ، ومتى صادوهم ارتكبوا معهم الفظائع وأذاقوهم مرّ العذاب ، وكلّما سمعوا منهم تأوّهًا استخفّهم الطربُ فازدادوا سرورا ، وهؤلاء هم المردة الجبابرة السفّاكون لدماء الأبرياء . وصنف آخر استعانوا بالقوّة لتخفيف ويلات الإنسانيّة ، يجودون بمالهم وعمرهم ، ويتجاوزون عن حقّهم فى القصاص ، وما العفو إلّا عند المقدرة ، فهؤلاء قد شايعوا دين الفطرة فى أسمى مبادئه المبسوطة فى هذه الآية « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِين »

ثمّ كانت الرحمة المطلقة شعار فريق من الهنود ، حرّموا ذبح الحيوان استفظاعاً لتعذيبه ، واستنكاراً للنزول فى الفتك إلى مستوى الحيوان ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرّىّ الذى عاش نباتيّا ، ومن شدّة تمسّكه بمبدئه كفّ عن أكل اللحم حتّى فى وقت الحاجة ، فقد روى أنّه مدّ يده يوماً إلى طعام وصفه الطبيب فوجده دجاجة ، فامتنع عن

(١) الجبل المرتفع

الطعام وخاطبها بقوله « استضعفوكِ فقتلوكِ هلّا قتلوا شبلا »

ومن يتفقّد حالنا الاجتماعيّة ير أغرار الأقوياء يهزءون جهارًا بالضعفة ، ويناوئونهم ، ويستحلّون أموالهم ، منتحلين الأسباب التى تخوّلهم ارتكاب الظلم ، وهى ديدن أهل النقيصة والإثم . وربّما أيّدوا مذهب الاشتراكيّة فيقولون: مابالنا نرى الناس متفاوتين فى اليسار ، وأخاق بالأقوياء أن يكونوا به ممتازين . وربّما استبدّوا فاعتقدوا أنّ الناس فطروا على الظلم ، واحترموا الظالمين ترويجًا لمذهب زهير بن أبى سلمى « ومن لا يظلم الناس يظلم » ، وربّما تمثّلوا بقول الإباحيّين

من راقب الناس مات غمًّا ‌ ‌ ‌ ‌ وفاز باللذّة الجسور

أمّا القوّة الغاشمة فهى عارية مستردّة ، يذهب بزوالها فضل المستندين إليها ؛ ولنور الحقّ ضياء لامع ، ولشدّته هيبة تخرّ لها جباه الجبابرة ، فإذا ما برق امتدّت له أعناق البائسين ، وساروا بهديه مسترشدين . إنّ رفع العقيرة بالحقّ من دون الاستنصار بالقوّة لا يجدى ، لأنّ صوته وحده فاتر ، وسلاح القوّة وحده قاهر ، وقسطاس العدل لا ينصب إلّا بتناصرهما وتوازرهما ، ومن جاهد فى الحياة بدونهما معًا فلا محيص من انهزامه . وكما تكون القوّة بالسلاح تكون باجتماع القلوب ومعاضدة الأيدى وطهارة النفوس من أوضار الحقد ، عند ذلك يستند كلّ إلى صاحبه كما تستند الصخرة إلى الصخرة ، فيكون منهما بناء راسخ يكافح الحدثان على ممرّ الزمان

الأمم كالأفراد تثيرها القوّة ، فتلهو عن الحقّ وتستهتر بالضعيف ،

وتريد أن تحافظ على عظمتها فتشيّد الحصون وتعبّى الجنود ، وإذا سئلت ما ذا تقصد من وراء هذا ، أجابت بأنّ الاستعداد للحرب من ذرائع السلم ، ثمّ تخونها عقيدتها المتكلّفة فتتنصّل بسفساف الامور لتسوّغ إصلاء نار الحرب ، فتندفع إليها من غير حساب لعواقبها اندفاع السهم إلى الرميّة . ومع أنّها تعلم أنّ الحرب تجرّ الشرّ على الغالب والمغلوب على السواء ، فإنّ بوارق الأمل بالانتصار تتلألأ أمام عينيها ، والنصر معيار لقوّة الشعوب ، وعليه مدار عظمتها وفخارها . على أنّ طبيعة القهر كمينة فى النفوس تظهرها القوّة ويخفيها الضعف ، والسنن الكونيّة لا تدافع ولا تعارض ، وليس للكائنات منها مهرب . والحرب من لوازم الحياة تقتضيها سنّة تنازع البقاء ، وربّما تهادنت عناصر الموجودات زمنًا ولكنّها تعود إلى الخصام ، فهدنتها على دَخَن[1] ، إليك الصخر الأصمّ تخرج ناره إذا قُدِح فيه ، والأشجار الكثيفة فى الأحراج تحرّكها الرياح فتحتكّ فروعها بعضها ببعض وتشتعل ، وقد جاء فى المثل « فى كلّ شجر نار ، واستمجد المَرْخُ والعفار[2] . وجوف الأرض فى سعير دائم يندفع ماء البحر إليه ، فإذا لمس النار استحال بخارًا تميد من زلزاله الأرض ، وتخرّ من بطشه رواسي الجبال فتتناثر جزرًا ووهادا . وقد يخرج البخار من شقّ أرضيّ جاذبًا معه مذوب المعادن والأحجار فتتراكم وتحدث الجبال . والماء يتأثّر بالشمس فيستحيل بخارا ، يذهب إلى الجوّ صُعُدًا وينعقد سحابا ،

---

(١) صلح على فساد (٢) استكثرا من النار . والمرخ والعفار كلاهما شجر الورى

ثمَّ يتكاثف وينزل إلى الأرض ماء . والحيوان يتغلّب على النبات ، والإنسان يسطو على الحيوان ، وعلى الإنسان تتغلّب عوامل الفناء فيموت ، وتمتزج أشلاؤه بالتراب ويصير غذاء للنبات ، وهكذا تنتقل الكائنات من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة بنظام دقيق لا يعتريه فتور ولا يصادفه خلل

تثقيف هذه الغريزة

كلُّ شيء فى نظر الطفل داخل فى حدود الممكنات ، فإذا نال ما طلب فقد لبّى نداء غريزة الملك واستراح ، وإلّا فإنّه يغضب فتتنبّه فيه هذه الغريزة وما تنبّهت إلّا لتريح أعضاءه الهائجة بالصياح والعويل والتمريغ على الأرض ولطم الوجه وتمزيق الثياب ، ولا يزال كذلك حتّى تخمد ناره وتهدأ ثائرته . ومن ذا الذى يستطيع كتمان هذه القوّة التى تنوء بحملها صدور الأقوياء ، فالعين تذرف الدمع تلطيفاً لحرارة الحزن ، والقلب يفزع إلى الصراخ تخفيفاً لوطأة الفوادح ، وهذا ما صيّر النسوة أصبر من الرجال على حمل المصائب ، وما أحكم الخنساء فقد استذرفت الدمع عند ما نُكبت بوفاة أخيها فقالت

أعينيَّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى

والإغضاء على بوادر الغضب أخفّ ضرراً من قمع القوّة المتهيّجة ، والعاقل من يقابلها بالملاينة والملاطفة والمباحثة فى أسبابها حتى يهدأ الخاطر الثائر . روى أنّ ابن الراوندىّ قال

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبُهُ … وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة … وصيَّر العالِم النحرير زنديقا

فهاج لسماعهما أحد الحمقى ، واستفظع صدورهما من عالِم دينىّ وهمَّ بقتله ، فمضى قُدُماً إلى مصر وقابل ابن الراوندىّ عرضا ، وكاشفه بجلىّ الأمر ، فرأى ابن الراوندىّ من الحكمة أن يتنكّر ، ملتمساً له عذرا فى هذا التعصّب الذى هو من بلايا الجهل . ثمّ أخذ يستطلع رأيه فيما اعتزم عليه ، ويحادثه فى شئون الحياة المعقّدة ، ويطلعه على عجائب الخلّاق ، فى قسمة الأرزاق ، ويريه العالِم بائساً محروما ، والجاهل منعّماً قرير العين مخدوما . وما زال ابن الراوندىّ به حتّى أقنعه بصحّة ما سمع من الشعر فهدأ مزاجه المضطرب

وللجماعات حماسة يبدونها فى المواقف الدينيّة والوطنيّة تألّماً من شيء تستنكره ، فتهيّج أعصابها ويتولّاها اليأس ، وتسير فى السبل هاتفة صارخة . فإذا أرغمها حفّاظ الأمن على التزام السكينة اعتقدت أنّها صودرت فى شعورها ، فيزداد ألمها ، ويقودها الانفعال النفسىّ إلى أحرج المواقف . ولا شيء أجدى من مقابلتها باللين والحلم وسماحة الخلق . ولا علاج أنجع للغضبان من تهدئة ثائره وتطييب خاطره .

والطفل النشيط يؤذيه الفراغ ، فيتسلّط على أهله ، ويكدّر عليهم صفاء عيشهم ، ويستنزف ما يسلبه من أموالهم . فعلى المؤدّب أن يشغل فكره وقت الفسحة والعمل بالمسلّيات ، ليحول ذلك بينه وبين تدبير الفساد

ونفس العصبيّين تجيش عند الحوادث ، فتسهّل لهم ارتكاب الجناية تصريفاً لقوّة القهر فترخص فى نظرها الحياة ، حتّى لقد فشا داء الانتحار يستشفى به المصاب بآلام الغيظ ، فيتعاطى السمّ أو يهوِى من المرتفعات ، أو يجنى على نفسه بالحرق أو الغرق . والانتحار التدريجىّ أكثر فتكا ، لأنّه استسلام إلى الأهواء التى هى حبائل الشيطان ، والتمادى يريح أعصاب العاكفين عليها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

لو بحثت لعلمت أنّ الغضب الجامح هو الداء العضال الذى يزحزح العقل عن أطواره ويزعزع أركان الجسم . وعلاجه معاملة الغضبان باللين ، وتوصيته بالصبر على احتمال المكاره ، وقلّما أفادت النصيحة متى توافرت أسباب القوّة ، ولذلك توجّهت عناية المؤدّبين إلى توزيع هذه القوّة فى غير وجوه الضرر . فكّروا فى ضروب اللعب التى سنبسط الكلام عليها فيما بعد لتوجيه قوّة اللاعبين إلى غرض مأمون العاقبة ، وفكّروا فى الملاكمة وكسَوا جُمْع الكفّ بوسائد مرنة تخفّف وقع الضرب بها ، وفكّروا فى المغالبة بالعصىّ والرماح المنمودة النصول ، لتمرين اليد ودفع الخطر ، وفكّروا فى نظام الكشف الذى راج سوقه بين النشء للتدريب على الخشونة والجراءة وعيشة الخلاء ، استكثاراً لأسباب الصحّة ، واستدراراً للخير واجتناباً للشرّ .

ما أسعد الأمم التى تضافرت أفرادها على مغالبة القوى الطبيعية ، فقد ذلّلوا تيّارات الهواء والماء واستخلصوا منها قوّة عنيفة ، وجمعوا

كثيرًا من أشعّة الشمس فى بؤرة فاستحوذوا على حرارة قويّة ، وافتنّوا فى استخدام الكهربائيّة والقوّة البخاريّة ، ولا يزال الفكر الإنسانىّ يجول في فضاء العالم منقّباً عن كنوزه المستورة وقواه الدفينة

---

٦) غريزة المحاكاة

لكلّ حيوان استعداد خاصّ فى المحاكاة ، فالقرد يوزعه استعداده أن يحاكى الحركات البدنيّة ، والببغاء تحاكى النطق . وبالمحاكاة استعان العلماء فعلّموا الطيور المغرّدة ما شاءوا من النغمات ، فوضعوها بحيث ترى صورتها فى مرآة ، ووضعوا وراء المرآة آلة صدّاحة ، فيخيّل إلى الطائر عند عزفها أنّ طائراً آخر يغنّى فيَرُمُّ بمحاكاته . والحمام — وقد اعتاد تناول الحبّ الصغير حتّى إنّه لم يعد قادراً على ازدراد الحبّ الكبير ولو أضناه الجوع — يجتمع مع الحمام الذى يتغذّى بالحبّ الكبير فيندفع إلى محاكاته ، وهذا سرُّ محاكاة النظير .

إنّ الإنسان فى طوره الأوّل حاكى الطبيعة والحيوان فيما سمع ورأى وصنع ، فسمّى طائفة من الأفعال بأصواتها ، وقد ورد بين ألفاظ اللغة العربيّة حفيف الشجر ، وخشخشة الثوب الجديد ، وقعقعة السلاح ، وصلصلة الحديد ، وخرير الماء ، وصرير القلم ، وهرير الكلاب ، ودقُّ الباب ، وطنين الذباب ، وشخب اللبن عند حلبه ، وكذلك بين ألفاظ اللغة الانجليزيّة هابل بابل Hubble - Bubble للنرجيلة ،

وتريك تراك Trick-Truck للنرد وهيكاپ Hiccough للفواق[1] حاكى المغاور فبنى البيوت ، ورأى الزنبار والهدهد يحصّصان عِشاشهما فطلى بيته بالجصّ ، ورأى الذئب يقع فى الغنم فتعلّم الصيد ، وحاكى الليف فنسج الشباك على منواله ، وشاهد الحَبَّة تسقط على الأرض فتنبت وتنمو حتّى تصير دوحة ، فحاكاها بالزراعة . وحاكى زخارف الطبيعة فنقش على الخشب والحجر ماراقه من النبات والزهر والحيوان والإنسان . وحاكى تغريد البلبل فغنّى . وحاكى أخاه الإنسان فى الترتيل والشعر والخطابة والملبس والصناعة وهكذا .

المحاكاة والحاجة إليها

يبتدئ الطفل بالمحاكاة فى الشهر الرابع من عمره ، ويزداد بها غراماً كلّما تقدّمت سنّه لهيامه بتعرُّف الموجودات التى يجهلها ، وسبيله الواحدة لذلك هى جنوحه لمحاكاة النظراء ، ومحاكاةِ كلّ ماله تأثير فى نفسه . يرى الفرس تعدو فتدفعه غريزة المحاكاة إلى ركوب عصاه . ويرى القطار فيجتمع مع إخوانه ويحاكونه .

ولحاسّتى السمع والإبصار مجال عظيم فى المحاكاة ، لأنّهما ينقلان إلى المخّ أثر المحسّات ذات الوقع الحسن فيحاكيها بصورة طبق الأصل . ومن هذا تعلم ضعف الأوامر المعنويّة لصعوبة محاكاتها على ذهن الأطفال .

---

(١) ريح تشخص من الصدر

اقتفاء أثر الصالحين والولوع به

واعلم أنّ ضرورة الاجتماع تلجئ الإنسان إلى اقتفاء أثر سلفه ومعاشريه ومحاكاتهم ليحافظ على العادات القوميّة ، وليتآزر بهم فى قضاء مصالحه . كان عمر بن الخطاب ورعاً يحب المتقشّفين ، استدعى يوماً أبا موسى الأشعرىّ ومن يليه من العمّال للمثول فى حضرته ، فانطلق أحدهم وهو الربيع بن زياد الحارثىّ إلى مولى عمر ، وسأله عما يروج عند عمر وينفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش ، فمضى ولبس جبّة صوف وعمامة دسماء[1] وخفّاً مطابقا ، وحضر بين يدى عمر فى جملة العمّال . فصوّب عمر نظره وصعّده فلم يقع إلّا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثمّ أوصى أبا موسى الأشعرىّ به . فهذه الخطوة ما جاءت إلّا من رائع تأثير المحاكاة ، وقد ورد « الأرواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وفى المثل « لولا الوئام ، لهلك الأنام »

الجمود

وإنّ أدنى أنواع المحاكاة ما حوفظ به على الأصل بدون تصرّف ولا إتقان على النحو الذى يتّبعه صنّاع الفخّار فى قنا . عادة ألفتها الأمم الساذجة ووضعتها موضع الاحترام . زرت مصنعهم يوما ، ولمّا رأى بعضهم أن الشك داخلنى فى مقدرتهم الصناعيّة عمد إلى طين وسألنى أن أقترح شيئاً يصنعه ، ثمّ انبرى فصنع طستاً وإبريقاً يجمعان إلى دقّة الصنعة رقّة الذوق . ثمّ أعادهما إلى عجين كما كان ، ولم يرد أن يدخل على ما ورثه من أسلافه شيئاً خوفاً عليه ، كأنّ بدعة الصناعة

(١) ذات لون مغبر

من البدع الدينيّة التى لا يسوغ إدخال التعديل عليها .

وإذا وصفنا المحاكاة بأنّها من دعائم الحضارة وجب علينا أن نفسّر ذلك بضرورة الاطّلاع على المحاكَى وبحثه وتمحيص أدلّته ، لتندفع النفس إلى محاكاته بوازع صادق . والمحاكاة روح تُوثّق الرابطة بين الفرع وأصله ، ومن هنا نشأت محبّة المحافظة على القديم . وقد تغلو الامّة فى احترام قديمها فتقتصر على ما أوصلته إليها الوراثة ، وتغضّ الطرف عن التغيير الذى تدعو إليه الطبيعة وأطوارها ، فتكسد بضاعتها ، وتبور صناعتها ، ويسُلّ عليها الدهر سيف الحرمان ، وتبطُش بها عوامل الفناء .

ومن أمثلة الجمود والغلوّ فى حبّ القديم والتحيّز لمذهب « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ما روىَ أنّ أحد الهنود الذين يحرّمون قتل الحيوان وأكله ، قد باحثه عالم ألمانىّ وأراه بالعيان نقطة من الماء الذى يشربه تحت المنظار ، فتخيّلها لكبرها غديراً من الماء ، وقد اكتظّ بالهوامّ السابحة فيه ، فلم يقتنع الهندىّ بما رأى بعينيه ، وسخر بقول هذا العالم ، وكسر المنظار إصرارًا على الباطل وعنادًا للحق .

وقال كمپيرى [١] : « إنّ طالباً تعلّم فى أديار القرون الوسطى وصل إلى سمعه كشف كلَف معتم فى كرة الشمس فدهش وقال : علم الله لو أنك قرأت بإمعان كتب أرسطو لوجدته وصف الشمس بأنّها كوكب لا يعترى نوره ذبول . فما أبعد مسافةَ الخلف بين هذه

---

(١) كمپيرى من رجال الحركة العلمية بفرنسا الآن

الحقيقة ومزاعم المستكشفين : عليهم أن ينظّفوا عدسة المنظار من أثر الغبار، ثمّ ينعموا النظر لعلّهم يبصرون الحقّ جليًّا . أمّا إذا أخطأ بصرهم وشاهدوا ما شاهدوه أوّلا ، فليعلموا أنّ الكلَف الذى رأوه إنّما هو سحابة تغشّى أعينهم » . فما بال طالب العلم فى الجيل الثانى عشر من الميلاد قد تمسّك بقول أرسطو نابغة القرن الرابع قبل الميلاد ، ولم يحفِل بتجارب ستة عشر جيلا ترقّى فى غضونها العقل الإنسانىّ ، وتقدّم العلم ، وكشفت التجارب عن حقائق كانت مستورة ! ما باله نظر إلى المشاهد ومحّصها بعقل غيره ، وأهمل عقله من النظر ، وعاقته الثقة بالمتقدّمين عن استجلاء الحقائق ، ولو كانت أعيننا تراها ، والمراصد الفلكيّة تساعدها : أليس يدلّ ذلك على أنّه اكتفى من البحث بالمحاكاة العمياء ، وقضى على مواهبه ، وعطّلها من التنقيب .

تأثير المثال الحسن

وللمثال الحسن تأثير رائع فى تثقيف الطباع ، فالطفل الذى ينشأ بين أبوين فاضلين يحاكيهما ، ويقتبس منهما لطيف القول ودقّة الذوق وحسن الصنع وكمال البِزّة ، وهو بعينه إذا عاشر منحطّى الأخلاق سرت إليه روح العدوى من طريق المحاكاة . نعم للقدوة الصالحة تأثير مجيد فى النفوس ، ألم ترَ أنّها نقلت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من رعاة أغنام إلى ساسة عظام ، رفعوا منار العدل ، ونصروا الحقّ ، وأحيوا موات العلم ، وفجّروا ينابيع الثروة . وممّا روى أنّ جند واشنطون رئيس الممالك المتّحدة افتتنوا به ، فتفتّحت لهم أكمام الفتوح . ولمّا قام نذير الحرب بين الممالك المتّحدة وفرنسا ، استدعاه خلفه لنفسه

اسم واشنطون وجرى على سننه ، فسرت فى العـروق روح الحميّـة والإقدام ، وكان النصر حليف جيشه .

التنويم المغناطيسىُّ — الاستهواء — يوقظ غريزة المحاكاة من سباتها فيخضع المنوَّم لإرادة المنوِّم ، ويطيعه بلا شعور ، ويحاكيه بلا تبصُّر ؛ وحوادث التحقيق الجنائىّ برَّأت شركاء بعض المجرمين ، لأنهم كانوا عند اقتراف الجرائم مسلوبى الإرادة .

لا نريد أن يحترف المعلّم بمهنة الاستهواء ، وإنّما نريد أن يكون كبير النفس ، حسن الطويّة ، نافذ الرأى ، قدوة فى القول والفعل .

ولعلّك عرفت قصّة الأعرابيّين النجديّين نابر ودابر . كان نابر صالحا تقيّا ، وكان دابر شرّيرًا سمجا ، فسنحت الفرص يوماً لنابر أن يركب جواده وكان عزيزاً لديه ، فمرّ فى طريقه على دابر وقد لبس ثياب الضعف والمسكنة ، فلمّا رآه رقّ لحاله وترجّل وطلب إليه أن يركب الجواد . وعند ما تسلّم دابر زمامه — وكانت نفسه تتطلّع من قبل إلى استلابه — ساقه مسرعا ، تاركًا مالكه يتفطّر فؤاده حزنًا على جواده المغصوب ، وجميله المسلوب ؛ فناداه نابر « ألا فاقترب منّى — أيّها الأخ — ولا أريد أن أشقّ عليك باسترداد جوادى ، غير أنّ عندى لك نصيحة ولا إخالك إلّا عاملاً بها ، إنّى أرجو ألّا تذكر لأحد ما فعلت معى ، خشية أن تشحّ يد الكرماء ، عن بذل العطاء ، إذا هم سمعوا هذه الإساءة إزاء فعل الجميل » ؛ هنالك صُعِق دابر من هول

جريرته ، وندم على ما فرط منه ، وردّ إلى صاحبه جواده ، فما أبلغ تأثير هذا الكريم ، فى نفس اللئيم !

ولنا من أبى نصر الفارابىّ مثال حسن يدلنا على ما كان له من روعة التأثير فى عقول جلسائه . فقد نبغ فى درس اللغات حتّى عرف منها أكثر من سبعين لسانا ، وزاد فعرف كيف يخلب عقول الناس ويملك زمام عواطفهم بإرادة صادقة وبراعة فى إيقاع الألحان الموسيقيّة . حضر يوماً مجلس سيف الدولة وكان المغنّون يعزفون فخطّأهم الفارابىُّ ، ثمّ اجترأ وتناول المِعْزَف وركّب عيدانه وعزف فضحك الحاضرون جميعهم ، ثمّ ركّبها تركيباً آخر وعزف بها فبكوا جميعا ، ثمّ ركّبها تركيباً ثالثاً وعزف فناموا حتّى البوّاب ثمّ تركهم وانصرف .

المحاكاة فى الرسم

ويدلّك على حبّ روسّو للطبيعة المجرّدة من زخارف الصناعة أنّه كلّف تلميذه أن يحاكيها بالتصوير من دون نظر إلى المبادئ التى وضعها علماء الفنّ. وهؤلاء يفضّلون البدء بمحاكاة البسيط من الأمور كالخطّ المستقيم وأوضاعه وأشكاله ، حتّى إذا تمّ له ذلك ركّب منه ما شاء من بدائع الكون . وأدنى درجات الرسم ما جاء من باب المحاكاة البحتة بحيث لا يسمح للطفل أن يزيد عليه شيئا ، ليختبر جولان نظره ، واعتدادَه بجعل الصورة مطابقة للاصل ، واعتمادَه على تمرين العين على النِسَب بين بعض الأجزاء وبعضها وبينها وبين الكلّ . وتلى تلك درجة يراد بها تمرين الحافظة والذاكرة ، كأن تعرض الشكل على الطفل ، حتّى إذا شبعت منه نفسه لفت عنه

نظره ، وانطلق يجمع فى رسمه ماعسى أن يكون وضعَه وشكله ، وهذه الدرجة تختلف باختلاف قدرة ملاحظته على ضبط المرئيّات .

فى ليـلة عاشوراء اعتاد الفرس أن يحتفلوا بموكب لهم فى مصر حدادًا على وفاة الحسين بن علىّ . وفى أثناء مرورى شاهـدت رجلاً يجول بـين المـارّة شاخص العينين ، مستطلعاً حركات الواقفين وأزياءهم ، مترقّباً أوضاع المشاعل التى يسير القوم فى ضوئها ، وإذا هو مصوّر توجّهت نفسه إلى درس عناصر هذا المشهد ، ليفرغه فى قالب الرسم من حافظته .

وفوق هـذه الدرجة مرتبةٌ من أحرزها فقد برع وعُدَّ من كبار المصوّرين ، وعماد هـذه المرتبـة على قدرة الخيال على تصوير المعانى وإلباسها ثوباً حسّيًّا يوحى إلى الذوق اختيار ما يكون له حسن الوقع وعميق الأثر ، فتراه يقرأ الحادثة التاريخيّـة ، ثمّ يرقمها على القرطاس برسم يشفُّ عن معانيها ، ويجمع من رموزها طُرَفاً لا يستعصى على اللبيب فهمها . يستطيع الرسّام والحفّار تصوير المعانى الحقيقيّة والخياليّة كما يستطيع الـكاتب أن يصوّرها ، غير أنّ الأوّلين يمتازان بأنّ لغتهما يفهمها الناس على السواء . ومن بارع الخيال الذى ينمّ عن الحقيقة أنّ نائماً صحا فى باكورة يوم صافى الأديم عليـل النسيم ، فاختار لهـذا المعـنى تمثالاً نقشه على صورة صبىّ غائص فى نوم عميق . وابتكر مصوّر مشهداً للبؤس فتخيّل قافلة تسير فى البيداء وقد اشتدّ المرض برجل منها فتخلّف عنها . غـير أنّ رفقاءه قبل أن يتركوه قيّدوا جمله

بجواره ، فلم يلبث الرجل أن مات ، أمّا الجمل فقد تقطّعت أحشاؤه من ألم الجوع والعطش واشتداد الحرّ ، وأقبلت إليه ضوارى الوحش وكواسر الطير وصارت تتدانى منه كلّما لحظت فيه الضعف ، والجمل المسكين ينظر إليها نظرة الخائف ، ويستسلم لبطشها استسلام الضعيف ، تذوب نفسه حسرات عند ما يلوى رقبته ليراقبها ولا يستطيع دفع الشرّ . كان تيمورلنك أعور أعرج ، وكلّما رأى صورته على حقيقتها استشاط غيظًا وأوقع الأذى براسمها ، فرسمه مصوّر متهيّئًا للصيد ، جالسًا على إحدى ركبتيه ، مصوّبًا بندقيّته ، ناظرًا إلى الهدف بعين واحدة ، فكانت براعته فى اختيار هذه الفرصة من دواعى استحسان الصورة بوضعها الحقيقىّ

المحاكاة فى صناعة الانشاء

وقد طالبَ معلّم الإنشاء أن يحاكى الطفل النماذج الأدبيّة بين منثور ومنظوم ، يحفظها ويستذكرها ويرتّلها ويمثّلها محاكيًا واضعها ؛ ثمّ ينتقل به درجة فيطالبه بمحاكاة معناها متصرّفًا فى ألفاظها وتراكيبها بنثر منظومها أو نظم منثورها . ومن مباشرة هذه المعانى وإبداء القدرة على أدائها والتصرُّف فيها على النهج الذى يرتضيه البلغاء ولا ينفر منه الأدباء ، يحصل للخاطر لقاح ؛ وتتربّى عنده ملكة الإنشاء ، وبها يسترسل فى الأغراض ، وتأتى إليه المعانى متدفّقة بدون تكلُّف .

المحاكاة فى اللغة

والغيور على نشر اللغة العربيّة يذيع استعمال المفردات الفصيحة، والأساليب الصحيحة ، بطرق المحاكاة اللفظيّة والكتابيّة ، وبعض الناس أقدر من بعض على ولوج سبل التأثير ؛ وليس بعجيب أن يتهيّأ

لأحدهم أسلوب دون أسلوب فلان مع كثرة ما يحاول من محاكاته ، لأنه يحمل بين جنبيه سرّ هذا الإخفاق . والإنسان بعد الإمعان يستطيع أن يستوضح أوصاف الكاتب من أسلوب كتابته ، حتى لقد بلغ الحدُّ عند بعضهم من شدّة حذقه واتّساع نطاق اطّلاعه أن يميّز أسلوب الكتب المخرومة ويعزوها لمؤلّفيها ولا يكاد يخطئ .

متى تحصل المحاكاة ؟

إنّ الجذل والسرور من الشيء يدفعان النفس إلى محاكاته ، ومتى وصلت صورته إلى العقل نهض للموازنة بين النموذج وما تؤدّيه الأعضاء ، والتمرين كفيل باستيفاء ما بينهما من الشبه .

وقد يكون وازع المحاكاة محض الاحترام ، إذا بلغ النموذج من الكمال مرتبة الملوك والقوّاد العظام ، يفهمان هذا فيطرقان سبل الإصلاح متّخذَين من قوّة المحاكاة عضداً قوياً ، وسنداً عظيما ، قيل إنه جاء الملكةَ الكسندرة (ملكةَ الانجليز) وفد من الفلاحين يستغيثون من ضرر دُوَيبّة تختفي في الأرض ، وتتغذّى بجذور النبات فيذبل . هنالك أمرت الملكة بصنع معطف لها من فرو هذه الدوَيبّة ، وما رأته الأوانس دثاراً للملكة حتّى تنافَسْنَ في لبسه ، وتنافس الصيّادون في صيده ، وكانت محاكاتهنّ للملكة سبباً لقطع دابر هذا الحيوان ؛ وذوق الملكة على كلّ حال ، هو نموذج الجمال بدون جدال ، والناس لتعلّقهم بالعظماء يحتذونهم في اللبس والسير والحديث والكتابة .

محاكاة المعلم

وللمعلّم الكفء فى نفس تلاميذه هذه المنزلة ، يحاكونه فى كلّ عمل يفعله لاعتقادهم أنّه لا يختار إلّا الأصلح ؛ إذن يَحقّ له أن يتجنّب الشبهات التى ربّما أوّلها المتساهلون ، وحاكوه فيها فيضلّون . تأمّل تحرّز سقراط قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، وقد أبى قبول نصيحة صديق له بالهرب من السجن ، والنجاة بحياته إلى حيث يعيش عيشة سعيدة ؛ نفر من هذه النصيحة خوفاً على سمعته أن تشوّهها معرّة الفرار من وجه القضاء ، وكراهةَ أن يتأوّلها أتباعه من بعده فيسوّغون الهرب لأنفسهم ويحكمون به ، ويفتحون على الأمّة من طريق المحاكاة باب الضلال والشرود .

محاكاة الطاعنين فى السن

رأى بعضهم أنّ المحاكاة يشتدّ وازعها إذا أسنّ المعلّم ، وزادته الأيّام خبرة بالأمور ، وعركه الدهر فى حالى لينه وصلابته ، واتّسع عنده أفق العلم الصحيح ، وفهم الطبع البشرىّ فى أطوار الحياة من الشبيبة إلى الكبر حتّى صار أصحّ رأيا ، وأكثر عطفا ، وأقوى حجّة ، وأرسخ فى العلم قدما ، وأمضى فى التجارب عزما . هؤلاء يعتقدون أنّ الآباء غالباً يزلّون عند تعليم أبنائهم بأنفسهم ، لما اشتمل عليه وجدان الوالد من الحنوّ ، ومطالب التعليم تستدعى الجفاء أحيانا ، أو للتسامح الذى يتوقّعه الولد متى قصّر فى أداء الواجب وخرج به العصيان عن الجادّة ، أو لأنّ فرط محبّة الوالد لولده توزعه أن يركب معه متن الشطط ، ويكلّفه ما لا يطيق غيرة عليه ، أو لأنّ الوالد لا يجرؤ أحد أن يتطاول عليه مستعيناً بالقانون فى الإضرار به إذا

هو أفرط فى عقاب ابنه .

محاكاة النظير

ورأى آخرون أنّ صغار السنّ من المعلّمين أنفذ حكما ، وأقوى فى الطفل أثرا ، وأملك لزمام إرادته ، وأكثر معرفة بميول النشء لقرب العهد بهم ؛ فإذا انصرفت همّتهم لدرسها كان نصيبهم منها أبلغ من نصيب الكهول ، وأغناهم ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التى يمتاز بها المعمّرون ؛ وأنّ مهمة التعليم فى الطور الأوّل ينبغى أن يُسَلَّم زمامها إلى النساء لما عندهنّ من العطف والصبر والقدرة على فهم أساليب الطفل وتيسير التنزّل إلى أفقه .

يطّرد هذا فى أنثى الحيوان ، فالدجاجة تلاحظ أفراخها وتلقّنها الإرشادات بقَوْقاتها ، والعصفورة تعلّم صغارها الطيران بعد تكامل ريشهنّ فتخرجهنّ من العشّ ، وتطير أمامهن وتستحثّهنّ على محاكاتها ، حتّى إذا قعد بهنّ الخوف عن ذلك خفّفت لوعتهنّ وحرّضتهنّ على الطاعة بالزقزقة أو النقر .

وللتلاميذ بعضهم فى بعض تأثير لا يستهان به ، فطن إليه أرنولد[1] فى الجيل الماضى فقرّر أنّ كبار التلاميذ يدرسون فى باكورة النهار نصيبهم من نظريّات العلم ، ثمّ يتولّون بعد ذلك تعليم الصغار من إخوانهم تطبيقاً للعلم على العمل . وسواء ألاحظ التأثير البليغ أم

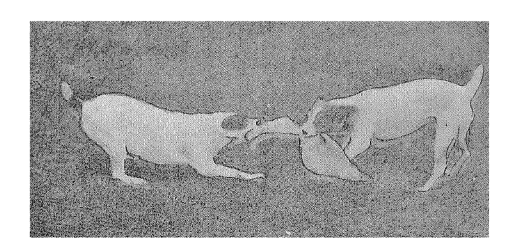
(١) توماس أرنولد Arnold توفى سنة ١٨٤٢ كان ناظر مدرسة ثانوية فى انجلترا أدخل فيها ماشاء من النظام حتى ذاع صيتها . واشتهر طلاّبها بالرسوخ فى الأدب وحرّية الفكر فى المسائل الدينية والسياسية

الاقتصاد فى الإنفاق فإنّ طريقته وجدت من النفوس مكانا ، وسعى المربُّون جهدهم فى تقليل معايبها .

حدَّثنى ناظر مدرسة أنّه كان يباشر تعليم ابنه لصغر سنّه ، وكان به شفيقاً متسامحا ، ولفرط رحمته إيَّاه كان ينتصر له إذا نازع غـيره ، ويميل إلى جانبه تنشيطًا له ؛ فأطمعته هذه الرأفة فى الأذى والعَبَث بالحقوق . رافقه مرَّة — وقد توجَّه والده إلى صفوف التلاميذ الواقفين فى ساحة المدرسة — فرأى منظراً عجبا ، رآهم عند ماشخصوا إلى والده هدءوا وخشعوا ، ورفعوا أيديهم إلى الرءوس احتراماً له ، وتجلّت فيهم الطاعة بأجلى مظاهرها ؛ رأى الطفل هذا كلّه ، وأخذت المحاكاة تجرى مجراها ، وما لبث إلّا قليلا حتّى تغيَّرت أطواره مع أبيه ، وصار من الأخلاق على جانب عظيم ، وهـذه ثمار تأثير الشىء فى نظيره .

« إنّ الحديد بالحديد يفلح »

٧) غريزة المباراة



يهوى الحيوان والإنسان مباراة الأقران للفوز عليهم ، ولا يعتدّ بما يعانيه من المشاق فى سبيلها . فالدابّة تسير وحدها وتجهدها المسافة القصيرة ، حتّى إذا سايرت غيرها من الدوابّ تحمّلت ما لا طاقة لها به من الجهد ونسيت آلامه رغبة فى المباراة . بيد أنّ أصائل الجياد لا همّ لها إلّا أن تنطلق كالسهم إلى الرميّة سواء أسارت وحدها أم سايرت غيرها ، كأنّها تجرّد من شخصها مناظرًا تباريه على سبيل الخيال . قال المعرّىّ :

ولمّا لم يسابقهنّ شىء من الحيوان سابقن الظلالا

والطفل كثيرًا ما يتّفق هو وإخوانه على المباراة عَدْوًا فى ساحة المدرسة ، ثمّ ينسى حدود قدرته على الجرى ، ويصرف قوّته كلّها فى مبدأ الشوط ، فيفتر نشاطه وتخور قواه قبل الوصول إلى قصب السبق « إنّ المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى » . وقد تخونه نفسه فتُنزله فى ميدان المباراة قبل موازنة قوّته بقوّة نظرائه

وإنّ من حارب من لا يقوى لحربه جرّ إليه البلوى

وكم ينهض الإنسان وحده لإدراك أمنيّة تموج فى صدره ويئوب منها بصفقة المغبون ، فلا يحزن على فشله حزنه إذا بارى غيره وفشل فى إدراك غرضه .

الحاجة الى المباراة

أصبحت المنافسة أساسًا لجلائل الأعمال ، ومفتاحًا لأبواب

المعالى ، ولا يكاد يخلو منها ميدان . تطرح المسائل على بساط البحث فيتبارى فى حلّها الأكفاء ، يقيم أحدهم الحجّة على دعواه ، وينقضه الآخر بالدليل ، ولا يزالون فى أخذ وردّ وجهاد وجلاد ، حتّى تنجلى عن سماء الحقيقة غيوم الشُبَه . يقرأ الناقدون المؤلَّف وينعمون النظر فى قضاياه ، ويسبرون غور علاقتها بالحقائق ، ولا ينتهون منه حتّى يكونوا قد قتلوها بحثاً وتمحيصاً ، وميّزوا صوابها من خطئها « والحقيقة بنت البحث » . والمصانع تتبارى فى إجادة السلع وتخفيض أثمانها فيزداد المبدعون بيعاً والمُعْجَبُون بها شراء ، كأنّ الهمم مخبوءة فى الصدور تظهرها المباراة وتَشْحَذها المشاركة ، ولهذا رجحت كفّة التعليم فى المدارس عليها فى المنازل .

آراء المربين فى غريزة المباراة

رأى اليسوعيين فى المباراة

١) حتّم اليسوعيّون استعمال المباراة لما فيها من تقويم مُعْوَجّ الفطرة ، وضربوا صفحاً عما تجرّه من عوامل الحقد ، وقطع أواصر الإخاء. وغلوا فأباحوا من أجلها التجسّس بل جعلوه داخلاً فى مضمون المباراة ، لأنّ التلاميذ أعرف من غيرهم بما يفشو بينهم من الرذائل ، فإذا تسابقوا فى إظهارها للمعلّمين تسنّى لأولى الشأن أن يعالجوها . وقد شدّدوا النكير فى العقاب البدنىّ تشنيعاً للخطيئة ، حتّى كان لهم فى المدرسة جلّاد لإنفاذ العقوبة .

رأى الأمريكيين في المباراة

٢) ورأى الأمريكيون نقيض ما قرّر اليسوعيون ، وعارضوا مذهبهم مصرّحين بأنّ الفطرة خير محض على النهج الذى شرحناه فى هذا الكتاب . رأوا أنّ المباراة تنطوى على رذيلة الأثَرَة وعلى بغض القرناء ، وليس بين المتنافسين والمتحاسدين إلّا حجاب رقيق . يعرف هذا من قصّر به السعى عن الفوز فى ميدان المسابقة ، فإنّه يحمل فى نفسه الضغينة لمنافسه ، ويودُّ لو تبطش به المكاره ليخلو له الجوُّ ، معتقداً أنّ الغاية تبرّر الوَساطة . وقد بلغت كراهتهم فيها أن جرّدوا منها نظام المدارس ، فمنعوا الدرجات وتقدير المكافآت ، وقرّروا من مذهب الاشتراكيّة : أنّ الناس كلّهم سواسية .

قد اتّبع مذهبَهم هذا أحرارُ المصريّين إذ نادوا بإلغاء الرتب والأوسمة فقد قال زعيمهم[١] : « كفى الناس أن يكونوا مختلفين فى الصور الطبيعيّة والمواهب المعنويّة ، فليس من حسن تدبير الأمم أن نزيد هذا الخلاف بأيدينا ، ونوسّع دائرة الفروق فيما بيننا . إنّها (الحكومات الملكيّة) تفرّق بين الناس فى معنى الشرف ، مع أنّه يكفى فى أن يكون الإنسان شريفاً ألّا يكون قد ارتكب فاحشة مبيّنة . تأتى هذه الحكومات إلى الشرف الذى هو أظهر معنى استوى الناس فيه ، فتجعله طبقات لا لعلّة ظاهرة ، ولكن لمجرّد الجاذبيّة ، كأنّها تعمل على التفريق بين المتشابهين ، فتعطى زيداً رتبة تكبّر بها اسمه ونفسه ، وتعطى عمرًا نَوْطًا يزيّن به صدره ويعلى

(١) أحمد لطفي السيد بك فى الجريدة يوم ٣٠ مارس سنة ١٩١١

قدره ؛ وتحرم الثالث كلّ ذلك . فلا ندرى أنشكو الطبيعة فى تفضيلها بعضاً على بعض بالخلقة والمواهب والميول ؟ أم نشكو الحكومة لتفضيلها بعضاً على بعض بالألقاب والأنواط ؟ أم نشكو الحظّ الإنسانىّ الذى جعلنا تحت رحمة الطبيعة مرّة ، وتحت رحمة الحكومة مرّة أخرى ؟ كلتاهما تثمّر شهواتنا ، وتجرّئنا من جهتنا الضعيفة إلى حيث تُفسد علينا أخلاقنا . وتنغّص علينا عيشتنا ، وتجعلنا دائماً كارهين لهذا الوجود المحبوب » .

هذان رأيان إذا أنعمت النظر فيهما وجدتهما جاوزا حدّ الاعتدال ؛ غلا المذهب الأوّل فى جعل المباراة عماد الفضائل ، وأفرط الثانى فى اعتبار المباراة ذريعة الرذائل ؛ والحقيقة أنّ المباراة ككلّ شىء لها فضائل ومثالب ، فهى إذا أحسنّا استعمالها بشير السعادة ، وإذا تغلغلنا فيها فخرجنا عن الجادّة كانت نذير الشقاء وعامل التفريق ؛ والعاقل يجعلها كالنار تفيده فى الدفء والطبخ إذا أوقدها بحكمة ، وتحدث لهيبا وحريقا إذا أشعلها ولم يُعْنَ بالاحتراس منها ؛ أو كحرارة القلب إذا اعتدلت حفظت للجسم الصحّة ، وإذا زادت صارت حُمّى تَنْهك القوى وتُبيد الحياة .

المكافآت

ولا يصحّ أن نقرّر هنا مذهب متطرّفى الأحرار من دون أن نردفه برأينا فى فضل المكافآت بمنح الألقاب والأوسمة ، فقد نظروا إليها بعين الكراهية ، ونفّروا النفوس منها بحجّة أنّها تهيّج شعور الفوارق بين الناس ، وتقضى على ما ينبغى أن يكونوا متخلّقين به

من وئام ، مخالفين أحكام الفطرة فى تمييز الناس بعضهم من بعض قوّة واقتدارا .

إن الله تعالى اقتضت مشيئته أن يختلف الناس فى مواهبهم وأقدارهم وأرزاقهم ، فترتّب على هذا التخالف تفضيل بعضهم على بعض بحكم لا محيص عنه ، فكان منهم الأمير والحقير ، والعالم والجاهل ، والفقير والغنىّ ، والمسرف والمقتصد ، ودرجات كثيرة متوسّطة بين هذه الأطراف ، ليكمّل بذلك عمارية الكون ، ويخدم الناس بعضهم بعضاً فى شئون الاجتماع ، وبغير ذلك لا يستقيم عدل ، ولا تسكن ثورات ، ويقع الناس فى المشاكل ، لانعدام الوازع الذى يجعل للقوىّ سلطاناً على الضعيف . وقد ورد فى الأثر « لا تزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا » .

هؤلاء الأحرار ينازعون فى أنّنا نسم النابغ بسمات الفضل ، ونفاخر به ونلقّبه بلقب السادة العظماء ، ونخلع عليه رداء النبلاء ، ونزيّن صدره بوسام ليست له فى ذاته قيمة ، وإنّما قيمته فى الدلالة على ما يشير إليه من جدّ وأمانة وإخلاص . ولو أنّنا حرمنا النوابغ من ميزة يعرفون بها فهل يستطاع كتمان الفضل ؟ أليست للفضائل ألسنة فصيحة ناطقة يفهمها الأذكياء ؟ وأيّة طريقة تتّبع لتسجيل هذه الفضائل فى بطون التاريخ والإشادة بذكر أربابها ؟

هؤلاء الأحرار غالبوا الفطرة فغلبتهم وأنستهم العمل بما يعتقدون فأصبحت تجدهم مدعوّين بالألقاب ، لابسين أوشحتها ، متنافسين

فى التحلّى بها ، متطلّعين إلى المزيد منها ، مستنكرين على الزعانف والجبناء والبخلاء أن يقفوا فى مستوى الكبراء والشجعان والأسخياء. فإذا كانوا فى هـذه العقيدة قد جاروا الأمريكيّين فى نبذ الرتب والأوسمة ، فهلّا سمعوا أنّ الأمريكيّين أنشئوا الآن نجمة ينعمون بها على الضبّاط والجند ؟ إنّه لا معـنى لإغفال المكافأة وغمط فضلها فى تشجيع النفوس ، وإذا لم تقدّر بها الكفايات ضاعت من بين أيدينا العوامل التى تستحثّ القرائح وتذكى الهمم . ولا تكون المكافأة صادقة إلّا إذا وافقت مزاج الشخص المنعم بها عليه ولم تتنافر مع شئونه المعاشيَّة . فمكافأة الغيور الفقير برتبـة ربّما تكون سببًا فى انقباض صدره فيجرؤ على رفضها غـير ملوم ، فقد سمعنا عن عظيم رُشّح لرتبة رفيعة فاعتذر عن قبولها ، لعـدم الاستطاعة على النهوض بأعبائهـا ، فقد تلزمه العادة القوميّـة حينئذ أن يقبع فى منزله ، وأن يتحشّم فى مجلسه وحديثه ومطعمه وملبسه ، وهذا يضيّق عليه مسالك الحرّيـّة الفسيحة . ويغلق عليه أبواب الراحة والطمأنينة . كم يكون هذا العظيم سعيداً هنىء البال لو زيد راتبه أو نفح ببدرات المـال على النهج الذى ارتأته الحكومة صوابًا بإسـداء ثلاثة آلاف جنيه للرحّالة المصرىّ أحمد حسنين بك ، تقديرًا للجهود المشكورة التى تجشّمها لارتياد صحراء لوبيا ، وقد كانت من قبل معدودة من بـين مجاهل إفريقيّة ، ويغلب على الظنّ أنّه لولا هـذه الرعاية ما كان فى الإمكان التعرّض لمخاطر تلك الرحلة .

غير أننا لا ننكر ما تحدثه المكافأة فى ذوى النفوس الصغيرة من العجب والصلف والكبرياء والغرور ، فيشمخون بأنوفهم على إخوانهم ، ولا تطيب حالهم إلّا إذا تحشّم الجُلّاس فى حضرتهم ، وقرنوا أسماءهم بألقاب العزّة والعظمة ، وهؤلاء لا يصحّ أن يبنى على أحوالهم حكم متين .

أما ذوو النفوس الكبيرة فيزدادون بالنعمة عطفاً وتواضعا ، ولا تزيدهم الرتبة أو الأوسمة إلا اعتقاداً بأنهم نالوها جزاء على سموّ أخلاقهم وطيب طباعهم فيدفعهم ذلك إلى التوغّل فى الكمال .

رأى روسو فى المباراة

٣) رأى روسّو أنّ المنافسة تُمدح وتذمّ من وجهين : فتُمدح لأنّها تدفع إلى الجهاد فى ميدان الحياة ، وتذمّ لأنّها تحدث الجفاء والقطيعة ، وتعكّر صفاء الولاء بين الإخوان . والفضائل كلّها أوساط بين الأطراف .

طرق روسّو باب المباراة من وجهين ، مع العلم بأنّه فضّل التعليم الفرديّ على التعليم المدرسيّ .

أوّلاً — حثّ « إميل » على مباراة المعلّم ، على شرط أن يتنزّل المعلّم إلى درجة تزيد قليلاً على الأفق المناسب للتلميذ، ولهذه الزيادة يستنهضه بالمنافسة فى أمر هو داخل فى حدود قدرته . وأنت خبير أنّ المبتدئ يفرح إذا رأى الفرق بينه وبين معلّمه يسيرا ، وينقبض يأسا ، ويزيده الخيال تعسا ، إذا رأى معلّمه أسبق منه بمراحل ، ومن نتائج هذا اليأس نِفار الذهن من المحاكاة

عهدنا الطفل يَصْمُت أحياناً عن الإجابة عن سؤال يلقى عليه ؛ ولعلّ هـذا قد نشأ من خوفه التعثّر فى أذيال الخطأ ، عارفاً غزير علم معلّمه ، معتقداً أنّه منزّه عن الغلطات كثير الحسنات . فإذا رأى معلّمه أخطأ مثله ، ثمّ عاد إلى خطئه فأصلحه ، واسترشد برأى العقلاء لرتق الفتق ، وتلمّس مواضع الصواب ، أفتظُنُّ أنّ خوفه يعاوده ؟ كلّا . بل يظهر فيه مقدار كبير من الإقدام والصراحة والاجتهاد .

وثانياً — حثّ إميل على أن يوازن بين أعمال يومه وأمسه ، متوقّعاً أن يكون عمل اليوم أصلح من عمل الأمس ، لانّه اليوم أكبر سنّا ، وأغزر عقلا ، وأشـدُّ مرونة وقدرة على تنفيذ الأمور ، افرض أنّ الطفل رسم صورة ثمّ ألزمه المعلّم بالاحتفاظ بها ، ووضعها على الجـدار ، راقماً عليها تاريخ البدء والتمام ، فإنّه يرى من مجموع أمثال هذه الصورة عقداً مرتّباً على حسب ترتيب أزمنتها ، وبالحَرَى مرتّباً بحسب الجودة التى يجود بها تقادم الزمن والتمرين والتهذيب . ولا يكاد يطّلع عليها صانعها حتّى يراها متدرّجة فى سلّم الرقىّ ، متقدّمة فى طريق البراعة ، بعيدة عن مخازى الحقد ، وقد سـبقه إلى هـذا المعنى رجلان : هما أعشى همدان والمعرّىّ قال الأوّل :

رأيتك أمسِ خيرَ بنى لؤَىّ　　　وأنت اليوم خير منك أمس

وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً　　　كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقال الثانى : —

ينافس يومى فىّ أمسى تشرّفا　　　وتحسُدُ أسحارى علىّ الأصائل

رأى كانت فيها

٤) ورأى « كانت » أنّ أحسن ما تكون المنافسة إذا توجّهت عزيمة المتنافسين إلى الغاية دون الوسائل ، فالحقد المسترذل إنّما يعترض المنافس وهو سارٍ فى طريقه إلى الغاية ، فإذا قطع الطريق إليها بعيداً عن الضغينة ، ناظرًا إلى نور الحقائق الوضّاء ، فقد حمد السرى .

وكأنّى بعقلاء المؤلّفين وأهـل الابتداع يمدّون أيديهـم لمصافحة من ينقدون أعمـالهم ويميّزون غثّها من سمينها . ونحن إذا سوّغنا للناقد تقرير الحقّ حبًّا فى الحقّ ، فلا نسوّغ له التشهير بالزلّة والطعن فى قائلها ، فإنّه لا يدرى كم عانى من المتاعب فى التأليف والابتداع . والعمل الإنسانىُّ — مهما بلغ من التدقيق — عرضة للخطأ . « إنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِـمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِـيمِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ »

فوائد المباراة

الأمريكيُّون لم يهتمُّوا بفوائد المباراة للقاعدة الأصوليّة : « درء المضارّ مقدّم على جلب المنافع » ، وإلّا فأىُّ باب من أبواب الحياة يستغنى عن المباراة ؟ نعم إنّ المباراة فتحت لأهل النقيصة أبواب الخزى ، فاستباح الطالب الغشّ فى الامتحان ، ورأى فى تحصـيل العـلم ، وحشا عقله بعلوم لا حظّ له منها إلّا استدراك الفوز على

الأقران ، حتّى إذا انتهى الامتحان طوى صحف العلم ، وتناسى قضاياه ، وفعل ماينهى العلم عنه .

وكثيرًا ما تهافت المجرمون على النقيصة وولج الأغنياء غمار الإسراف إجابة لمطامعهم السافلة ، فالمباراة التى من هذا القبيل ممقوتة بلا نزاع . ومن ينكر أنّ المباراة حلّت فى جميع عصور التاريخ محلاًّ فخمًا ، وقطعت بالمدنيّة مراحل بعيدة المدى ؟ نرى الأدب العربىّ مثلاً نهض نهوضًا بديعًا فى عصر الدولة العبّاسيّة ، ونبحث عن السبب فنجد الأدباء تنافسوا فى رفع مناره ، وفى الحظوة عند الخلفاء الذين كانوا يجلّون منزلة الأدب . ونجد الآن فنّ الطيران سار أشواطًا سريعة تجاوز بها أدوار النشوء ، والمباراة عامل كبير لهذا الرقىّ . كذلك دخلت المباراة مبيعاتنا ومشترياتنا ، وفى التآليف ومواضع الابتداع ، وفى الغلبة والسيادة ؛ فهى روح فيّاضة تثير الهمم ، أصبحت بها الأمم أكثر نشاطا . وأشدّ إقداما ، وأجود عملا . ولم تَعْدَم المعارض ودور التحف نصيبها من المباراة بين الأمم ، ورأينا فى رحابها — أينما وجدت — فروع العلم وضروب الصناعة كأغصان الكرم مدلّاة لمن يقطف ثمارها ، معروضة للناظرين من درجة السذاجة إلى قمّة الحسن والإبداع ، كأنّها تنادى الإنسان أن يجول ببصره فى آثار السلف على ترتيب وجودها فى سلّم الارتقاء ، لعلّه يحتذيها ويختطّ لنفسه مكانًا يناسب زمنه وعقله وبيئته ، لتجرى السنّة الطبيعيّة مجراها فى الإتقان .

والمجلات والمحافل كذلك ميادين للمباراة يطلع فيها القارئ على ثمرات العقول ، ويتعرف سريان نور الحق . وكم رأينا أناساً استحكم فيهم داء الأثَرة فخافوا أن يسبقهم غيرهم إذا باراهم ، فكتموا العلم فى صدورهم وضنُّوا به عن الإنفاق ؛ فهؤلاء إذا انقضت آجالهم ماتوا ودفنت معهم تجاربهم ، وحرَمُوا العالم ثمرتها ، وأُهمِل ذكرهم من تاريخ نهضة العلوم .

وكم أناس تباروا فى الإصلاح ، واستشاروا الرأى العامّ على لسان الصحف فى حكمة عثروا عليها ، أو صنعة ابتدعوها ، أو أثارة من علم دوّنوها ودعموها بالتجارب الصحيحة ، فذكرها التاريخ مقرونة بالفخر ، وردّد الخلف صداها مقروناً بالإعجاب ، ثمّ جاءت على أثرهم أمم جعلت خاتمة مطاف سلفها مبدأً لأعمالها ، واندفعت فى ميدان المباراة بجدّ وإخلاص ، فهؤلاء خليقون بالسيادة وتسخير الأمم لإرادتهم . مؤكّدون عرا الرابطة التى أذن الله أن توثق فى سبيل التعارف « يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

المباراة فى المدرسة

المباراة من الغرائز التى تستدعى رعاية وضبطا ، وهى كالأرض الخصبة تجود بالخيرات إذا خُدِمت ، وتنبتُ الحسَك إذا أهملت .

وجدير بالمتسابقين أن يكونوا من سنّ متناسبة ، وأن تكون رقابة المعلّمين عليهم متينة ، ليحولوا بينهم وبين الجموح وسوء المعاملة اللذين يحدثان عادة بين المتسابقين . وعليهم أن يجعلوا نُصب أعينهم غاية محبوبة كالجوائز يستحثّون همّتهم على إدراكها ، ومتى تذوّقوا طعم العلم لم يكن هناك حاجة إليها ، بل يكون حبُّ العلم والتوسُّع فيه رائداً للإكباب عليه .

الجوائز المدرسية

وللمعاهد عند الأمم الراقية عناية بشأن المكافآت ، يوزّعونها في حفلات مشهودة يؤمّها الآباء ومن يهمّهم أمر النشء ، وفيها ينتهز المعلّمون الفرص فيحادثون الآباء في ميول أبنائهم التي يشاهدونها فيهم ، ويبحثون معهم في تقويمها واختيار ما يناسبها من العلوم والفنون ، ويذكرون لهم عجائب الفطرة في تباين القوى . وأحسن من الجائزة المادّيّة كلمة الشكر يسمعها التلميذ من المعلّم في حضرة إخوانه . رأيت معلّماً أصلح أمالي تلاميذه وقدّر درجاتها وأعاد الدفاتر إليهم ، ثمّ سألهم : من نال درجة الفوقان ؟ فوقف تلميذان وملامح السرور بادية على وجوههما فأثنى عليهما ، ولم يذكر أسماء الضعفاء الذين أهملوا جانبي الصواب والإتقان ، واكتفى بتوعّدهم إذا عادوا إلى مثل هذا التقصير ،

اعتاد معلّم في أثناء الدرس الأخير من الأسبوع أن يقف تلاميذه حوله ذات اليمين وذات الشمال ، وأمر أحد الجانبين أن يطرح على الجانب الآخر أسئلة من درس الأسبوع يختارها كما يشاء . ومتى كبا جواد المسئول من الجانب الأيمن ، وقدر السائل ـ وكان من الجانب

الأيسر على الإجابة عنها ، كان له أن يحتل مكانه ، وكلما انتهى بهم التنافس إلى ترتيب حفظوه إلى الأسبوع الذى يليه .

شاهدتهم بين يدى هذا التنافس يختارون الأسئلة الغامضة ، ويعوّدون ألسنتهم التعبير عنها وعن أجوبتها ، ويناضلون لإظهار الحقّ ، ويسارعون إلى إحراز الثناء ، ويجاهدون فى تقويم مُعْوَجّ نفوسهم ، نازعين عنها طلاء الغرور والخيلاء كأنّهم يقولون : —

وحيثما كلُّنا يرمى إلى غرض فحبّذا ناضل منّا ومنضول

٨) غريزة الفخر

المحاكاة تتحوّل إلى مباراة والمباراة تتحوّل إلى فخر وخُيَلاء ، وكلاهما ظاهر الأثر فى عالم الحيوان والإنسان . فالحصان وهو بمرأى ومسمع حصان آخر ينفخ أنفه ، ويحنى رقبته ، ويرفع ذيله ، ويمشى مِشية الإعجاب والصلَف ، ويَصهل مشيرًا إلى ما كَمَنَ فى صدره من حبّ الفخر .

والطاوس يَدِلُّ فى مشيته ، وينشر ريشه ذا اللون الزاهى مباهياً به . فتجده كالعروس يختال من فرط ما منحته الفطرة من الجمال ، ويُسْمِعَ الناسَ صوته لعلّهم يلتفتون إليه .

يبدو الفخر من الأطفال وهم على وَشْك المشى ، وعند ما يستطيعون الإعراب عمّا يدور بخلدهم ، وحيثما يشاهدون ارتياح الناس إلى أفعالهم . سرّح نظرك فى ميولهم إذا لبسوا قشيب الثياب

فى حفلات الأفراح والأعياد ، تجدهم يتيهون إذا رمقتهم العيون فى غدَواتهم ورَوْحاتهم ، وجلُّ أمانيّهم أن يُسأَلُوا عن نوعها وثمنها وحسن هندامها ، ويسرُّهم الإطناب فى ذكر أوصافها ولا يأنفون من المبالغة . ومتى عادوا إلى منازلهم ولم يجدوا للفخر مجالاً طَوَوْها ، واكتفوا من اللبس بما يسدُّ الحاجة .

وكما تجد الطفل مطبوعاً على حبّ الفخر ، تجد قلوب الرجال ولا سيَّما أولى المواهب السامية فى الخطابة والشعر والمناظرة قد أُشربت محبَّته ، وكلمةُ المديح تبعث فى نفوسهم همَّة وإقداماً وإتقانا . وقد سَمِع المصطفى أناساً يُطْرون شخصاً فقال « لقد قصمتم ظهر الرجل » لأنّه إذ يسمع المديح لا يتمالك نفسه أن يستزيد من أسبابه ، وربَّما طاش سهم إرادته فأورده موارد الهلاك .

عرف الصحفيُّون الغربيُّون طبيعة الأوانس وما يَهْوَيْنَه من أفانين التجمُّل والفخر ، فلم يَصِفوا محفِلاً إلّا جعلوا همَّتهم تفصيل ما أبدعن من اللبس ، وما أفرطن من التنسيق . وأهل الترف والبذخ يقيمون المآدب ويصفُّون عليها أطيب المطاعم والمشارب ، ويتأنّقون فى اللبس والأكل والركوب والسكنى ليجعلوا من ذكرهم أحاديث للناس ، ولا يبالون أأنفقوا فيها جميع ثروتهم ، أم طوَّحت بهم طوائح الديون .

قال الله تعالى : « تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » وفى هـذا القول

إشارة إلى مثوبة من يتجرّد من إرادة العلوّ والفساد معاً ، أمّا العلوُّ وحده الجارى على سُنَنه المشروعة فلم يَغْمَطه أحد مقامه بين درجات الكمال . ولدى نزول الوحى بهذه الآية قال علىُّ بن أبى طالب : « أمّا الفسادَ فلا نبغى ، وأمّا العلوُّ ففى النفس منه شىء » .

ولولا الفخر ماخاض القوّاد سبل المنايا برِباطة جأش ، ولا دأب أساطين العلم وفُرسانُ البلاغة فى البحث والتنقيب ، وهو بغية النفوس ، تهجر من أجله اللذائذ ، وتضحّى بكل عزيز فى سبيله .

ودائماً تطمح النفس إلى الموازنة بين ما أُوتيَتْ من فضل وما ناله الخلطاء والمعاشرون ، حتّى إذا شَفَّت الموازنة عن شرف حسبها ، وعلوّ مكانها من العزيمة والإرادة ، وغزارةِ ثروتها من المال والولد ، تجد شعور الشمم يتولّاها ، فلا تحيد عن الفخر قِيدَ أُنْمُلة . والنفس الكاملة لا تندفع حينئذ فى تيّار الزهو والغرور ، بل تستزيد من محاكاة نماذج الفضائل التى زخرت بها تراجم العظماء ، وربّما لعبت بها فواعل الغرور فسارت بها فى أودية الصلَف والكبرياء ، فتنحلُّ رابطة الوئام بينها وبين الناس ، وتبوء بالخسران .

والفخر بالمحتد معدود عند الأمم عامّة من أسمى الأقدار ، وكان للعرب حظ وافر منه ، ذلك لأنّ الأصل الشريف ينتقل إلى الذرّيّة بالوراثة كما أسهبت الكلام عنه فى باب الوراثة ، أو لأنّ الانتساب فى ذاته يهيّئ الخلف لاقتفاء أثر السلف الصالح احتفاظًا بسلسلة النسب الشريف . وما أغبى من يفتخر بنسبه المتّصل بالأتقياء وهو يشرد عن

الصلاح . فعمله حينئذ مناقض لشرف الانتماء ! قال البحتريّ مشيرًا إلى هذا :

واست أعتدُّ للفتى شرفًا حتّى يرى فى فِعاله حَسَبَه

ما ورد فى الفخر

وقد قال المصطفى لنفر من قريش فى معرض الفخر بنسبه : « أنا خيركم بيتًا وخيركم والدا » ؛ وقال فى معرض الفخر بأدبه : « أدَّبنى ربّى فأحسن تأديبى »

كذلك افتخر أبو بكر الصدّيق فقال فى خطبته يوم السقيفة : « نحن المهاجرين أوّلُ الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأمسّهم رحمًا برسول الله » . وكان الحسن ابن علىّ يفخر بأنّه يَمُتُّ إلى المصطفى بالقرابة ، وإلى العمل الصالح بالهمّة والإقدام . صَعِدَ المنبر يومًا وكان معاوية — أمير المؤمنين — حاضرًا فأفاض الحديث فخرًا بنسبه . فامتعض منه معاوية وبكّته بقوله : « يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة » فانتقل الحسن إلى التعريض بمعاوية بدون مبالاة ، لعلمه أنّ جلال نسبه بالمصطفى يَعْضُدُه ويَصُدُّ عنه كيد المعتدين .

وكان كعب بن زهير مولعًا بالفخر بجودة شعره ، حتّى كان إذا أنشد شعرًا قال لنفسه : « أحسنت وجاوزت حدَّ الإحسان » .

وافتخر سيف الدولة بأنّه أغزى الملوك ، فقد جمع نفض الغبار الذى يتلبّد عليه فى غزواته ، وصنع منه لِبنَة ، وأوصى أن يوضع خدّه عليها فى لحده ، فأنفذوا وصيّته . وغلا الأخوص فى الفخر بنفسه فقال:

وإذا سألت عن الكرام وجدتنى   كالشمس لا تخفى بكلّ مكان

ولا تكاد تجد إنساناً أنكر صولة الفخر وما له من المكانة الشمّاء فى النفوس ، وكُتُب الأدب مكتَظّة به وتدعو إليه إذا كان حقاً غير منتحل « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث »

تجد الروح السامية لا تكتفى بقيادة الجسم وتَسَلم زمامه وحده بل تودُّ لو أنّها احتلّت الأجسام الاخر ، وصرّفتها على حسب ميولها ، وحلّت فيها محلّ التبجيل . ولا يكون ذلك إلّا إذا اندمجت مصلحتها فى مصلحة النفوس ، وتجرّدت من الأغراض الشخصيّة البحتة . كان مَجَرِىٌّ مسافرا ، وبينما كان يطلّ من نافذة عربة القطار بَصُر بشخص مشرف على الغرق ، فمدّ يده إلى حبل الخطر فشدّه فوقف القطار ، ثمّ نزل وذهب مسرعاً إلى الغريق فانتشله وعاد به إلى الشاطئ حيّا ، ثمّ عاد فركب . هنالك أكبره الركّاب ، وصافحوه بيد السرور والإعجاب . فإلى صاحب هذه النفس الكبيرة تنطلق الألسنة بالشكر ، وإلى أمثاله الذين ظفروا من العلم بغاية نبيلة ، ومن الصناعة بثمرة جليلة . وتُزيّن صدور التاريخ بمثل هذا المجد الأثيل ، والباع الطويل . وما ظَنُّك بعمل صالح يعمله الإنسان يبغى به كشف جهالة ، أو إنهاضاً من عثرة ، أو إيقاظاً من غفلة ؟

نعم قد يكون مصدر الفخر جمال البدن وصحّته ، وقد يكون بالرياسة وبالكياسة وبالبطش وبالمال والأولاد ، ولو نظر الإنسان إلى عواقب ذلك لعلم أنّها عرض زائل ، فمصير الجسم إلى الزوال ،

ومصير الصحّة إلى الانحلال ، والقوّة إلى الضعف ، والمال كالمسافر يحلّ ويرحل . وما أشقى من يفتخر بشيء يرقب القضاء عليه فى غده !
ومن تذكّر صروف الدهر وراقب تقلّبات الأمور لا يطمئنّ له قلب ،
فما هى إلّا كلمة القضاء حتّى يتغيّر سعد الإنسان إلى نحس ، وينتقل نعيمه إلى بؤس ، وإذا قصدت إلى الفخر سبيلاً فدونك العقل الكامل فهو الدعامة التى تُشَيَّد عليها جلائل الأعمال .

لو أطلق الإنسان نفسه على سجيّتها ما أشفقت على البائس ، ولا رحمت لوعة الفقير ، بل تتبدّل بالإشفاق عليه جوداً ، وبالعطف إعراضاً وصدودا ، وبالميل جفاء ، وبالحنوّ غلظة واعتداء . ومن عجب أنّك ترى هذا الشخص عينه إذا حشر بين إخوانه يتورّط إيثارًا للفخر فيخرج عن طبعه ، ويجود بما يزيد على وسعه ، فيكون حبّ الفخر للخيرات وازعا ، وعن الرذائل رادعا .

ولمّا كان الفخر محبوباً سارع إليه المفتونون بحقّ وبغير حقّ ، واختلقوا الحوادث ليموّهوا أنّهم موسومون بالسخاء والشجاعة ، واستحثّوا الشعراء ليُشيدوا بذكرهم ، ويملئوا الفضاء بمحامدهم ، ولكنّ الأوهام كالضباب تتبدّد إذا سطعت عليها شمس الحقيقة ، ويكون حالهم كالممثّلين على المسارح ينصبون أنفسهم ملوكًا وأمراء يتحكمون فى رقاب العالم ، ومتى انتهى التمثيل رجعوا سوقة كما كانوا . ومن أمثلة ذلك أنّ ابن نباتة مدح فخر الملك وزير بنى بويه بقوله : —

لكلّ فتى قرين حين يسمو ‏ ‏ ‏ ونخر الملك ليس له قرين

أنخ بجنابه وانزل عليه على حكم الوفا وأنا الضمين

فجاء إلى فخر الملك رجل يستجديه فلم يعطه شيئا ، فمضى إلى القاضى وادّعى على ابن نباتة الشاعر أنّه ضمين غارم ، فاستمهله حتّى وصل إلى فخر الملك وأخبره القصّة ، فسأل الرجل كما أمّلت قال : مائة دينار ، فأعطاه إيّاها ، ثمّ قال لابن نباتة : إذا مدحتنى فلا تعد تضمن عنّى شيئا .

وأن المتنبّى سار فى البيداء فاعتدى عليه «فاتك» ولمّا لاذ بالفرار ذكّره بقوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فاغترّ بشعره الذى اعتقد صحّته ، وكان من أمره أن تصدّى لقتال خصمه ، فحاق به فخره الكاذب ، وأوقعه فى شرك الموت .

الفخر والتلميذ

يحقّ للتلميذ أن يفتخر بالفوقان على أقرانه لأنّه ثمرة جدّه ؛ يحقّ له أن يفتخر بما ادّخر من المال بدون تقتير ولا سفهٍ عاقداً عزيمته على صرفه فى وجوه البرّ ، وإلّا عدّ فخره خزيا وعارا ؛ يحقّ له الفخر بالإنفاق على العجزة والبائسين تخفيفاً للوعتهم وحثّا لعواطف الجامدين ، فإنّ أكثر البخلاء ينفقون المال لا حبّا فى الإنفاق بل مجاراة للمحسنين ودفعاً لمعرّة البخل ، وتسكيناً لثائرة الهجّائين ؛ يحقّ له الفخر بإهداء الكتب للمعاهد ، وبالسعى لرفع منار العلم ، وبإطعام اليتامى ، ومعالجة

المرضى ؛ يحقّ له أن يفتخر كما افتخر رسول الله بقوله : « أُعطيت جوامع الكلم » فإنّ فى هذا تحدّثاً بنعم الله

إنّما ننكر عليه أن يفرغ حديثه فى قالب الفخفخة فيؤلم عواطف معاشريه ، وبذلك ينحرفون عنه فيَخسَرُهم عند مسيس الحاجة ، ويَخسَرُون به فرداً عاملاً من المجموع العامّ . ننكر عليه أن يحبّذ نفسه بأنّه نال جائزة أو شهادة ، أو يضعهما فى منزله على مرأى من زائريه ، فإنّ شهادة الأعمال المبرورة خير وأبقى .

أيُّها المفتخر اجعل من عملك لساناً ناطقاً صادقا ، ولسانُ الحال أبلغ من لسان المقال ؛ افتخر بالجدّ والسهر للمصلحة ونصرة الضعفاء ، وخدمة الوطن وبذل الوسع فى ترقية شئونه وإرشاد أهل الضلال .

واتّبع نصيحة ابن المقفّع حيث يقول : « إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك برتبة فى كلّ مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل ، فإنّ رفع الناس إيّاك فوق المنزلة التى تحطُّ إليها نفسك ، وتقريبَهم إيّاك إلى المجلس الذى تباعدت منه ، وتعظيمَهم من أمرك مالم تعظّم ، وتزيينَهم من كلامك ورأيك وفعلك مالم تزيّن هو الجمال » .

٩) غريزة الملك والاقتناء

ما أبعد الحيوان عن مطامع الملك والاقتناء ! يستغنى عن اللباس يستتر به جسمه . ويكتفى بالنزر اليسير من الطعام الذى يجده بلا عناء ، ويرضى من السكنى بالمأوى الحقير يَكمُن فيه سواد الليل ، ويحفظ



فيه نسله سواء أ كان على فرع شجرة بعيدة المنال ، أم فى أرض جدباء لا تتطلّع إليها أنظار الأعداء . فهذه المطامع القليلة لفتت نظره عن المِلك فاستراح ، وعاشت أفراده فى وئام ، ولم يحصل بينهم من التنازع ما يحصل غالباً بين أفراد الإنسان .

والدنيا فى نظر البدوىّ مِلْكٌ شائع ، ينتجع منها مايطيب له فيها

المرعى الذى يكفيه ومن يعوله قانعاً من القوت بالكفاف ، فلذلك عاش هنىء البال قرير العين . ثمّ تسرّبت المطامع إلى قلب الإنسان لمّا زاد نسله وبرقت أمامه بوارق الحضارة ، فأصبح لا يقتصر من المسكن وغيره على ما يكفيه طول حياته ، بل أغار على جيرانه ، وتوسّل بالطرق المشروعة وغير المشروعة إلى السرقة والاغتصاب ، ولو فكّر لعلم أنّ الأرض تستهويه بجمالها ليملكها ، وتحثّه غريزة الملك ليعمّرها ، ثمّ تتبادلها الأيدى بالميراث والبيع جيلاً بعد جيل ، حتّى إنّك لو أحصيت مَنْ ملكوا على التوالى قطعة صغيرة من الأرض لأعياك العدّ ، وتملّكتك الدهشة من أنّ الأرض لا تزال كما كانت ، وأنّ مُلّاكها هم فى الحقيقة خُدّام سخّرتهم هذه الغريزة لإصلاحها ، وهذه من سنن الكون البديعة .

وعلى حطام الدنيا يتنازع الأصدقاء أحيانا ، ويرغب كلّ منهم فى أن يملكه وحده ، ولا يرضيهم أن يقسموه بينهم . فشت هذه الحال بين صغار السنّ وكبارها على السواء « يشيب ابن آدم ويشبّ معه خصلتان : الحرص وطول الأمل » . نعم إنّ الإنسان — مهما بلغت درجته من العلم — لا يكاد يرى شيئاً طريفاً حتّى تجيش نفسه بحبّ ملكه ، مع أنّه قد يكون فى حلّ من النظر إليه أو التمتّع باستئجاره . فما سرّ هذا ؟ إنّ فى الملك معنى نفسيًّا تصبو إليه النفس ، هو حرّيّة التصرّف فيه بالتغيير الذى يتّفق هو وذوق المالك ، والمستأجر مسلوب الحرّيّة ، لا يتعدّى الحدود التى يرسمها له المالك ليضمن سلامة

العين المستأجرة ، ومع ذلك فهو مهدّد بفسخ عقد الإجارة وبغير ذلك من ضروب المهانة .

فوائد الملك

إنّ اختيار مكان البيت مثلاً وحرّية التصرّف فيه بتنسيق البناء وترتيب الأثاث وغرس الأشجار مظهر من مظاهر ذوق المالك . ملّك الطفل كتاباً تجده أحياناً يمزّقه منقاداً إلى ذلك بغريزة سيأتى شرحها ، وأحياناً يُغلّفه وينمّق عليه اسمه ، ويوسّع له ركناً فى خزانته يغدو ويروح إليها ، ويَقرُّ به عيناً ولو لم يقرأ فيه ، ويقيّد به من الشوارد ما شاءت ميوله . وإذا أُتيح له أب يحترم فيه هذه الغريزة كان من مقتضيات هذا الاحترام أن يحتفظ بالكتب التى مَلَّكه إيّاها صغيرا ، ويسلّمه إيّاها كبيرا ، ليتيسّر له أن يراجع ما درسه فيها ، وأن يتذكر مقدار جولان ذهنه فى مضامينها فى عهد الطفولة ، والطرق التى اتّبعها المعلّم معه فتنفعه الذكرى .

إذا عرفت فائدة الملك أمكنك الحكم على قصار النظر الذين يَخْشَوْن نزول الفاقة بأبنائهم وحَفَدتهم فيحبسون عليهم أملاكهم ، ويغُلّون أيديهم عن التصرّف فيها ، ولا يكاد ينقضى الجيل حتّى يزداد النسل ويقلّ الرَّيْع ، فتنصرف عنايتهم عن إصلاحه لحاجتهم إلى النفقة ، وانفكاكِ رابطة الإخاء فيما بينهم ، فيئول هـذا الملك إلى خراب ، ويصبح مصدر تنازع مستمرّ . وسبباً لفقر لا طاقة لهم

بتحمّله . لو أنصف الآباء لتركوا لورثتهم هذا المال يقتسمونه بينهم اقتساماً شرعيّاً ليتصرّفوا بمواهبهم فيه . فإنّهم إذا صلحوا استفادوا منه وعمّروه ، وإذا فسدوا خرج من أيديهم وانتقل إلى مَنْ يصلحه ، وهذه نتيجة طبيعيّة للإهمال الذى هو سبيل العظة ، قال علىٌّ بن أبى طالب « ما ذهب من مالك ما وعظك » .

يُحْسِنُ المعلّمون والآباء صنعاً إذا تضافروا على تقويم هذه الغريزة ، فَخظُّ الآباء إعطاء أبنائهم مصروفهم اليومىّ ، وحظّ المعلمين موالاة الحثّ على ادّخاره ، ومناقشتهم فى وجوه الصرف فى المقتنيات ، ملاحظين أنّ الأخيرة تحتاج إلى أضعاف ما تحتاج إليه الأولى من الحكمة والسداد ومعرفة قيم الأشياء ، وهى تتنوّع تبعاً لما ركز فى نفس المقدّر . إليك قطعة الخزف القديمة ، يشتريها بوزنها ذهباً مَنْ يعلم أنّها تسدُّ الثُّلْمَة بين التحف العاديّة ، وترشد إلى تاريخ الصناعة فى عصرها ؛ والخطوط الأثريّة تُشترى بثمن غالٍ لأنّها تسدُّ فراغاً يلاءمها ؛ وعشّاق التاريخ يجمعون مُحَنَّط الحشرات وما انقضى عهده من الثياب والآنية ومعدّات الحرب . ويباهى الأغنياء باقتناء الصور التى رسمها رافاييل[1] ويشترونها بآلاف الجنيهات ، لأنّ التاريخ حفظ للراسم البارع هذه المهارة ودقّةَ الصنعة ، فتهافت عليها وعلى أمثالها

قيم الأشياء الذاتية والنسبية

(١) رافاييل Raphael ايطالى نبغ فى الرسم والتلوين فى القرن السادس عشر الميلادى دعاه البابا يوليوس الثانى إلى رومه لينقش حجرات قصره الفخم (الفاتيكان) فأبدى براعة فائقة

عشّاق الفنّ ، وكلّما قَدُم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة ، وكان القوم عليه أشدّ حرصا ، وتنافسوا فى ملكه وفى تقدير ثمنه . وللعلماء شغف باقتناء الأسفار لا سيّما ذات الخطّ اليدوىّ ، يجمعونها للاستفادة من محتوياتها ومن الذوق الفنّىّ السائد فى عصره . ولهم كذلك شغف بالأسفار إلى الممالك النائية يقرءون فيها ماسطّرته يد الطبيعة، ويقتبسون منها ماجادت به أنوار الحقيقة ، فيقفون على العادات وما تدرّجوا إليه فى سبل الحضارة .

يخرج الأطفال للتنزّه ويسرّهم إجابة مطالب هذه الغريزة بجمع ما تمتدّ إليه أيديهم من الصدف والأحجار ، وإذا عادوا إلى منازلهم طرحوه فى ناحية منه وقلّما أعاروه التفاتا . فلينتهز الآباء هذه الفرصة السانحة ، وليفسحوا لهذه المقتنيات مكاناً خاصّاً لينسّق فيه الأبناء ما يعثرون عليه من الطُرف ، فإنّ ترداد النظر إليها يَحُثُّهُمْ على البحث عن فوائدها . أمّا الكتب فهى كنز العلوم وخلاصة الأفكار سهر العلماء فى الحصول عليها وتدوينها ، فحقّ لنا أن نفاخر باقتنائها ، ونزيّن بها حجراتنا ، ونزيد بقراءتها معلوماتنا . ولم يكن للفقراء فيما مضى مندوحة لشرائها لغلاء ثمنها ، أمّا الآن وقد ذاعت الطباعة وراج سوق الكتب وَرُخصت أسعارها ، فحقّ لنا أن ننشّط المؤلّفين بشراء مؤلّفاتهم ، وأن نحبّب إلى أبنائنا شراءها ممّا يقتصدونه من المال ، ونعرّفهم سبل الاحتفاظ بها ،

وقد كانت الكتب إلى عهد قريب تصرف للتلاميذ على سبيل

العارية ، ثمّ تردّ بعد الفراغ من الدرس : حمدنا الله على نبذ هذه الخطّة السقيمة ، لأنّ فيها حرمان الطفل لذّة الملك، وحرمانه مراجعة الدروس فى أوقات العُطْلة ؛ وحرمانه الاحتفاظ بالكتب التى زوّدته بالعلم ، وقيمة الاحتفاظ بها ثمينة يدركها الطفل متى كبر.

وللمقتنيات حظٌّ وافر من العناية عند كثير من الأمم المتمدينة ، وأُمنيّة الرجل منهم إذا هاجر أو ساح فى بلد أن يعود إلى منزله ، ويعرضَ فيه كلّ ما جمعه من المقتنيات ، ويدعوَ إليها زائريه ويحادثَهم فى تاريخ العثور عليها . فهل لنا من مربّين يحرّكون فينا هذا الميل ؟

لا يكاد يخلو إنسان من شىء يقتنيه ويبالغ فى الحصول عليه . رأينا من يقتنى المصوَّرات التى ابتدعتها أنامل مهرة المصوّرين أمثال رينولد Reynold فقد رسم وجه ابنة أمير وهى فى طور الطفولة ، رسمها فى خمسة أوضاع وأفاض عليها روح الملائكة ، فاجتمع من حسن تنسيقها وما أسبغ عليها من اللون مثالٌ من الجمال له رَوْعة كروعة الشعر ، والشعر والرسم أخَوَان وهما وليدا الخيال ، وقد عرضت فى لندن صورة من رسمه وهى من مقتنيات أحد الأغنياء فبلغت قيمتها ٥٢ ألفاً من الجنيهات

ورأينا من أُولع بالنبات يبنى له السقائف الزجاجيّة ، ويتّخذ لها النوافذ والمدافئ ومقاييس الحرارة ، ويهمّه أن يصل منها إلى ورقة نَضِرة ، أو زهرة بديعة ، أو ثمرة نادرة ، يقدّمها فى المعارض الزراعيّة دليلاً على أنّه أفرغ الوسع وأجاد . ورأينا من يجمع أوراق النبات

المختلفة الأشكال وأنواع الأزهار ، يضغطها ويتخذ منها مجموعات لدراسة التاريخ . ورأينا من يهتمّ باقتناء الدواجن والطير المغرّد والحيوان الوحشيّ والخيل والكلاب والقطط ، يراقبها ويدرس طباعها ، ويجعلها سلوته فى زمن العطلة . ورأينا من يجمع النُصُب التى تمثّل الإنسان فى أطواره المختلفة ، ويؤلّفها تأليفاً يصحّ أن يسمّى ديوان الهيئة الإنسانيّة. ولم تصل الأمم الحيّة إلى هـذه الدرجة إلّا بفضل التعليم ، فقد عنى المربّون بمراقبـة أذواق المتعلّمين وميولهم ، وأيقظوا الشعور الغريزيّ الكامن منذ الصغر حتّى نما ، وصار ملـكة يعوّل عليها فى تقدير الحسن، وتمييز الجمال ، وتدقيق النظر إلى كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التي تدلّ على بارئها بجميل صنعها . ونحن إذا دخلنا بستاناً فأيسر شيء نراه فيه صنوف الورد والزهر ، وندهش من حسن أوضاعها وذكاء ريحها وبهاء لونها ، ونودّ لو أنّها تبقى على حالها طويلاً لتزداد حواسّنا بها تمتّعا ، وهذا هو السرّ فى أنّ صورها فى شكلها الصناعيّ أغلى منها في شكلها الطبيعيّ ، إذ لا يستطيع المصوّر البارع أن يخرج لنا هـذه الصورة طبق الأصل إلّا بعد إمعان طويل فى دقائق القدرة الإلهيّة، وعناء كبير فى سبيل المحاكاة

والحكومة كالأفراد تغلو فى اقتناء النفائس على قدر عزمها العلميّ والماليّ . نرى فى مصر دارَى التحف المصريّة والعربيّـة وقد غُصّت رحابهما بمتروكات الآباء التى تقادم عليها العهد ، ولست تجد بينها من طرائف مصر فى العصور الحديثة مايدلّ على فضل ونهوض.

وإذا شخصت إلى دور التحف للأمم الحيّة وجدت ذخائرها القديمة والحديثة قد التأمت ، ولا تكاد تجد فيها صناعة أُهمل تاريخها . ففيها نماذج الآلات والأساطيل مرتّبة بحسب عصورها وتدرُّجها في التحسين .

هذا وإنّ حُبَّ الحكومات الراقية للمقتنيات التاريخيَّة ، دعاها إلى شراء القصور القديمة وما فيها من أثاث ورياش لتحتفظ بتاريخ السلف . وقد تغلو الحكومة فتقتني الجواهر المنقطعة النظير أمثال (قوه نور) وهي ماسة كبيرة الحجم وصلت إلى لندن في القرن الماضي وكانت في تاج أحد ملوك الهند .

(١٠ ــ ١١) غريزتا الحلّ والربط

إنّ الطفل لا يفهم ما يحيط به من الكائنات إلا بمعونة الآباء والمعلّمين ، وهم في الواقع لا يستطيعون سَبْرَ غَوْر ميوله إلّا بعد زمن طويل ، فوجب عليهم أن يفوّضوا إليه استجلاء الحقائق واختبار الأمور بما ركز في جبلّته من غريزتي الحلّ والربط . يتناول الصورة مثلاً فيرتاح إلى النظرة الأولى إليها لغرابتها ، ثمّ يُصَيّرها الاستعمال مبتذلة لولا ما يُدخله فيها من التغيير ، ولا نعجب إذا رأيناه يعبث بها لعلّه يصل إلى تغيير مناسب يؤثّر فيه التأثير الرائع . يأخذ اللعبة ولا يكاد يمضي اليوم حتّى يكسرها . يمسك الساعة فتدهشه دقّاتها ، ويحاول فتح غطائها ليقف على السرّ المكنون في باطنها ، وإذا أعياه ذلك

كسرها لا حُبًّا فى الإتلاف كما وَهِم المخطئون ، بل طموحاً إلى علم تجريبىّ يطفئ به أُوار ظمئه ؛

وممّا يدُلّ على أنّ الطفل مولع بالتركيب أنه ينبرى لصنع طيّارة مثلاً إذا اجتمع عنده الخيزُران والورق ، وينبرى لصنع الكيس إذا توافرت لديه القصاصات ، ويقيم البيت ممّا يقع فى يده من الأشياء . وقد تحرّك هـذا الميل فى صدرى وأنا صغير ، وانتهزت فرصة فراغى وصنعت ممـا كنت أجمعه من الموادّ عجلة تدور بمحرّك ، وكان شوقى إلى إتمامها وتنفيذ ما دار بخلدى من أمرها يحملانى على مقاساة التعب بدون شعور

الحاجة الى هاتين الغريزتين فى التعليم

على الحلّ والربط عمـاد اللغات ، لاحتياجنا فى منشآتنا إلى مفردات صحيحة فصيحة نستعيرها من أساليب البلغاء ، نحلّها ثمّ نصوغها صوغاً جـديداً يعرب عمّا يدور بخَلَدنا من المعانى ، ونسدُل عليـه ثوب التأثير . ويعوّل علماء الأعضاء على هاتين الغريزتين فيتنافسون فى تشريح الحيوان الحىّ وتجريده من أجزاء مخّه ومراقبـة حركاته لعلّهم يدرسون علاقتها بالمدركات . وقد توسّعوا فعرضوا على مَن سئم الحياة أموالاً طائلة ليَسمَح لهم أن يُجروا التجارب فى جسمه فى أثناء حياته ، فيعرفوا كيف تؤدّى أعضاؤه الباطنيّة وظائفها .

وعلى الجمـلة لا يستطيع مبدع أن يجول على بصيرة فى ميادين الأعمـال بدون أن يتّخذ من هاتين الغريزتين رائداً له . ونحن إذا خفنا عبث الطفل بأثاث منازلنا ، وأغلقنا أمامه أبواب التجارب التى

يستفيد منها العلم الصحيح بما يحيط به أمِنًا الخطر طبعاً ، غير أنَّه ينمو فاتر القوى جامد الذهن ضعيف الإرادة ، ومن أجل ذلك فكَّر المربّي « فروبل » فصنع لُعَبًا تقبل الفكَّ والربط ، يتناولها الطفل ويصوغ منها أوضاعاً يبتدعها . ولبعضهم نماذج مصنوعة من الخشب وُشّيَ ظاهرها بصور رائعة يفكّها الطفل ، ثمَّ يهيم شوقاً بإعادتها كما كانت ، ودليله على ذلك بدوُّ تلك الصور بشكلها الأصليّ ، ويتولّى بنفسه تركيبها ، ولاستحالة قيام بعض أجزائها مقام بعض لا بُدّ أن يصلَ إلى وضعها الذى كانت عليه طال به الزمن أو قصر ، وعجينة الصلصال الشائعة الآن فى المدارس أداةٌ وضعت لهذه الغاية ، تسهّل على الطفل محاكاةَ النماذج وتقويم اعوجاج مصنوعاته بنفسه .

١٢) غريزة الاستطلاع

تدلُّ المشاهدات على أنَّ النمل يتّخذ كشّافة لجيشه لترشده إلى خبايا الأمور . وممّا لا جدال فيه أنَّ « نفس الطفل طُلَعَة »[1] ، فالرضيع إذا قرّبت إصبعك من فمه تعلّقَ به عسى أن يكون ثدى أمّه ، ويبكى ليستطلع حنوّ أمّه عليه . والامُّ الواقفة على سرّ هذه الغريزة إذا رأت طفلها ينتحب لنيل غرض معيّن لا تقرّب منه هذا الغرض ، وإنّما تحمل الطفل إليه ليقترب هو منه ، وتكرار هذا يعوّد الطفل السعى إلى مرغوبه . نطرق أبواب أصحابنا فنسأل الطفل

(١) كثيرة التطلع الى الأشياء

الذى يقابلنا : هل والدك فى المنزل ؟ فلا يجيب عن سؤالنا بل يُلْقى إلينا سؤالًا مثله : متى جئت من السفر ؟ وهل اشتريت لى لعبة ؟ وهل شاهدت ما اقتنيته ؟ الخ . فتحت يوماً كيساً أمام ابن لى يناهز الرابعة من عمره فقال : هل تعطينى قرشاً ؟ ولما رآه مفعماً لم ينتظر الجواب ، بل وجّه سؤالا آخر : من أين أتيت بما فيه ؟ وهكذا اطّردت أسئلته بنظام يدلّ على أنّ نفسه جوالة مستطلعة .

والطفل عند ما تؤثّر فيه رَوْعة الطبيعة يَشْرَئِبُّ إليها فيسأل جلساءه أسئلة غامضة رغبة فى كشف غموضها : لماذا تشرق الشمس؟ ماذا يجعل الريح هابّا ؟ كيف يستحيل الحَبُّ شجرا ؟ فما أصبر الحكماء على الإجابة عنها ! لأنّها عماد الحقيقة فى ذهنه . ومِسبارٌ يعرفون به غَزْر ذكائه . ونِبراس يهتدون به إلى معرفة إرادته . أمّا الجهلاء فينفرون من سماعها ، وينكرون عليه عرضها ، وربّما أساءوا إليه سترًا لجهلهم ، ويكون حرمانه الإجابة قاضيًا على ما عنده من رمق فتنطفئ فيه جمرة النبوغ وسَرْعان ما تخمد .

رأيت بعض الصبيان يطرقون أبواب المنازل فى غفلة أصحابها ، ثمّ يَهْرُبون ويقفون بعيداً يستطلعون أمرًا يتوقّعونه من الساكنين ؛ ونرى الناس مكتظّين فى الطرق فنتساءل عن السبب ، وربّما لا يكون المسئول أعلم به من السائل . نعم قد يتجاهل الإنسان فيسأل الناس عن أسباب الأمور ونتائجها وهو عارف بها ، ليقف على ما عندهم من ذكاء وعلم كما كان يفعل سقراط .

تجاهل العارف

ويبلغ الاستطلاع غايته عنـد قائد الجيش الذى يتأثّر عدوّه ، وعند العالم المدقّق والكاتب والحاسب ، وعند القاضى لتحرّى جانب الصدق متى تجهّمت الأمور وتلاطمت أمواج المنازعات ، وعنـد السياسىّ الذى يمارس الطبائع ، ويقيس حاضر الأمّـة ومستقبلها بماضيها ، وعنـد المعلّم الذى يتفقّد الميول ويساير الملكات الذهنيّة ؛ ولكلّ شخص ميزة فطريّة لو استطلعها المعلّم وسار بها فى طريق الكمال لمهّدت لصاحبها سبيل النبوغ ؛ ومن غفل عنها لحقه الفشل لامحالة ، فقد اتّفق لى زيارة معلّم فى درس إملاء وقد نهى تلاميذه عن السؤال فى أثناء الكتابة ، وخانتـه فطانته فلم يفسّر أوّلاً غامض الألفاظ والأساليب على حسب النظام الطبيعىّ ؛ وبينما هو يملى قاطعه أحد التلاميذ فسأله عن معنى كلمة ، فاستشاط المعلّم غيظاً من مخالفته الأمر وعاقبه ، غافلاً عن مطالب غريزة الاستطلاع ، ولو كان عاقلا لتنبّه من غفلته ، وأدرك أنّه كان مخطئا ، وعاد على نفسـه باللائمة ، والتمس للطفل عذراً فى عدم قبول النصح ، وعدم اكتراثه للوعيد .

بحكم هذه الغريزة يتسرّع الطلاّب ، فيسألون المعلّم عن أمر لم يتمّ تمحيصه ، وينقدونه قبل استيعابه ، وقبل معرفة أسبابه ، لأنّ حبّ الاستطلاع كالبخار يجيش به صدر المشتاق إلى تعرّف الحقائق ؛ ولذلك تراه وهو فى مضمار البحث والتنقيب لاهياً عن نفسه ، متحمّلا آلام المشقّة . لعلّك سمعت وصف الموكب الملكىّ الذى أُعِدَّ لتشييع جنازة الطيّب الذكر إدوارد السابع ملك الإنجليز وما أحاط بها من

مظاهر الأُبّهة والجلال ، تسير فيها الجند من أقطاب المعمورة وبينهم الملوكُ حمَلَة التيجان ، والأمراء والأعيان ؛ ذهب بعض أصحابى إلى لندن مبكّرين إلى حيث تسنَّى لهم رؤيتها ، ووقفوا على أقدامهم زُهاء إحدى عشرة ساعة ، والناس من حولهم يموجون حتّى انسدَّت بهم المنافذ على اتّساعها ، وشقّ عليهم أن يتحرّكوا أو يستريحوا أو يأكلوا أو يتنفّسوا ؛ صبروا على ألوان العذاب لتكتحل أبصارهم برؤية هذا الموكب البديع ، وليستطلعوا جَهْد الحكومة فى ترتيبه وتنسيقه ، فصارت نار نفوسهم المضطربة برداً وسلاما .

قال معلّم لتلاميذه وهو يستطلع جولان أفكارهم : رأيت طفلاً محموماً اختلط بإخوانه فأعداهم ، اذكروا لى أمثلة تشبه ذلك . فأجاب أحدهم بأنّ عينه رَمِدت فأصاب الرمد عينه الأُخرى ، وأنّ طفلاً حَصِبَ فأعدى الأطفالَ المختلطين به ، وهكذا عرضوا من الأمثلة ما يفيد أنّ عدوى المرض تنتقل من عضو إلى آخر ، ومن جسم إلى آخر ، كما تنتقل الحرارة فى أجزاء قضيب أُحْمِيَ طرفه ؛ وفهموا أنّ الذرّات السابحة فى الجوّ تخرج من المريض فتصيب السليم ، وأنّ الذبابَ يتهافت على المرضى وعلى الأقذار فيحمل بأرجله جراثيم المرض ويلقّح بها الأصحّاء ؛ وخليق بمن يريد الاحتفاظ بصحّته ألّا يسكن الأحياء القذرة .

تقويم الاستطلاع

وللاستطلاع شروط تجب مراعاتها لجنى ثمراته وهى :

التمكُّن من الفهم قبل السؤال والانتقاد ، اللهمّ إلّا إذا عرضت

فى أثناء البحث شكوك تعكّر صفاء الحقيقة. فإذا كان هذا فأنصح للمعلّم ألّا يجيب السائل أو الناقد نصّا ، بل يحيله إلى سابق علمه ، ويطالبه بإجالة فكره ، أو يحثّه على مراجعة رفقائه ، أو على الاطّلاع على أبواب يقرؤها من كتاب ؛ كذلك يلقى المعلّم على مسمع تلاميذه حكاية تنمّ عن خلال محمودة ، ويستطلع مبلغ حلّهم لعناصرها ؛ أو يعرض مصوّرًا على مرأى منهم ، ثمّ يستره عنهم ويستفسرهم مشتملاته كمّا وشكلاً ولونا ؛ وكذلك يحاورهم فى غرض معيّن وينبّههم على التوسّع فيه بمراجعة كتب يسمّيها ، ويستحثّ همّتهم على تمحيصه والاستدلال عليه وذكر ما فيه من ضعف وقوّة ؛ وأخيرًا يلقى عليهم قضايا العلوم ، ويطالبهم بتأييدها بالبراهين ؛ أو يكلّفهم حلّ المسائل وتطبيق ذلك على ما درسوه .

---

١٣) غريزة اللعب

الجدُّ واللعبُ مظهران للحياة ، فإذا نهضنا إلى إدراك غرض ، وشغلتنا الغاية عن الالتذاذ بالحركة وما يصادفنا فى غضونها من التمتّع بالمشاهد الجميلة والمسموعات الرائعة عَدَدْنا هذه الحركة جِدًّا ؛ وإذا تلمّسنا الحركة وجعلناها لنا غرضاً ولم نتطلّع إلى شىء وراءها طال بنا الزمن فيها أو قصر عَدَدْنا هذه الحركة لهوًا ولعبا .

يحسُّ الفرقَ بين الجدّ واللعب مَنْ يحبس فكره منقّباً عن أمر ، مدلياً بالحجّة على صحّة قضيّته ، أو موازناً بين أمر ونظيره ، فالذهن

حينئذ لا يرتاح إليــه ارتياحه إلى لذّة السمر والتنقلِ فى الحديث لأدنى ملابسة .

الحالة النفسية للعب

حقّق اسبنسر أنّ اللعب من مستلزمات الحياة تخرج به القوّة الزائدة على الحاجة كما يخرج بخار المراجل المستغنى عنه . وحقّق غيره أنّ اللعب منزع يرشــد المعلّم إلى معرفة الميول النفسيَّة الكامنة ، فما أحقّه موضوعاً للدراســة ! أرأيت الأطفال وقد خطر بفكرهم محاكاة القطار فانطلقوا يَعْدُون وقــد أمسك كلٌّ منهــم ذيل ثوب صاحبه ؟ أرأيتهم وقد حاكَوا الحصان والسائق ، ونفس كلّ منهم مولعة بالبراعة فى التمثيل ، تجدهم أحياناً يتناوبون الأمر بين رئيس ومرءوس، ليجرّب كلٌّ منهم مطامعه وهمّته عند اختلاف المواقف ، وأحياناً يجمد كلٌّ منهم ويصبح أكثر التصاقاً بما اختاره أوّلا ، فلا يفكّر من يمثّل الحصان أن يطلب الوقوف فى مكان صاحبه ، ولا يفكّر من يمثّل السائق أن يتنزّل عن موقفه ، كأنّ نفس الثانى قد طمحت إلى العظمة والاستئثار، وكأنّ نفس الأوّل قد ركزت فيها أصول المذلّة والصغار. فحركات هاتين النفسين يميّزها الحكيم ويتنبّأ عن مستقبلهما بالسعود والنحوس .

وهل رأيت الطفلة تطوى عِطافها ، وتتّخذ منه مثل العروس ، تسمّيها وتلبسها ما جمعتــه من الثياب ، وتحملها على كتفها ، وتجلسها على حجرها وتناغيها ، وتعطف عليها عطف الأمّ على رضيعها . تفعل الطفلة هذا مع أنّها ربّما لا ترى من أمّها مثل هذا العطف والحنان ، ذلك لأنّها مدفوعة بدافع غريزة اللعب والعطف الأموىّ

أطوار اللعب

١) الطور الأوّل وهو طور الطفولة ينتهى إلى السنة السادسة ، والطفل حينئذ يسدّ باللعب مطامعه الذاتيّة ولو حصل منها إيلام المعاشرين ، فيُكْثِر من الثرثرة والاضطراب والبكاء والنحيب والعويل والضحك والقهقهة والغناء . وإذا قيل له : « ابتعد عن فعل ما يتأذّى منه غيرك » ، ثار غضبه وعمل على نقيض ما يُطلب منه ، وأدخله العناد فى ميادين التصنّع والمكر .

يجدر بالمعلّمين أن يراقبوا الأطفال وهم فى هذا الطور، فيُسعدوهم ويُسعدوا أنفسهم بما يقتبسون من الفوائد كما كان يفعل الأحنف بن قيس والغزالىّ وروسّو وبستالوتزى ، فإنّهم كانوا يستفيدون من ممارسة تعليم الأطفال ما لا يستفيدون من الكتب .

رأيت أبنائى يختلفون إلى ساحة المنزل ، ويجلسون فيها على هَضْبة رمل ويتقاسمون العمل، فيصنعون بيتاً وينسّقون التماثيل أمامه لمحاكاة المثال الذى أثّر فى نفوسهم . هذا وأمثاله هو شأن الأطفال يساقون بدافع الفطرة إلى إبراز ما يموج فى عقولهم من الخواطر ، ويودّون لو يطول بهم الأمد ليزيدوا عملهم تنسيقاً وإتقانا .

٢) الطور الثانى وهو بين السابعة والثانية عشرة ، والطفل يتعلّم فى هذا الطور تلك الحركات التى تقوّى الدورة الدمويّة والعضلات كلعبة الإطار والجذف والجرى والمصارعة ؛ ويتعلّم من الحركات

ما ينمّى ملكة التنقيب ويصقُل الفراسة ويشحذ الكياسة ، كلعبة الاختفاء والبحث الفاشية بين صبيان مصر وعند كثير من الشعوب ، حاكوا بها الإنسان فى عهده الأوّل الذى اعتاد فيه الصيد ، وحمى نفسه من بطش الوحش .

ومن الألاعيب الفاشية فى مصر لعبةُ المِخراق (الطرّة) بين فريقين يتنافسان فى إظهار ما خفى وَوُكِلَ إلى الفراسة أمْرُ البحث عنه ، والطفل يستفيد منها ثقة الفرد بغيره فى الدفاع ، واحتمالَ تبعة ما تزلُّ فيه قدم الوكيل .

ولُعبة المِقْلاء والقُلَة : وهما عودان يلعب بهما الصبيان ، فالعود الذى يُضْرَب به هو المِقْلاء ، والخشبةُ الصغيرة التى تنصب هى القلَة ، ورَمْيُك بالقلة يسمّى قَلْوًا ، وذلك أنّك ترمى بالقُلَة فى الجوّ ، ثمّ تضربها بمقلاء فى يدك ، وهى خشبة قدر ذراع فتستمرُّ القُلَةُ ماضية . ومتى وقعت كان طرفاها ناتئين عن الأرض ، فتضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثمّ تعترضها بالمِقلاء فتضربها فى الهواء فتستمرُّ ماضية

ولُعبةُ الأنبوبة : وهى أن يحفِر الصبيان حفيرًا ويدفنون فيه شيئًا ، فمن استخرجه فقد غلب .

ولُعبة القفَّيْزى : وهى خشبة تنصب ويتقافز الصبيان عليها .

ولُعبةُ الأرجوحة : وهى خشبة طويلة يضعها الصبيان على مرتفع من الأرض ، ويركب بعضهم على أحد طرفيها ، ويركب الآخر على

الطرف الثانى ، فإذا كان أحد الفريقين أثقل من الآخر همَّ بالسقوط .

ولعبةُ البندق : وهو طين مدوَّر يُرمى به .

ولُعبةُ الدُّوَّامة : وهى ما يلعب بها الصبيان فتدار وهى المشهورة (بالنحلة) .

ولُعبةُ الخُذْروف : وهى شىء يدوّره الصبىّ بخيط فى يديه فيسمع له دوىٌّ .

وكثيرًا ما نرى الأطفال يلعبون بالكرات الصغيرة ، ويتغَنَّوْن عند اللعب بها حاسبين عدد حركاتها ، لاهين بها عن إحساس التعب . تجدهم وهم فى بحبوحة الراحة يكدُّون لتمرين الأعصاب والعضلات ، ويوفّقون بين الحركات تنفيذاً لمطالب حاسَّتى اللمس والإبصار ، سالكين السبل التى تجعل أعمالهم مرموقة بعين السداد .

نراهم يجتمعون زرافات للعب الكرة فيصنعونها من خَلَق الثياب ، وينتقون من يُحْسِنُ الرماية فيقفونه عند الهدف ، وهو يدفعها إلى إخوانه الواقفين على أبعاد مختلفة منه ، فإذا تلقَّفها أحدهم ، أو رماها فأصابت الهدف ، حقَّ له أن يذهب إلى موقف الصدارة بلا معارض . ومن خرق سياج هذا القانون عرَّض نفسه لسهام الملام .

ومن الألاعيب التى تغرس حبَّ الشجاعة والإقدام ما يفعله السودانيُّون فى حَفَلاتهم ، كأن يتجرّد الشابُّ من ردائه ، وينطلق إلى الميدان حيث يضربه الجلّاد بالسوط على جسده ضربًا مبرّحًا فيسيل منه الدم ، وهو مع ذلك لايبدى مللاً ولا ضجرا ، فإذا طال به الأمد

على هـذه الحال زغردت له النساء ، ودقّت له الطبول ، ولا ينفكّ يباهى بآثار هذا الضرب مادام حيًا ، وهى فى نظره وفى عرف قومه سِمات الفروسيّة والثبات .

ومن الألاعيب التى تشحذ الملاحظةَ والخيالَ والفكرَ ما ذاع بيننا من الأحاجىّ التى تضرب فى مغازٍ شتّى ، وينفدفع ذهن الناشئ بمحض هواه إلى البحث عن مضامينها ، ولذلك عدَدْتُها من اللعب . كنّا ونحن صبية إذا قَدِم إلى منزلنا زائر التففنا حوله ، وسألناه أن يختبر مداركنا فى شىء منها لعلّنا نوفّق إلى الجواب . فكم ردّد بيننا هذه العبارات « أدّه أدّ النمنمه ، يجيب الخيل ماجّمه » قاصداً حروف الكتابة . « أدّه أدّ الكف ، يقتل ميّة وألف » قاصداً المشط . « لابسه ألف خلَقَه ، وقاعده فى الحلقه » قاصداً الكرنب . « العجوزه كاشّه ، وفيها أشّه » قاصداً الزبيبه وهكذا .

وكنّا عند سماعها نتنافس فى تصوير الإجابة معتمدين على الخيال، وكم لبثنا سواد ليلنا على هـذه الحال وقلّما طاف بأعيننا لذيذ المنام . ولملاحتها أفرد لها الأدباء أبوابًا ، قال البها زهير فى القُفْل :

وأسودَ عارٍ أنحل البرد جسمه ... وما زال من أوصافه الحرص والمنع
وأعجب شىء كونه الدهر حارساً ... وليس له عين وليس له سمع

٣) الطور الأخير وهو طويل الأمد ، غير أنّ الألاعيب المتداولة فيه اجتماعيّة الصبغة غالبا ، وقد يُقصَد منها تنشيط الجسم بعد الفتور الناجم من الأشغال الفكريّة ، ولهـذه الألاعيب فوائد

عدة أخصُّها ما تعقده بين اللاعبين من روابط الودّ ، وما تنتهى إليه من نسيان الفرد مصلحته الذاتيَّـة ، وربّما أفناها فى خدمة المجتمع ؛ لذلك عنيت بها الأمم الراقية ، وفسحت لها المجال بين ساعات الدراسة ، وفى أوقات الفراغ من الأعمال ، فأسّست الأندية للخطابة والألعاب البدنيّة والمبارزة والجَذف وركوب الخيل وتسنُّم الجبال والتمثيل وقطع المراحل مشياً على الأقدام ولعب الشطْرَنج الخ .

اللعب والتعليم

علمت أنّ قضايا العلوم إنّما تثبت فى الذهن إذا كانت غضّة شهيّة ، وتزيدها الطرق جفاء إذا كانت جدّيّة ، لذلك لا تعجب إذا رأينا الطفل يذهب إلى المدرسة فاتر القوّة ، خائر العزيمة ، خائب الأمل ، متعثّرًا فى ذيول المال ؛ وكيف لا ينقبض صدره ولا تبكى عيناه ، وقد غادر مكانه فى منزله وبين يدى أبويه حيث كان حرًّا فى تصرُّفاته . ولقد استذكر الحكيم فروبل أطواره الأولى وما عانى من الآلام ، فقال : إنّ نفسه وهو طفل تعلّقت ببناء كنيسة راقه شكلها ، فجمع الخشب والطوب والحجر وانبرى للعمل ، ولمّا أعياه الأمر ولم يجد مرشداً دكّ البناء وتحوّل عنه ولبث طَوال عمره يندب ما قاساه من انصراف المعلّمين عنه ، واشتغالهم بأمورهم عن مراقبة هذه الميول ، وبما كانوا يَعْتَدُون على الفطرة فى سيرها ، ويشدّدون النكير عليه إذا خالف أوامرهم الجافّة .

كانوا كذلك في عصر فروبل ولا يزال كثير منهم فى عصرنا يأنفون من تعليم الصبيان ، ويَضيقون ذرعاً بحسن معاشرتهم ، ويتلمّسون البعد عنهم كلّما سنحت الفرصة ، ومتى أسنّوا يَعُدُّون تعليم الصبيان نزولاً عن المستوى اللائق بهم ، ولو فطنوا لأدركوا أنّ ممارسة الأطفال تحتاج إلى رعاية الخبير وصبر الحكيم وعلاج الطبيب وامتداد نظرات الفيلسوف الذى يمارس التعليم مستعيناً بالغرائز ، فيثير أحياناً غريزة المحاكاة والمباراة والمنافسة ، وأحياناً يتّخذ من التشويق عضداً فيسوق إليهم الطُرَف على سبيل الجزاء ، وأحياناً يحبّب إليهم العلم والحفظ بالنشيد والأغانى ، وأحياناً يُجلسهم ويقفهم كى لا يكون للملل عليهم نفوذ ، فيذعنون إليه ويطيعونه عن رغبة .

درس فروبل هذه الشئون فى نفسه وفى الأطفال الذين عُهِد إليه فى تربيتهم ، فوُفّق إلى تأسيس المعهد الذى سمّاه « روضة الأطفال » ليُتمّ عن الغرض منه ، وهو إلباس المدلولات العلميّة ثوب الزخرف وأسلوب الألاعيب ؛ وقد توسّع أتباعه فى هذا المقصد وابتدعوا ما شاءوا من النماذج الكفيلة بالغاية المنشودة . وهى إقبال الطفل على العلم بمحض الرغبة .

رأى فروبل أنّ الكرة أداةٌ لا تستعصى على الحركة فى أىّ وضع ، فصنعها من الخشب ، ووضعها أمام الطفل بحيث تتدحرج يَمنةً ويسرةً منه وإليه ؛ وصنعها من المِطاط لتخفّ بمرونتها وهى فى قبضته ، يرسلها إلى الفضاء ويتلقّفها ، أو يرمى بها إلى الأرض أو على

الجدار فلا تتلف ولا يتلف بها ما تلامسه ؛ أو تربط بخيط من المطاط موصول طرفه بالإصبع ، ترسل إلى غرض ثمّ تردُّ منه ؛ أو تُعلَّق بخيط وتحرّك حركات ذبذبيّة ؛ أو تدار على محيط دائرة . والطفل حينئذ يتناولها ويقلّبها ويتأمّلها ويدير يديه حولها ، ويفحص عن مرونتها وصلابتها وشكلها وثقلها ولونها ، ويكلف أداء حركات يحاكى بها ما يؤدّيه المعلّم أمامه ، ويشرحها بلسانه ، ويسأل عن تفسير ما غمض منها ، فيَمْرُن على الطاعة وإجادة العمل ، ويزداد دُرْبَة بتمييز الأشياء والتعبير عنها .

وقد عوّل المؤدّبون على اللعب ، واختاروا للألاعيب أشكالاً حاكوا بها مختلف الآلات ، ليحيط النشء علماً بما أخرجته الصناعة فى عالم الوجود استعداداً لدرس المجتمع الإنسانىّ الذى يؤمّل أن يعيشوا فيه . ولم يكن عرض هذه النماذج مقصوراً على الصبيان بل تطرّق إلى عُشّاق التاريخ ، فإنّها صيغت بحيث تشرح الأزياء والعادات والأخلاق . ويرى المطّلع عليها أحوال الأمم وهم فى المصانع يشتغلون ، وفى المنازل يتزاورون ، وعلى الموائد يجلسون ، وفى المحافل والمتنزّهات يغدون ويروحون ؛ تعرض بها الأذواق المتباينة فى بناء القصور وتزيينها ، وتنسيق الحدائق وتجويدها ، والسفن وتسليحها ، والقلاع وتحصينها . وقد أُفردت لها فى المعارض المشهورة أمكنةٌ لما لها من رائع الأثر فى التربية العامّة .

وقد تصدّى « ساندو » للعلاج بالحركات البدنيّة ، يختار منها

ما يلائم المريض بعد تشخيص مرضه . وقد دلّ الإحصاء على نقص في نسبة الموتى بين أفراد الحيوان الذى يتجشّم الصعوبات ويتسنّم المرتفعات ، حتّى صحّ ما يقولونه : الموت سكون والحياة حركة .

١٤) غريزة الطرب من الغناء

الغناء كاللعب معدود من مظاهر الحركة البدنيّة ، يحدث من اهتزاز أوتار الحلق اهتزازاً يخرج الصوت خفيفاً وشديدا ، مرتفعاً ومنخفضاً بحال تعرف بالنغم والتلحين . والناس يتفاوتون فى مبلغ التأثر به ، ولذلك تجد البارعين فى الغناء يطوفون على ضروب الأنغام ، وينوّعون استعمالها ، ويرجّعونها لعلّها تهزّ الأريحيّة ، وتضرب على الوتر الحسّاس الذى يطرب النفوس .

بهذا يمكننا تعليل نِفار النفس من الصوت الجارى على وتيرة واحدة كصوت البوق وطنين الذباب وقَوْقاء الدجاجة ونقيق الضفادع فى الغدران وسَقْسَقة العصافير على الأغصان . وربّما خالطه رنين موسيقىّ يجعله مصدر ارتياح ، كهزيز الريح وهدير النهر وزقاء الديك وصُداح البلابل وهديل الحمام وسجع القمرىّ وإن لم يكن معناه مفهوما . وما ذا عسى أن يدلّ تغريد الطائر وهو فى أعماق قفصه ؟ أهو يشكو السآمة من وحشة الحبس ؟ أم يسرّى به تباريح الحزن ؟ أم يصدح فرحاً لأنّ العادة أنسته حاله الأولى ، وجعلت له من القفص موطناً مقبولا ؟ قال المعرّى :

أبكت تلكم الحمامة أم غنّـ * ـت على فرع غصنها الميّاد

والغناء يؤثّر فى نفس المغنّى أضعاف تأثيره فى نفس السامع، فيلهيه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته، نقل المبرّد عن عمر الوادى أنّه قال: «أقبلت من مكة أريد المدينة فجملت أسير فى صَرْدٍ[1] من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لأتوصّلنّ إليه ولو بذهاب نفسى، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود، فقلت له: أعد علىّ ما سمعت. فقال لى: «والله لو كان عندى قِرًى أقريك ما فعلت، ولكنّى أجعله قِراك، فإنّى ربّما غنّيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربّما غنّيته وأنا كسلان فأنشط، وربّما غنيته وأنا عطشان فأروى. ثمّ انبرى يغنّينى

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها

أرى الأرض تُطْوَى لى ويدنو بعيدها

إلى آخر ما أنشد. قال عمر: فحفظته عنه ثمّ تغنّيت به على الحال التى وصفها فإذا هو كما ذكر.

تأثير الغناء فى صنوف الانسان والحيوان

إنّ الحيوان كالإنسان يطرب من الغناء، فالقردة والدببة والفيلة والهوامّ تهتزّ عند سماعه هزًّا يدلّ على ارتياح واطمئنان. فقد روى أنّ من أفاعى الهند هامّة كثيرة الفتك بالسكّان يسمّونها الكبرى، تعدّ ضحاياها بالآلاف كلّ سنة، وهى مع شدّة جموحها وعدوانها يذلّلها الغناء. فإذا سمعته وهى فى أعماق أجحارها تخرج متهادية، ثمّ تنصب

---

(١) المكان المرتفع من الجبال

دَرَقتها نحو المغنّى ، وتهتزّ يمنةً ويسرةً على رنين النغمات ، وتتخدّر فيها أعصاب الحـذر فتستسلم للصيّادين . والإبل — وهى أغلظ الحيوان أكباداً — تضنيها المفاوز ، ولولا حُداء الحادى لتقطّعت ظهورها من ثقل الأحمال ، فى الأسفار الطوال .

وزنوج السودان يتهافتون على صوت الغِناء ، آتين إليه من كل حَدَب ، عاقدين له حفلات الرقص ، رافعين عقيرتهم من شدّة تأثيره فى أمزجتهم .

والطفل الرضيع يَدْهمه الحزن ، وتخنُقُه العَبْرة ، ويبرّح به البكاء ، تغنّيه أمّه « نم يا حبيبى بسلام » فيهدأ مضطربُ مزاجه ، وينام آمناً مستريحاً ، ذلك لأنّ نفثات الغناء كالسحر تُشْجيه وتنسيه أحزانه .

والعمّال يطول بهـم زمن العناء البدنىّ فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوّة وإقداماً ونشاطا . وقد يلهى الغناء أرباب المهن عن مزاولتها ، قال لصّ عن نفسه : انزبقت ذات ليـلة فى ملهى موسيقىّ لأترقّب فرصة السرقة ، ولمّا ارتفع صوت الغناء المشجى غاب صوابى وألهـانى الإنصات له عن مزاولة مهنتى ، فخرجت من الملهى مملوء الأذنين ، صفر اليدين .

وللأمم فى فضل الغناء حكايات متداولة ربّما عزاها السامع إلى مبالغة الخيال ، وليس بكثير على لغة العواطف أن تتسيطر على النفوس وتفعل بها فعل السحر . قيـل إنّ مدينة هملين Hameln فى ألمـانيا كانت تموج بالفيران من صنوف شتّى ، تعيث فى الأرض وتشارك

السكّان فى أرزاقهم ، وتكدّر عليهم صفاء عيشهم ، وتبدّد متاعهم . إذا جلسوا مجالس الأنس هالهم دبيبها فبُدّلوا بالأُنس وحشة ، وإذا ناموا أزعجهم طيفها فى أحلامهم ، وإذا قدّمت لهم الموائد أقاموا عليها الحرّاس تقيهم فتكاتها ، وتردّ عنهم هجماتها ، وربّما خافوها فولّوا مذعورين ، وخرجوا على وجوههم هائمين ، ودائماً كانت دهشتهم منها ملء قلوبهم وحديث سمرهم . وما سمعوا علاجاً لإبادة الفيران إلّا جرّبوه ، ولا عرفوا فخّاً إلّا نصبوه ؛ وقلّما صادوا منها شيئاً يذكر . فاجتمع مندوبوهم ليتفاوضوا فى أنجع الوسائل لإبادتها ، واستئصال شأفتها . وبينما هم يطارحون الآراء ، إذا شيخ أشيب طويل القامة



نحيف الجسم بشُّ الوجه غريب الزىّ وعلى عنقه مزمار، أقبل وعرض عليهم أن يزيل عنهم هذه الغمّة إذا وعدوه بالمكافأة ، فأطمعوه فى الأجر إذا نجحت حيلته ، ومنّوه بصداقتهم متى تحقّقت بشارته . فخرج الرجل من فوره إلى الشارع ، وأخذ يعزف بلحن مشجٍ ، فما لبثت الفيران أن خرجت من مخابئها مسحورة لا تلوى إلّا على صوته. وكلّما مرّ بشارع خرجت أسراب فيرانه تتنافس وُثوباً وقفزاً فى اللحاق به . فسار الرجل ووراءه منها جيش عرمرم إلى أن وصل إلى النهر وهنالك أغرقها .

ذاع هذا الخبر فطار السكّان فرحاً به ، وتبادلوا فيما بينهم عبارات الشكر لله تعالى على تطهير المدينة من أوضار عدوّهم اللدود . ولمّا قضى الرجل مهمّته عاد إليهم مستنجزاً وعدهم ، فوجَمُوا وهَزِئوا بقوله وغَمَطُوا حقّه ، فاستشاط غيظاً وعمد إلى الانتقام ، فخرج مسرعاً وتناول مزماره وأخذ يعزف بتلحين بديع ، فما سمعه إنسان حتّى اقترب منه وسار معه ، فتبعه الأطفال والصبيان والشبّان والشيب والكهول وعلى وجوههم سيمى الفرح والاستبشار ، كما ترى فى الصورة السابقة . فما عتّم أن جاوز بهم حدود المدينة ، وتغلغل فى مجاهل قاحله ، وفرّ منهم كأنّما ركب جناحَىْ نعامة ، وتركهم فتاهوا ، وانقطعت عن أهلهم أخبارهم . فقدّر كيف تكون براعة هذا الرجل فى التأثير بالغناء الذى تصبو إليه على السواء نفس الحيوان والإنسان .

وإذا انتقلنـا إلى أسمى مراتب الإنسان ، وتفقدنا الفلاسفة وقادة الأفكار وتحرّينا ميولهم وجدناها تصبو إلى الغناء بدرجة ليس وراءها مزيد . أثر عن معاوية أنّه رافق عمرو بن العاص ، وتوجّها إلى عبد الله بن جعفر ليعيبا عليه جلوسه فى مجلس الغناء . وعندما أنصت معاوية إلى تلحين الغناء سرت فيه نشوة الطرب ، فأخذ يحرّك يديه ورجليه يضرب بها وجه السرير الذى كان جالساً عليه ، فقال له عمرو : اتّئد يا أمير المؤمنين ، فإنّ الذى جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقلّ حركة . فقال له معاوية : اسكت لا أبالك فإنّ كلّ كريم طروب . وكذلك حضر الرشيد محفل غناء فسمع ابراهيم بن المهدىّ يغنّى بأبيات لمروان بن أبى حفصة :

طرقتك زائرة فحىّ خيالها   زهراء تخلط بالجمـال دلالهـا

هل تطمسون من السماء نجومها   بأكفّكم أو تسترون هلالهـا

أو تدفعون مقالة من ربّكم   جبريل بلّغها النبىّ فقالهـا

فطرب الرشيد حتّى صار من شدّة نشوته يقوم ويقعد.

وعلى الجملة فالناس بطبيعتهم يطربون بالغناء لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، حضريّهم وبدويّهم ، عالمهم وجاهلهم ، وربّما كانت نفوس المفكّرين أشوق لسماعه ، وأشدّ تعطّشاً لإيقاعه ، لاحتياجهم إلى ما يسرّى عنهم الهموم ، ويذهب عنهم عناء التفكير . وماذا عسى أن نقول فى الغناء وهو التيّار الروحانىّ ينبعث فيصيب القلوب ، ويملك

قيادها قسرا ، ويستخفّ بالجسم ، فتثور الأعضاء ، ويضطرب الجنان ويهتف اللسان، ويهلّل ويكبّر، ويستعيد ويستزيد. وهذه الانفعالات نتيجة انبساط الأعضاء وسريان الدم فيها سريانًا يزيد حركة النفَس زيادة مقبولة كما حقّقته تجارب الحكماء . وبهذه الزيادة يكون انتعاش الجسم وانشراح الصدر. قال حكيم يومًا لتلميذه وقد عزفت الموسيقى: أفهمت ؟ قال : نعم . قال له : بل لم تفهم ، لأنّى لا أرى فيك سرور الفهم . وقد استعان به الأطبّاء لمعالجة الأمراض العصبيّة ، واستعان به النفسيّون لتذليل الخواطر الأبيّة . فإذا كان هذا هو حال الغناء وحده ، فما ظنّك به إذا شارك الشعر وامتزج به ؟ وللشعر كالغناء ترنيم وتنسيق وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب ، واجتماعهما معًا يوقظ التدبُّر والتفكُّر لتقدير المعانى التى يحويها الشعر فى أغراض الغزل والحماسة والفخر والتسلية والشوق والزهد والرثاء والأسف والمدح والوصف .

ما أحلى وقع الغناء على النفس إذا لحّن المغنّى هذه الأبيات :

وأقسم ما أدنيت كفّى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رِجلى

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلّنى رأيى عليها ولا عقلى

وأعلم أنّى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلّا قد أصابت فتى قبلى

نبذة فى تاريخ الغناء

ولو نقّبت عن تاريخ الغناء وما له من الأثر السامى فى إحياء العواطف ما وجدت أمّة خاضت غُمار الحياة السعيدة بدونه . وإذا كانت متاعب الحياة تفلّ عزم النفس فإنّ سرور الغناء يشحذها ويعيد إليها حدّتها الأولى. به كانت ملوك الفرس تلهّى المحزون وتعلّل المريض

وتشغله عن التفكير فى مصائبه . وقديماً أبدع الإغريق فى صناعته أيّما إبداع ، وتوسّلوا به فى قضاء الحوائج ، حتّى كان إذا دجا ليل الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة الغناء ، وأسمعوهم النصائح بلسان الغناء والموسيقى فيُلاين طباعهم ، ويكبَح جماحهم . وكذلك عوّل عليه العرب فى مهامّ أمورهم ، فكانوا إذا استصرخوا للحرب خرج نساؤهم مغنّيات ، يستنهضن الرجال للذود عن الحريم والوطن ، فينسى الجندىّ نفسه عند سماع نبراته ، ويحمل على العدوّ معرّضاً حياته للخطر ، والحياة أعزُّ شىء للإنسان

إذا ترنم شادٍ للجبان به لاقى المنايا بلا خوف ولا فَرَق

ناهيك بالعصر العباسىّ الذى ازدهى بجمال الشعر ورائع الغناء ، فاحتفى به الخلفاء ، وأسدوا الجوائز إلى المجيدين فيه ، صبت إليه نفوس العامّة والخاصّة بعد أن هدأت الخواطر من أنباء الغزو ، وبعد أن شبعت من ثمار الفتح ، وورفت عليها ظلال الحضارة ، فاتّخذت من لسانه ترجماناً يعرب عن أغراضها . كان العباس بن الأحنف ينظم الشعر الرصين ، وكان أبو إسحق إبرهيم الموصلىّ يغنّيه فى حضرة الرشيد فينصت إليه ، ويقبل عليه ، ويهتدى بهديه . وكان الغناء إذ ذاك مفزع الأمّة تلجأ إليه عند الحادث الجلل لتثير به سَوْرة الغضب استعداداً للمهاجمة . ولمّا همّوا بالوقيعة بين الرشيد والبرامكة أسمعوه بلسان قينة قول عمر بن أبى ربيعة :—

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا ممّا نجد

واستبدّت مرّة واحـدة   إنّما العاجز من لا يستبد

فانحرف الرشيد عنهـم كأن لم يكن بينه وبينهم ولاء ، ولم يقبل فيهم قول شفيع ، وزجّ بهم إلى أعماق السجون

وكما خُيّل إلى « ترتينى » أنّه سمع غناء الشيطان فى الحلم بما قصصته فى باب الخيال ، خُيّل إلى أبى إسحق الموصلىّ أنّه سمع غناء الشيطان فى اليقظة ، ذلك أنّه خرج فى ليلة ممطرة يتحسّس عن مغنّ يشاركه فى إحياء حَفلة ، فقابله ضرير اسـتدعاه إلى منزله ، ثمّ شرع أبو إسحق يغنّى معجبًا بصوته فاستخفّ به الضرير ، وقال له : لقـد قاربت أن تكون مغنّيا ، وتناول العود فجسّه ، وضرب على أوتاره فى نغمة ليس لأبى إسحق عهد بسماعها ، فدهش ممّا سمع ، ولمّا خرج الأعمى ودّعه أبو إسحق فإذا هو قد غاب ، ولم يدر أفى السماء صَعِد ، أم فى الأرض هبط ، فخيّل إلى أبى إسحق أنّ هذا الضرير شيطان تنكّر له فى هذه الصورة لينزله من عالى غلوائه .

وربّما اشترك المغنّون والعازفون ، واستعملوا من آلات العزف البَرْبَط[1] والمِزْهَر[2] والقانون والقيثارة[3] والرقّ والناى ، فيخرج من صوتها مزيج ذو نبرات بديعة تفعل فى النفس فعل السحر الحلال . ولم يكن الغناء مقصورًا على مجالس اللهو ، بل اتّسع له المجال كذلك فى مجالس العبادة منذ زمن داود عليه السلام . ومنـه استعير نوع من الترتيل فى المساجد والكنائس ، وتصدّى له قرّاء القرآن بالإجادة ،

(١) العود (٢) العود كذلك (٣) الكمنجه

فاجتذبوا به المسامع ، وشنَّفوها بحِكَمِه وأحكامه ، وقد ورد « زيِّنوا القرآن بأصواتكم »

الغناء فى المدارس

كان الإغريق أشدَّ الأمم اعتداداً بالغناء واهتماماً به فى المدارس ، مرَّنوا عليه الأطفال منذ الصغر ، فعوَّدوهم النفخ فى الناى والضرب على الأوتار . وكان فروبل يتنزَّل إلى مستوى الصبيان ليتعرَّف ميولهم وما يتشوَّفون إليه . مرَّ يوماً بامرأة على إحدى ذراعيها غلام ، ورآها تتقدَّم به إلى دجاجة ، وظلَّت تحاكى قَوْقاءها ، وتحرِّك أصابعها لتدعوها إليه ، فما عتَم الطفل أن حاكاها بأصابعه وصوته ، فكان لهذا المشهد تأثير رائع فى نفس فروبل حبَّب إليه نظم النشيد ، فألف منه ما سمَّاه « دعوة الدجاج » ، وهكذا ظلَّ يترقَّب الفرص ، وينظم الأشعار الرصينة الجزلة ، فى المغازى الرقيقة البديعة . فإذا تاق الطفل إلى صنع طيَّارة مثلا ، فقد حان الوقت لسماع النشيد الملحَّن فى هذا المعنى . وإذا توجَّهت نفسه إلى مداعبة القطّ أو إلى الإعجاب بالحمام وقد بهره بهاء ريشه وخفَّة حركاته ورائع غنائه ، فقد استعدَّ للإنصات لنشيد يجمع هذه الأغراض ، وحينئذ تطمح نفسه إلى ترتيل النشيد فى وقت تتوق فيه إلى التهذيب والتثقيف .

يجمل بنا أن نحبِّب إلى الأطفال ترتيل الأناشيد فى أثناء اللعب ، فإنَّ اجتماعهما معاً ينشِّط الجسم ، وينعش الروح ، ويبرز الشعر فى أجمل حلَّة ، ويقوِّم فيهم آلة النطق ، ويذهب عنهم سآمة القراءة المجرَّدة من رخامة الصوت . نريد أن ندخل تدريس الغناء فى مناهج

مدارسنا لنعيد ما درس من صناعة أسلافنا ، ولنستخدم قوّته الروحانيّة فى تذليل مصاعب الحياة ، فإنّ نفوسنا كثيرًا ما تعروها السآمة فتحتاج إلى ما ينبّهها . ونحن إذا أدركنا هذه الغاية فقد حقّ لنا أن نجرّد سيف عزيمتنا لمحاربة الوصمة التى دهمت الغناء ، فقد تناوله أهل البطالة ، واتّخذوه ذريعة لرواج الخلاعة والمجون والهزل وسخيف النطق ، فشوّهوا اللغة العربية واستعاضوا عن ألفاظها الشريفة تراكيب أجنبية لا ضرورة لها . ولا سبيل لتعويد المسامع ما نرغب فيه من رواج الألفاظ الفذّة والتراكيب الجزلة إلّا بجوده الترتيل وحسن الغناء . فليمدّ الأدباء والمغنّون أيديهم للأخذ بناصرها ، فالآمال معقودة بمساعدتهم .

وقد تحرّكت فى النفوس رغبة صادقة فى الإقبال على الغناء والضرب على آلات الطرب ، ويبشّرنا أنّه تولّدت بعصر نهضتان : نهضة هواة الفنّ لتشييد أندية الموسيقى ، وفيها تحيا الأغانى وتتجدّد أنغامها بما يبتكره البارعون ؛ ونهضة طلبة المدارس الثانويّة ، ومظهرها ما يتجلّى من براعتهم الموسيقيّة فى حفلاتهم السنويّة .

أمّا طريقة تعليم الغناء والضرب على آلات الطرب عندنا الآن فلا تخرج عن نوع الطريقة الساذجة التى تعلّم بها الاميّون لغاتهم ، وجلّ الاعتماد فى تلقينها على السماع والممارسة والمحاكاة ، ويظهر السبق لمن ركزت عنده ملكة الفنّ وصحّت لديه قوّة التقليد . أمّا من لم يوهب

تلك القوّة وقد صحّت عنده العزيمة على تعلّم الغناء فلا يجد من يأخذ بيده ويسير به على التدريج من المقاطع إلى الأدوار ، وأين يجد المدوّنات لنماذج الأصوات الجميلة التى كان المجيدون يتغنّون بها ؟

قد يرجع الإنسان إلى أسطوانات الحاكى ، وقد يرجع إلى أهل الفنّ فيسمع منهم النغمات ، ولكن إذا اختلّت الأسطوانات أو مات حفّاظ الأصوات أو ضعفت ذاكرتهم ضاعت الثقة بما احتفظوا به من أدوار الغناء وطرق أدائها وكانت عرضة للضياع أو للتشويه والمسخ، كما ضاع كثير من أدبيّات الأعصر الخالية .

إنّ الغناء لغة العواطف ولكلّ أمّة فيه لسان خاصّ ، وهذا هو السبب فى أنّ الشرقيّين لا يطربون من غناء الغربيّين ولا يطرب الغربيّون من غناء الشرقيّين ، فاقتباس أحدهما من الآخر لا يجدى ، اللهمّ إلّا أن يكون اقتباس طرق التدوين الموسيقىّ وطرق التعليم الغنائىّ ، وما عهدنا لغة رقيت وأهلها أمّيّون . فعلى أهل الرأى والغيورين وهُواة الفنّ أن يتضافروا على إبراز طريقة تكفل لمن يتوخّاها تسهيل تعلم الغناء ، فإذا نجحوا — ونأمل أن يكون ذلك قريباً — فالرجاء كبير فى اعتبار هذه الحركة المباركة أساساً لإدخال الغناء والموسيقى فى منهج المدارس .

١٥) غريزة الادخار

تتجلّى هذه الغريزة فى صنفين من الحيوان وهما : النحل والنمل ؛ فالنحل يصنع خلاياه من الشمع ويدّخر فيها العسل مما يقطفه من رحيق الأزهار ، ليغذّى نسله وليتغذّى به عند الحاجة ؛ والنمل يبنى قريته فى جذوع الأشجار وفى الجدران وفى باطن الأرض ، ويتّخذ فيها غرفاً يدّخر فى بعضها قوته ويحفظ فى بعضها نوعاً من الحشرات التى تفرز اللبن لغذائه .

ولو تأمّلت النمل لوجدته كالنحل فى شغل شاغل ، تخرج النملة من قريتها ، وإذا عثرت فى طريقها على حبّة خفيفة حملتها أو جرّتها ، وإلاّ رجعت لتدعو شركاءها ، وكلّما مرّت بنملة لمستها بزُبانيَيْها تستحثّها على المساعدة ، وبهذا يتضافر النمل جميعاً على العمل . حاملاً ما قدر عليه من أصناف الغذاء إلى قريته حيث ترتّبه الأمّهات ، ويخزّنه متى خفن الإنبات . ويستمرّ النمل كادًّا على هذا المنوال طول الصيف

وقد شاهد چيمس هذه الغريزة ظاهرة الأثر فى كلب صيد ولد فى أرض إصطبل ونقل صغيرًا إلى منزل فرشت أرضه بالطنافس ، رآه يحاول نبش الأرض ليخفى قفّازًا أمسكه بفمه ، وما زال بالبساط حتّى خدشه وأخفى به القفّاز ، فعل هذا أربع مرّات ثمّ انقطع عن فعله لأنّه لم يجد مجالاً لتمرين هذه الغريزة . فلو كان ما فى فمه قطعة لحم

مثلاً بدل هـذا القفاز ، وكانت الأرض صالحة للنبش لاستطاع أن يدّخر ما زاد على قوته ليركن إليه عند الحاجة .

هـذه الغريزة مُوَقتَة تظهر إلى سنّ محـدودة فى الحيوان وفى الإنسان ، وفى غضون هذا الزمن تذبل أو تنمو إذا أُهملت أو روعيت

نجد الطفل إذا أُعطى مأكولاً تناول منـه ما استطاع ، وأبقى فى يده ما زاد عليه ، وربّما أودعه مكاناً وأخفاه عن الأعين . كذلك نراه يجمع فى « الحصّالة » فضلة ماله ، حتّى إذا غصّت بالنقود كسرها وعَبِث بما فيها ، والطفل محتاج دائمـاً إلى من ينبّهه على وجوه الصرف الحقيقيّة . وما ظنُّك بالآباء الذين يكتفون بجمع المـال لأبنائهـم ويهملونهـم من تمرين ملـكة الادّخار ؟ ما ظنُّك بهـم وقد انقضت آجالهم وتركوا هذا المـال للورثة الذين لا يحسنون رقابته ولا يعرفون طرق تثميره ؟ إنّهـم وقد فعلوا ذلك قـد أخطئوا السبيل الموصّلة إلى صيانة أموالهم وبقاء ذرّيّتهم على النهج الذى يأمُلونه ، لأنّ الأموال لا يصونهـا إلّا أناسٌ خـبروا ألوان المشقّة فى جمعها ومرّنوا أنفسهم على تثميرها .

يقول الفتى ثمّرت مالى وإنّما ... لوارثه ما ثمّر المـال كاسـبه
يحاسب فيـه نفسه فى حياته ... ويتركه نهباً لمن لا يحاسبه

فالمـال — وهو أخو الروح ، وأجر للجهود المضنية ، ووسيطُ نيل الحاجات ، وسِترٌ من لا تسمو به الخصال ، ولسان فصيح المقال ، وسـلاحٌ فى ميدان الـكفاح والنضال — قد أصبح الشغل الشاغل

للإنسان مهما كان شأنه فى الحياة ، فالساذج يدّخر المال ويودعه الحفيرة ويخفيها عن الرقباء ، والبخيل يودع ماله الخزائن أو المصارف حارماً نفسه لذّة الانتفاع منه ، والمقتصد المدبّر يدّخر ماله تدريجاً ، فيشترى السلعة وينقد ثمنها نجوماً يدّخرها من إيراده ، فيستفيد بذلك فائدة مضاعفة ، وربُّ الأسرة يتحرّى مواسم الحصاد ، فيشترى من الغذاء كفايته طول عامه ، فيستفيد قربها من متناوله ورُخْصَ ثمنها وأمْنَ غائلة الأزمات ، وكم عادت عوادیها فى أيّام المحن .

وضروب الاحتيال لنيل أسباب الادّخار وفيرة . ومع أنّنا نعلم أنّ منزلة الإنسان في قومه ، وكرامتَه بين نظرائه يحتّمان عليه أحياناً الخروج بالنفقة عن حدود الطاقة ، فلا نزال نقرّر أنّ من مقتضيات الادّخار أن يجعل مصروفه أقلّ من دخله ، وأن يفكّر دائماً فى تدبير شئون الحياة . والمدبّرات من النساء لا يشترين كلّ زىّ جديد ، لأنّ هذا يستنزف أموالاً طائلة ، ولكنّهنّ يتحيّلن ويدخلن على ملابسهنّ القديم من التعديل ما يجعله ذا مَسْحَة جديدة ، وإذا بلى منه جانب رفونه أو ألصقن به بعض الزخرف ، يسترن عيبه عن أعين الناقدات ، وإذا أعياهنّ الأمر اتّخذن منه ملابس للأطفال.

وقد حكمت علينا العادات القوميّة أن نكون أسبق الأُمم فى الإسراف والتبذير ، فلذلك لجأت الحكومة إلى إنشاء صناديق الادّخار ، وسهّلت طرق الوصول إليها ، واستصدرت من مفتى الديار المصريّة المرحوم الشيخ محمد عبده فتوى بحلّ استعمالها فأقبلت عليها

الأمة ، وزاد الادّخار على مدى الأيّام نموّا ، فأُدخل فى المدارس ، ونشّط الإقبال عليه بضروب المنافسة . بيد أنّ طبيعة الطفل نَزّاعَةٌ إلى اللهو ، وإلى إدراك ثمرة أعماله على الفور ، فيعوقه هذا عن موالاة الادّخار ، ويعترضه الفتور وهو فى سبيل السعى ، لذلك كان حقّا على المشرفين على الأطفال أن يزيدوهم حثّا وتشجيعا ، ويزوّدوهم بالأمثلة من طريق القدوة الصالحة ، ويستكتبوهم الموضوعات فى ثمرات الادّخار . وإنّك لو حادثت الطفل عن مكنون ضميره لأظهر لك أن نقوده التى يودعها صندوق الادّخار طائعا مختاراً هى محبوسة عنه وهو محروم منها ، إذ لا يستطيع ردّها من مصلحة البريد إلّا بإذن ناظر مدرسته وهيهات أن يأذن له . وما لم ير التلاميذ أنفسَهم فى حلّ من استرداد أموالهم والانتفاع بها لا تجد فيهم الإقدام الإرادىّ ، ولا يعتادون الادّخار وهم فى مقتبل العمر .

أمّا وجه الفائدة من الادّخار فإنّها قد تكون شخصيّة محضة ، لأنّ المدّخر يستفيد ممّا يدّخره ما ربّما يتساهل فى إنفاقه لولا الادّخار ، والموظّف يستفيد من ادّخار جزء من راتبه يضمن معاشه عند اعتزاله العمل .

وقد تكون الفائدة اجتماعيّة لمؤاساة الفقراء ابتغاء الأجر الذى وعد الله به عباده المحسنين . وقد تكون ضاربة فى هذه الأغراض بسهم ، كما يرى فى شركات التأمين على العقار وعلى الحياة إزاء مبالغ يدفعه الأعضاء كلّ سنة ، وكما يرى فى شركات التعاون المنزلىّ التى

تبيع الموادّ المنزليّـة لأعضائها بثمن قليـل الرّبح ؛ وكما يرى فى شركات التعاون المالىّ التى تجمع الأموال من أعضائها ، وتعطيـه من يكون منهم أقدر على العمل ليثمّره ؛ وكما يرى فى النقابات الزراعيّة التى تتعهّد شراء الآلات والدوابّ والبذور والسّماد وتبيعها للفلّاح بربح زهيد ، أو تتقاضى ثمنها ممّا تخرجه الأرض من الغلّات ؛ وكما يرى فى نقابات العمّال وبها تسمى طوائفهم لرأب صـدعها ولمّ شعثها ، ويد الله على الجماعة






Bibliotheca Alexandrina
04803349